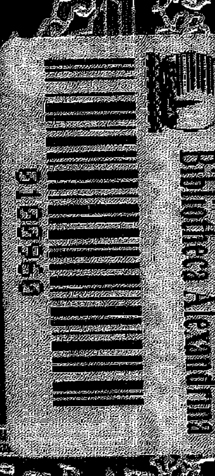


الإمام آية الله
الشيخ محمد مهدي شمس الدين
رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان

بين الجاهلية والإسلام

المؤسسة الدولية
للدراسات والنشر














بين الجاهلية والإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطّبْعَة الثالثة

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

الطّبْعَة الرابعة

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م



بيروت: بئر العبد - مقابل مدرسة قصر الصنوبر
تلفون: ٨٢٤٧٩٥ خليوي: ٨٦٦٠٤٤/٠٣
ص. ب: ٢٥/٢٤٧ الغبيري

الإمام آية الله

الشيخ محمد مهدي شمس الدين

رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان

بين الجاهلية والإسلام





بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير البرية والانام سيدنا ونبينا محمد (ص) وعلى آله وصحبه الذين اتبعوه باحسان الى يوم الدين.

بين يدي القارىء الكريم هذه الدراسة الجليلة والمعالجة الموضوعية لنقطة من اهم النقاط الساخنة في حركة الصراع بين الجاهلية والاسلام، وهذا الموضوع يعتبر من المواضيع المطروحة للحوار في كل زمان ومكان، لأن البشر هم البشرن والاهواء والمطامع قائمة في صراع مستمر مع الحق .

كتاب بين الجاهلية والاسلام لسماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين (دام ظله)، الذي يسلط الاضواء فيه على نور الاسلام وعظمته في مواجهة ظلمة الجاهلية، وان تعددت اشكالها واساليبها واشخاصها .

تنشره المؤسسة الدولية للدراسات والنشر في طبعته الرابعة لما لهذا السفر الجليل من الاهمية الكبرى خصوصا في هذا الزمن الذي كثر فيه الجهلاء، وعادت الجاهلية وان بأشكال واساليب اخرى .

والله ولي التوفيق

المؤسسة الدولية للدراسات والنشر

بيروت - لبنان ١٩٩٥



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتعرض الاسلام في هذا العصر – في العالم الاسلامي – لعملية تشويه وتزوير رهيبة ، يقوم بها دعاة الالحاد والضلال في البلاد الاسلامية ، ومن ورائهم قوة الغرب وقوة الشرق بكل ما تحملانه من احقاد على الاسلام ، وخوف من انبعاثه قوة فاعلة في العالم الحديث . وذلك لما ثبت لهاتين القوتين من أن الاسلام كان – ولا يزال – الحاجز الأقوى دون استقرار نفوذهما الثقافي والاستعماري في العالم الاسلامي .

وتقود هذه الحملة بصورة غير مباشرة معاهد وجامعات في خارج العالم الاسلامي ، في أمريكا ، وأوروبا الشرقية والغربية . ويقودها بصورة مباشرة في العالم الاسلامي رجال يحتل كثير منهم مراكز قيادية في مؤسسات التعليم الكبرى من الجامعات والمعاهد ، كما يحتل قسم آخر منهم مراكز ادارية رئيسة ، ذات تأثير حاسم على حركة التعليم واتجاهاته في العالم الاسلامي .

والهدف الكبير الخطير الذي يبغي القائمون بهذه الحملة الرهيبة تحقيقه هو أن يتكوّن في نفوس ناشئة المسلمين في كل وطن من اوطانهم الاعتقادُ :

بأن الاسلام ليس وحياً من عند الله تعالى ، ارسل به رسوله محمداً ﷺ ، يمثل الحقيقة الدينية الكلية والنهائية في سلسلة رسالات الله الى بني الإنسان ، والاعتقاد في مقابل ذلك بأن الاسلام ظاهرة ثقافية ، واجتماعية ، واقتصادية تاريخية كسائر الظواهر التاريخية التي مرت على بني الانسان .

وان الاسلام – لما تقدم – لا يصلح لأن يطبق في هـذا العصر ، ولا أن تمارس الحياة على هداه ، لأنه نتاج ظروف ، وملابسات ، وتركيب اجتماعي واقتصادي وغير ذلك مما كان سائداً في عصر انقضى بما حفل به من ملابسات وظروف اقتصادية واجتماعية .

وان هذا يؤدي الى الاعتراف والتسليم بأن القيم الحديثة ، والمناهج الحديثة هي الخليقة بأن تتبـع بدلاً من الاسلام ، ونظامه واحكامه .

الى هنا وتفترق الطريق بهؤلاء الدعاة .

فمن كان منهم مواليـــاً للغرب الرأسمالي ، مفتونـــاً به أو عميلاً له ، دعا المسلمين الى اتباع هذا الغرب ، والسير على خطاه في قيمه وأنظمته الاقتصادية والاجتماعية ، بل ربما دعا الى الدخول في فلكه السياسي .

ومن كان منهم مواليـــاً للشرق الشيوعي ، مفتوناً به أو عميلاً له ، دعا المسلمين الى الاقتـــداء بهذا الشرق في أنظمته كلهـــا ، وفي طريقة حياته ، بل فيهم من دعا الى الدخول في فلكه السياسي .

ونحن نعلم ان في هؤلاء وهؤلاء بعض المخلصين في موقفهم هذا او ذاك .

انهم – كعرب مثلاً – ينظرون الى أمتهم وقد تمزقت وتخلفت ، ويرون

الى ارضهم واوطانهم وقد تخطفها الاستعمار وأذنابه من كل جانب ، ويرون الى ثرواتهم تذهب نهباً للأقوياء من الأعداء او تذهب هدراً ، يرون هذا كله فتشتعل في قلوبهم الحمية والرغبة في الانبعاث ، فيبحثون عن طريق ، فيجد بعضهم – بحكم نشأته ، وثقافته ، ومناخه الفكري – هذا الطريق او ذاك الطريق .

ولم يدخلوا في حسابهم وجود طريق ثالث ، هو طريق الاسلام .

لماذا ؟

لأنهم لا يعرفون الاسلام

لماذا ؟

لأنهم – وهنا قسوة الحقيقة – صنعوا بأيدي الغرب او بأيدي الشرق . وهذه الأيدي وتلك الأيدي أرادت لهم ألا يروا إلا الطريق الذي يضمن لها أن تبقى هي القوة الفاعلة المؤثرة في حاضر هذه الأمة ، وفي مستقبلها ، وفي مصيرها . وقد شوّه الغرب والشرق في الاسلام ، وحرّفوا وزوّروا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، لينتهي الاسلام في نفوس اتباعهم من المسلمين الى الجمود والخمود فلا يعود طاقة فاعلة محركة ، وإنما يغدو كمية مهملة مضى زمانها – في زعمهم – وحان وقت التخلص منها .

فهؤلاء الذين اتخذوا الشرق ولياً لهم وأولئك الذين اتخذوا الغرب ولياً – يعيشون في سجن من المسلّمات والاحكام المسبقة عن الاسلام ودوره في الحاضر والمستقبل .

إن الغرب لم ينفك منذ اكتشف ان الاسلام الحي النابض في قلوب وعقول المسلمين يشكل حاجزاً دون بسط النفوذ، والسيطرة – لم ينفك يهدم الاسلام

ويفرغه من محتواه في قلوب وعقول المسلمين ولا يدخر وسيلة إلا اتبعها في سبيل الوصول الى غايته هذه [1] .

وأما الشرق فيمثل مواقفه من الاسلام ويعطي فكرة عنهـــا ما ورد في « المعجم الفلسفي » المكتوب من وجهة النظر الشيوعية (موسكو ١٩٦٧) حيث يقول عن الاسلام انه :« يبرر الظلم الاجتماعي ويصد الناس عن الكفاح الثوري ، ويدفعهم الى انتظار بليد للسعادة في الآخرة » [2] .

* *

والمطلوب من هـؤلاء المخلصين ان يكافحوا ذواتهم من اجل ان يخرجوا من القفص الذي وُضِعوا فيـه ، وان يكتشفوا الطريق الثالث الوسط الذي هو الاسلام ، وسيكتشفونه حتماً إذا أرادوا :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبُلَنا ، وإن الله لمع المحسنين » [3] .

وسيمتلكون حينئذ السلاح النظري الفعال في النضال المجيد نحو مستقبل حافل بالوعود .

لقد خاطب الله المسلمين في كل عصر – من خلال خطابه لرسول الله ﷺ – محذراً من الانزلاق في مهاوي فتنة أعداء الاسلام والمسلمين :

---

(١) لتكوين فكرة متكاملة عن الجهود الغربية في هـذا المضمار راجع : الدكتور محمد محمد حسين رئيس قسم اللغة العربية بجامعة الاسكندرية – حصوننـا مهددة من داخلها – الطبعة الثالثة – بيروت – دار الارشاد – سنة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

(٢) هذا النص منقول عن : « ماركسية القرن العشرين » لمؤلفه روجيه غارودي – ترجمة نزيه الحكيم – منشورات دار الاداب – بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٧٢ – الصفحة ٢٥ .

(٣) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

« فاستقم كما امرت ومن تاب معك . ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركَنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار . وما لكم من دون الله من اولياء ، ثم لا تُنصرون »[1] .

* *

وتجد هذا الفريق من الناس الذي اتخذ حرفته حرب الاسلام وتشويهه — تجده في معاهد التعليم ، والصحافة ، وغير ذلك من وسائل النشر والاعلام ، ينشر الضلال ويبثه في ناشئة المسلمين على اختلاف مستوياتهم الذهنية .

وقد أفلح قادة هـذه الحملة في جعل طائفة كبيرة من ناشئة المسلمين تشعر بالغربة عن دينها ، وتاريخها ، ومثلها العليا .

* *

وهذه الصفحات مساهمة صغيرة في كفاح هـذا التيار الالحادي المقنع ، تتضمن عرضاً وايضاحاً لبعض مبادىء الإسلام ، مقارنة بالواقع الجاهلي الذي كان سائداً قبل الإسلام ، والقيم الجاهلية التي يراد لها أن تسود — بدلاً من الإسلام — في هذا العصر .

والله تعالى أسأل أن ينفع بها ، ويجعلها جهداً مقبولاً في سبيل مرضاته ، والحمد لله رب العالمين .

محمد مهدي شمس الدين

---

(١) سورة هود : الآية ١١٢ — ١١٣ .



بين الجاهلية والإسلام

لست أدري مـا إذا كانت الكلمات قادرة على أن تعكس صورة أمينـة لعالم ما قبـــل الاسلام ، وعلى وجه التحديد للعصر الذي انتهى ببعثة نبي الاسلام محمد ﷺ .

هل تستطيع الكلمات وحدها أن تصور بأمانة ودقة مدى ما حل بالضمير الانساني والنفس الانسانية في عـالم الجاهلية من عفن وقذارة وانحطاط ؟

ومدى السخف واللامعقولية اللذين كانت عليهما شرائع الناس في عـالم ما قبل الاسلام ؟

ومدى الفساد والانحلال اللذين كانت عليهما أخلاق الناس آنذاك ؟

ومدى الذلة والوضاعة اللتين كانت عليهما حياة مئات الملايين من الناس في ذلك العالم الجاهلي ؟

بينما تمـارس حفنة صغيرة من البشر ، فاسدة ومنحطـة الى حد مروع ، قاسية وحيوانية الى أدنى مستوى ... تمارس استبداداً بشعاً ، وظلماً أسود شرساً ، واستغلالاً يمتص كل جهـد إنساني – على هذه المـــلايين الممسوخة إنسانيتُها ، الذليـلة الضارعة ، والغارقة في حمـأة شهوات جسدية محمومة ، والمحكومة فيما بينها بعلاقات فاسدة .

هل تستطيع الكلمات ان تصور بأمانـة ودقة ، وبصدق موضوعي ، كل مـا كان يوجد من انحطاط ، وكل ما كان مستشرياً في الناس والمؤسسات من فساد ..؟

هل تستطيع الكلمات ؟

* *

استعير هنا – لتصوير بعض ملامح جاهلية ما قبل الاسلام – كلمات قالها الإمام علي بن أبي طالب – أعظم خصوم الجاهلية ، واكثرهم صدقاً في حربها بعد رسول الله ﷺ – قالهـــا في مواقف كان يصارع فيهـا – بالكلمة والسيف – فلول الجاهلية وتجمعاتها في عصره، متمثلة في الافكار، والاشخاص، والجماعـات .

– ١ –

قال عليه السلام يصف حال العرب قبـل بعثة محمد ﷺ ، وذلـك بعد أن بويع بالخلافـــة ، وبدأت رواسب الجاهليـة تطفح على سلوك بعض القـادة والجماعات في المجتمع الإسلامي :

« .. وانتم معشر العرب عـــلى شر دين ، وفي شر دار منيخون [١] بين حجـارة خشن ، وحيات صم [٢] ، تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب [٣] وتسفكون دمـاءكم ، وتقطعون ارحامكم ، الاصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة [٤] ».

– ٢ –

وقال عليه السلام يصف حال المجتمع البشري قبل الاسلام :

« .. بعثه (النبي محمد ﷺ) والناس ضُلاّل في حيرة ،

---

(١) منيخون : مقيمون .

(٢) حيات صم : الحيات الصم هي أخبث انواع الحيات ، لانها لا تهرب من الاصوات .

(٣) الجشب : الطعام الغليظ ، او الطعام بغير ادام .

(٤) نهج البلاغة – رقم النص : ٢٦ .

وخابطون [1] في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم [2] الكبرياء ، واستخفتهم [3] الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل [4] » .

- ٣ -

وقال عليه السلام بعد معركة صفين التي أجج نارها الجاهليون في وجهه ليقطعوا عليه مسيرته الاسلامية :

« واشهد ان محمداً عبده ورسوله، أرسله بالدين المشهور .. والناس في فتن انجذم [5] فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري [6] اليقين ، واختلف النجر [7] وتشتت الامر ، وضاق المخرج وعمي المصدر ، فالهوى خامل ، والعمى شامل [8] » .

- ٤ -

وقال عليه السلام يصف الجاهليين :

« ليتأس صغيركم بكبيركم ، وليرأف كبيركم بصغيركم ، ولا

---

(١) خابطون : يسيرون في حياتهم على البدع بلا علم ولا هدى .

(٢) استزلتهم : أدت بهم الى الزلل والسقوط .

(٣) استخفتهم : جعلتهم الجاهلية طائشين .

(٤) نهج البلاغة – رقم النص : ٩٥ .

(٥) انجذم : انقطع .

(٦) السواري : جمع سارية : العمود ، كناية عن دين الحق الذي يجمع الناس .

(٧) النجر : الاصل ، اي اختلفت الاصول ، فكل فريق من الناس يرجع الى عقيدة يحسبها حقاً وهي باطل .

(٨) نهج البلاغة – رقم النص : ٢ .

تكونوا كجفاة الجاهلية ، لا في الدين يتفقهون ، ولا عن الله يعقلون ، كقيض[1] بيض في أداح[2] يكون كسرها وزراً ، ويخرج حضانها شراً[3] » .

شبّه الانسان الجاهلي ببيض الأفعى في العش ، يراه الرائي فيعتقد انه بيض القطا لكثرته فلا يكسره لأنه يعتقد انه بيض القطا ، ويرجو من بقائه الخير لأنه يفقص عن طير القطا ، بينما هو في حقيقته بيض الأفعى ، وحضانه يخرج شراً لأنه يفقص عن أفعى .

وهكذا الانسان الجاهلي . له من الانسانية صورتها ، ولكنه في اعماقه خبيث وشرير ، بما اشتمل عليه وحمله من قيم الجاهلية المنحرفة .

---

(١) القيض : القشرة العليا اليابسة على البيضة .

(٢) أداح : جمع أدحي ، هو مبيض النعام في الرمل ، تدحوه برجلها لتبيض فيه .

(٣) نهج البلاغة – رقم النص : ١٦٤ .

جَاهِلِيَّة مَاقَبْلَ الإِسْلَامِ



من الأخطاء الشائعة على ألسُنِ الناس اعتبار « الجاهلية » اسماً للفترة التاريخية التي مرت على العرب قبل الاسلام . فاذا قيلت كلمة « جاهلي » صفة للشعر ، أو النثر ، أو السلوك ، أو لإنسان أو جماعة من الناس ، فهم السامعون منها ان المتكلم يعني عرب ما قبل الاسلام ، أو شعرهم ، أو نثرهم ، أو سلوكهم .

هذا – كما قلنا – خطأ شائع .

والحقيقة ان « الجاهلية » اسم للضلال والانحراف عن المثل الصحيحة ، والمناهج المستقيمة ، لدى أي عنصر من النـاس ، وفي أي وطن كان وأي زمان .

فهي صفة لعالم ما قبل الاسلام كله بما فيه من عرب وغيرهم .

وهي أيضاً صفة للمبادىء والمثل التي تبشر بها المادية المعاصرة على اختلاف مظاهرها وأشكالها [1] .

وفيما يلي عرض لمظاهر الحياة الجاهلية وسماتها قبل الاسلام .

---

(١) سنعالج هذه المسألة في بحث واف في القسم الثالث من هذا الكتاب ، فصل « الجاهلية الحديثة » .



- ١ -

في الدين والاخلاق

حين نتحدث عن الأخلاق فإما أن نتحدث عن النظريات ، وإما أن نتحدث عن واقع الحياة اليومية لدى الناس .

فإذا شئنا ان نتحدث عن النظريات فسنجد دائماً في كل عصر افكاراً في الأخلاق مثالية رائعة ، فان الإنسانية – لِمَا اراد الله بها من خير – لم تُعدم في جميع عصورها ، وفي جميع اوطانها ، وعلى اختلاف عناصرها رجالاً تتأجج في اعماقهم نار داخلية تدفع بهم دوماً الى ان يبحثوا عن صيغة افضل لحياة الانسان مع الانسان في المجتمع، وان يبشروا بما يهتدون اليه من قواعد في السلوك البشري .

وبهذا تكون مهمتنا هي ان نؤرخ للنظريات الأخلاقية التي ظهرت على مدى العصور ، وبذلك نقدم صورة لتطور الأفكار عند النخبة ، ولا نكون قد صورنا ما عليه حياة الناس في الواقع ، وهو ما يهمنا بحثه هنا .

اننا نريد في هذا البحث ان نكوّن فكرة عن واقع سلوك الكثرة الساحقة من البشر في حياتهم اليومية. وسنرى، إذ نبحث عن الوضع الاخلاقي في الحياة اليومية ، أنه يختلف اختلافاً أساسياً عن النظريات في الكتب .

ولهذا فاننا يجب ان ننطلق للتعرف على الوضع الاخلاقي لعالم ما قبل الاسلام في الحياة اليومية ـ اننا يجب ان ننطلق ـ لا من النظريات الاخلاقية ـ وإنما من الوضع الديني لعالم ما قبل الاسلام .

* *

وإذن ، فليس لنا ان نطمع بوضع اخلاقي لعالم ما قبل الاسلام افضل من الوضع الديني لهذا العالم ، فإن الدين هو مصدر التعاليم الاخلاقية التي يرتكز عليها تعامل الكثرة الساحقة من البشر مع انفسهم ، وتعامل بعضهم مع البعض الآخر [1] .

---

(١) لا نعني بهذا انه لا يوجد لدى الانسان السوي حس اخلاقي خارج الاعتقاد الديني ، إذ لا شك بأن الحس الاخلاقي فطري لدى الانسان ، ومستقل عن المعتقد الديني . ان الانسان قد فطر على ان يدرك بعقله من ناحية مبدئية ـ الخير والشر ، والحسن والقبح : الخير الذي هو حسن ، والشر الذي هو قبيح .

اما دور الدين بالنسبة الى الاخلاق فهو :

اولاً : « يحتوي » هذه الادراكات العقلية الفطرية ويسبغ عليها قداسته .

ثانياً : ان الادراك العقلي للخير والشر يتصف بالشمول والكلية ، والدين ـ في جانبه التشريعي والتوجيهي ـ يحلل الكليات الى تفاصيل جزئية مصنفة في سلم القيمة الاخلاقية ، ويضع لها الاطار القانوني .

ثالثاً : ان الدين يوفر في نفس الانسان الدوافع الى تطبيق ادراك عقله وفطرته في سلوكه اليومي ، ايجاباً من ناحية الخير ، وسلباً من ناحية الشر .

هذا هو الموقف الاسلامي من هذه المسألة .

وثمة موقف آخر في نطاق الاسلام من هذه المسألة ، هو الموقف الأشعري (نسبة الى فرقة الاشاعرة الكلامية) التي ترفض فكرة استقلال العقل البشري بادراك الخير والشر والحسن والقبح ، لأنه ليس للمواقف الانسانية في ذاتها قيمة اخلاقية خيرية او شرّية ، وإنما توصف هذه المواقف بذلك نتيجة لأمر الشارع ونهيه ، فما أمر الشارع به فهو خير ، وما نهى عنه الشارع =

وقليلون جداً أولئك الذين يدركون ـ بمعزل عن أي اتجاه ديني ـ افضل السبل التي ينبغي للانسان ان يسلكها في الحياة .

وسترى الى اي حد من التشويه وصل الروح الديني عند الناس في عـالم مـا قبل الاسلام ، وقد انعكس هذا التشويه على اسلوب النـاس في أخذهم للحياة وممارستهم لها وموقفهم منها ، وعلى اسلوب تعامل الناس بعضهم مع البعض الآخر .

* *

كان العالـَم المسيحي قد انشق على نفسه الى شيع واحزاب ، كل حزب يأخذ في المسيح وأمه برأي من الآراء ، ويدعو الناس الى اتباعه فيه بالعنف إذا لم يفلح اسلوب السلام ، ويحارب مخالفيه . فتحول العالـَم المسيحي الى ميادين حرب لا تعرف إنسانية ولا رحمة .

= فهو شر . قالوا : « لا حكم للعقل في حسن الافعال وقبحها ، وليس الحسن والقبح عائداً الى أمر حقيقي حاصل فعلا قبل ورود بيان الشارع ، بل ان ما حسنه الشارع فهو حسن ، وما قبحه الشارع فهو قبيح . فلو عكس الشارع القضية ، فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعاً ، وانقلب الأمر فصار القبيح حسناً والحسن قبيحاً ، ومثلوا لذلك بالنسخ من الحرمة الى الوجوب ومن الوجوب الى الحرمة » (محمد رضا المظفر : أصول الفقه ج ٢ ص ٢١٦ نقلا عن شرح التجريد للقوشجي) .

ان هذه المسألة هي إحدى مسائل الخـلاف النظري بين الشيعة الامامية والمعتزلة من جهة والأشاعرة من جهة أخرى .

وهذه المسألة تعـالج في كتابات هذه الفرق في الفلسفة ، وعلم الكـلام ، وعلم أصول الفقه معنونة بعنوان عام هو « المستقلات العقلية » او عنوان خاص هو « مسألة التحسين والتقبيح العقليين » .

يقرأ بحث المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه (أصول الفقه) الطبعة الثانية / النجف ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٦ م – ج ٢ ص ٢١٣ – ٢٤٠ . وبحث السيد محمد تقي الحكيم في كتابه (الأصول العامة للفقه المقارن) – دار الأندلس – بيروت ١٩٦٣ ص ٢٧٩ – ٣٠٠ .

ويستطيع الباحث ان يلاحظ في العالم المسيحي آنذاك تيّارين اخلاقيين:

١ ـ النظرة التشاؤمية الى الحياة ، الرافضة لمتاعها وزينتها . يمثلها أولئك الذين استجابوا لبعض وصايا المسيحية برفض هذا العالم ، واعتباره شراً ورجساً .

هؤلاء تخلوا ـ بتأثير هذه النظرة ـ عن القيام بدور ايجابي في حياة مجتمعاتهم .

وهؤلاء يختلفون ـ بطبيعة الحال ـ في مدى رفضهم ، وموقفهم الزهدي في الحياة .

فريق منهم مضى في الرفض الى منتهاه ، فتخلى عن حياة الأسرة ، وعن الحياة الاجتماعية ، وعن المساهمة في اي انتاج .

وفريق منهم تخلى عن الاسرة والحياة الاجتماعية الواسعة الطبيعية ، ليشكل افراده جماعات مستقلة تتجول هنا وهناك ، او تستقر في مكان دون ان تنتج اطلاقاً ، او شيئاً يذكر .

والفريق الأعظم ممن تأثروا بهذه النظرة في الارياف بقيت لديهم ارتباطاتهم الأسرية ، وحياتهم الاجتماعية ، ولكن تأثير هذه النظرة ظهر في موقفهم من العمل الانتاجي في الزراعة وغيرها .

لقد سادت فكرة « القناعة » والاكتفاء بالقليل ، فازداد الفقراء فقراً وضعفاً ، وازداد الأغنياء قوة وتسلطاً .

ولعل اليهود وجدوا في واقع كهذا أحد العوامل الكبرى التي هيأت لهم فرصة انشاب مخالبهم الشريرة في قلب اوروبا ، ومكنت لهم ان يمتصوا بالربا جهد الفلاح المسيحي ، ويسيطروا بالربا على الاقطاعي المسيحي ، الذي يندفع الى التخلص من سوء حالته المالية بالغلو في اعتصار جهد الفلاح البسيط ، والاندفاع في مغامرات عسكرية ضد جيرانه الاقطاعيين .

وبذلك تكون سلبيات هذه النظرة الرفضية قد سببت كثيراً من المآسي والجراح للانسان المسيحي .

٢ — النظرة المادية النفعية الى الحياة ، هذه النظرة التي هي وريثة الوثنية الرومانية ، ذات المزاج الحسي الشهواني ، يمثلها أولئك الذين — بالرغم من كونهم مسيحيين — ظلوا متأثرين بالعقلية الرومانية في النظر الى الحياة الدنيا ومتعها الحسية .

وقد أمعن هؤلاء في التبذل ، وغدا الهمُّ الوحيد لهم اكتساب المال من أي وجه ، ثم انفاقه في الترف واشباع الشهوات .

ونتيجة لهذا الواقع الاخلاقي فقد انتشرت الخيانة والرشوة في الحياة العامة . وتدهور القضاء فغدا العدل بضاعة يساوَم عليها . وفضل كثير من الناس حياة العزوبة فراراً من مسؤوليات الأسرة ، وليرووا غليل شهواتهم دون عائق ، حتى لقد انتهى الأمر برجال الحكم والسياسة والقانون الى حد تصريف الشؤون العامة في مخادع المومسات .

أما اوروبا الشمالية والغربية فقد قال عنها المؤرخون :

« لقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وافظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت » .

* *

وكانت اليهودية — كما انها لا تزال حتى الآن — بعد ان حرّف اليهود كلام الله وكفروا وضلوا ضلالاً بعيداً — قد تحولت الى دين خرافي قومي ، يؤجج في اليهود الروح العنصرية العدوانية ، ويلهب فيهم عواطف الكبرياء ، والحقد ، وشهوة التدمير ، وحب المال ، والنفاق ، والقسوة الوحشية — لقد تحولت اليهودية على أيدي كفرة اليهود الى هذا وأمثاله ، بدل ان تبقى كما أنزلها الله رسالة سلام ومحبة وعدالة .

وغدت تعاليم التوراة ـ بعد ان نالتها يد التحريف ـ عبارة عن وصايا من إله اليهود اليهم بأن يمثلوا في سلوكهم مع الناس أفراداً وجماعـات ومجتمعات أحط مـا يمكن ان يتفتق عنه خيـال مجرم عريق في الاجرام من وحشية ، وانحطاط ، وشر ، في كل ميدان وعلى كل صعيد .

وقـد تحول اليهود ـ منذ ذلك الحين ـ الى فريق شرير ، يزرع الشر في العالم ، في كل مجتمع حلوا فيه كانوا بؤرة فساده وافساده .

* *

أما في الامبراطورية الفارسية فقد كانت الزردشتية (المجوسية) [1] دين الدولة الرسمي ، وقد تحولت الى وثنية سخيفة ، لا تهذب ضميراً ، ولا تدفع نحو مثل أعلى ، مما سبب اندفاع الناس في تيار شهواني مادي ، في ظل نظام اجتماعي يجعل الناس رقيقاً او أشبه بالرقيق لطبقة الاشراف، ورجال الدين ، ورجال الحرب .

وقد انتشر ـ في ظل الزردشتية ـ الزواج بالمحارم من البنات والاخوات في الامبراطورية الايرانية ، ومارسه الاباطرة أنفسهم .

وكان الملوك ـ في ظل الزردشتية كما عرفت في التـاريخ ، وبسببها ـ قد رُفعوا عن مرتبة الانسان بما أضفي عليهم من عنصر إلهي ، يليهم الاشراف ،

---

(١) زردشتية : نسبة الى زردشت ، ظهر بدعوى النبوة في القرن السابع ق . م ، وربما من الاقليم الذي فيه افغانستان الحديثة .

عن الزردشتية – كما عرفت في التاريخ – والنظـام الاجتماعي والاقتصادي النابع منها في ايران راجع : ارثر كريستنسن (ايران في عهد الساسانيين) ترجمة يحيى الخشاب / القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٥٧ .

ص : ١٠٣ – ١١٠ و ١٣١ – ١٦٨ و ٣٠٣ – ٣٢٠ .

ورجال الدين ، وقادة الجيوش ، بينما انحطت عامة الناس عن مرتبة الانسانية بما ارتضته لنفسها من عبودية .

وجاءت المانوية [1] لتصلح ما فسد من الوضع الديني والاخلاقي ، فبشرت بنزعة صوفية تقف موقفاً سلبياً من العمل البشري الانتاجي ، كما تقف موقفاً سلبياً من الأسرة .

وجاءت بعدهــــا المزدكية [2] لتصلح ما فسد من أمر الدين ، وتصحح وضع الانسان الايراني ، فتحولت الى اباحية فاجرة تدعو الى شيوعية النساء والأموال .

وبقيت الزردشتية سيدة الموقف بكل مـــا ولدته من ضياع وانحطاط للانسان .

* *

---

(١) كان مـاني ايرانياً من اسرة عريقة . ولد في بابل سنة ٢١٠ أو ٢١٦ م . وقد انتشرت دعوته الزهدية ثم حكم عليه بالكفر في محفل رأسه قاض زردشتي ، فأدخل السجن حيث عذب عذاباً أليماً مات على أثره في سنة ٢٧٦ م وذلك في عهد الملك بهرام الاول ،

عن ماني والمانوية راجع المصدر السابق (ايران في عهد الساسانيين) ص : ١٦٩–١٩٥ .

(٢) مزدكية : نسبة الى مزدك . دعوة دينية ظهرت في ايران حوالي آخر القرن الخامس الميلادي (٤٨٧ م ؟) في عهد الامبراطور قباذ .

ان هذا المذهب في حقيقته صيغة جديدة المانوية ، ولكنه تحول الى ثورة اجتماعية شيوعية اباحت النساء والاموال .

وقد تعاظم نفوذ الجماعة المزدكية بحيث حاولت في آخر ايام الامبراطور قباذ ان تعارضه في وراثة العرش ، ولكن قباذ وولي عهده كسرى دبرا لزعماء المزدكية مذبحة في سنة ٥٢٩ م ، ثم لوحق اتباع المذهب فقتلوا واحرقت كتبهم الدينية :

عن مزدك والمزدكية راجع : المصدر السابق(ايران في عهد الساسانيين) ص:٣٠٣–٣٤٧ .

وتوزعت الصين :

بين وثنية صوفية مترهبة تقف من الحياة والاستمتاع بها موقفاً سلبياً ، وترفض الحياة الزوجية ، وترى في المرأة كائناً دنساً منحطاً .

وبين كونفوشوسية مادية لا تتعدى العالم المادي المحسوس .

وبين بوذية تحولت الى وثنية غليظة .

وكل هذه المناهج الدينية كانت بتعاليمها ، واعترافهـــا بالنظام الطبقي الهرمي الصارم للمجتمع ، تؤدي الى ضياع وانحطـاط الانسان ، وتؤدي الى انشاء علاقات فاسدة بين الناس . وهو ما كان قائماً بالفعل في حياة الصين .

* *

وفي الهنـد انتشرت الديانات الوثنية بصورة مزرية ، بحيث بلغت الآلهة من الكثرة حداً يفوق الحصر .

وكان فيما عبدوا : اشخاصاً من البشر ، وجبـــالاً ، ومعادن مخصوصة ، وانهاراً ، والبقر ، والنجوم .

وكان بعض كهنة المعابد من أشد الناس غلواً في الفسق والفجور ، وتحولت بعض المعابد الى مواخير ، وغدا الزنا أسلوباً من أساليب العبادة .

لقد افرز هذا الوضع الديني حيث استقر أو امتد أثره نظاماً من أعجب الأنظمة الاجتماعية في سحقه للانسان من جميع وجوهه ، وحسبنا ان نذكر من جملة مقوماته نظام النَّبْذ الذي جعل من عشرات الملايين من الناس ، وهم (المنبوذون) أحط من احقر الحيوانات اطلاقاً .

* *

أما في بلاد العرب فقد كان السائد بينهم وثنية عجيبة غريبة ، لا يتوفر

فيها ما توفر في الوثنيات الأخرى من الفن وارضاء حس الجمال ، فضلاً عن ان تلهم معتنقيها مبادىء اخلاقية وشرائع اجتماعية .

كانت القسوة والفظاظة ، والسكر والزنا ، والربا واللصوصية ، ووأد البنات والأبناء خشية العار والفقر ـ كانت هذه الخصال اخلاقاً فاشية فيهم ، لا يتذممون من شيء منها .

وكان فيهم من يكره اماءه على الزنا ، ويأخذ أجرهن .

وكانت الحرب عندهم سبيلاً من سبل الكسب وتوطيد المكانة الاجتماعية في ذلك المجتمع البدوي . وما أكثر الحروب الطاحنة المدمرة التي خاضتها بعض القبائل العربية الكبرى ضد البعض الآخر لأسباب تافهة .

ولم يكن لمفهوم العدالة القانوني أي وجود في أذهانهم، فلم تكن ثمة سلطة مسؤولة عن اقامة العدل، ولم يكن ثمة حدود يقف الانسان عندها في احقاق الحق واقامة العدالة ، بل كان أمر القصاص موكولاً الى الفرد نفسه ، يقتص كما يشاء له هواه ، دون ان يكون ثمة نظام يسير عليه .

والخلاصة في أمر الاخلاق، في جاهلية ما قبل الاسلام ، انها كانت تمارس على أساس عاطفي ، شخصي ، او عنصري ، او طبقي ، ولم يكن للعقل والمثل الدينية الصافية فيها سوى نصيب يسير . ومن هنا كان الاسفاف والضّعة التي كانت عليها اخلاق الناس في جاهلية ما قبل الاسلام .



- ٢ -

في الحكم والاقتصاد والاجتماع

كانت حفنة صغيرة من الملوك والأمراء تمارس ، في شتى أنحاء العالم ، على ملايين من البشر حكماً استبدادياً مطلقاً ، يستند الى دعوى حق إلهي في الحكم ادعاه هؤلاء الملوك والأمراء لأنفسهم، وبررته وفلسفته الكهانات التي كانت تدعمهم ويدعمونها ، وطبقة النبلاء الاقطاعيين ومن اليهم ، التي يستند اليها حكمهم .

لا نستثني من هذا دولة واحدة .

من نستثني ؟ روما ؟

لقد كان العدل الروماني الذي يضرب به المثل حينذاك - في الامبراطورية الرومانية - وهي اكثر الدول تقدماً في فن الحكم وسياسة الناس إذ ذاك - كان العدل الروماني المشهور عدلاً للرومانيين وحدهم. أما شعوب المستعمرات في آسيا وافريقيا فكانت عند الرومان عبارة عن حيوانات سخرتها الآلهة لخدمتهم وحدهم .

إن الباحث ليعجب من عنف الظلم والجور الذي كانت تعانيه هذه الشعوب من حاكميها .

وعلى الاجمال ، كان الحكم ، في عالم ما قبل الاسلام ، لوناً من السيطرة غير المحدودة ، تهدر فيها أبسط القيم الانسانية ، ويسحق فيها الانسان بلا رحمة ، ولا يقام فيها وزن لأي مبدأ اخلاقي .

وكان الحكام بعيدين عن الشعور بمسؤولية الحكم والسلطة ، كما فُهمت المسؤولية التي يتحملها الحاكم في عالم ما بعد الاسلام .

* *

وفي ميدان الاقتصاد نرى ان موارد الشعوب ، وثمرة كدحها وجهدها كانت مخصصة لنفقات هذه الحفنة المترفة الفاجرة من الملوك والأمراء وبطانتهم من نبلاء ومغنين وجوارٍ ومضحكين وما الى ذلك ممن يمت اليهم ويتصل بهم .

وبينما كانت الكثرة الساحقة من كل شعب تجوع وتعرى ، ويقتلها المرض والجهل والكدح ، كانت هذه الحفنة من سادة عالم ما قبل الاسلام غارقة في ترف فاجر داعر ، فكان الحاكمون في رومة وبيزنطة وفارس وغيرها ينظرون الى شعوبهم بالذات ، فضلاً عن شعوب مستعمراتهم ، نظرتهم الى أرقاء خلقوا من اجل توفير ما يشتهي هؤلاء السادة بسهولة وبسرعة .

وقد كانت الضرائب ـ المورد الأساس لمالية الدولة ـ تعتبر مورداً خاصاً من موارد الحاكم ينفق منه ما يشاء بلا رقابة من احد .

وكانت هذه الضرائب تجبى في ظل أقسى الشروط وأسوئها .

ولم يكن ثمة تقدير ثابت ومعين للمقدار المطلوب اداؤه في كثير من الاحيان ، بل كان ذلك رهناً برغبة الحاكم او المفوض بالجباية ، والويل لمن يعجز عن اداء ما يطلب منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وننقل فيما يلي مثالاً عما كان يحدث في مصر ، وهي لا تختلف عن غيرها في أسلوب المعاملة :

« ... وزادت الضرائب في عهد الرومان زيادة كبيرة، حتى شملت – كما يقول المؤرخ ملن – الاشخاص والاشياء . فكانت تجبى على الرؤوس والصناعات ، وعلى الماشية والأراضي ، ولم تكن مقصورة على انواع خاصة من البضائع . بل كانت تجبى على المارة ، رجالاً ونساء – تجاراً وغير تجار – ومن صناع السفن ، ومن زوجات الجنود ، وعلى أثاث المنازل . ولم تقتصر تلك الضرائب على الأحياء ، بل تعدتها الى الموتى ، حتى انه كان لا يسمح بدفن الميت إلا بعد دفع ضريبة معينة . وقـــد ألزم المصريون بايواء من يمر بهم من الموظفين الملكيين والعسكريين من الرومان ، وتقديم مـا يلزمهم من الحاجات ، وتوفير أسباب الراحة لهم في حلهم وترحالهم ، كما ألزموا في السنين الأخيرة بأن يقوموا بغذاء الجنود [١] » .

* *

وكان عالم ما قبل الاسلام قائماً – في أنظمته الاجتماعية – على تصنيف الناس الى طبقات توجب تفاوت أقدارهم ، وقيمهم ، وحظهم من الكرامة والانسانية بتفاوت طبقاتهم التي ينتمون اليها .

وكان من نصيب أولئك الذين لا يحتلون قمة الهرم الطبقي، أو مكاناً قريباً منها ، الامتهان والزراية ، والقيام بخدمة الطبقات العليا .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – الطبعة الرابعة – ١٩٥٧ م ج ١ ص ٢٣٣ .

كان هــذا في الامبراطورية الفارسية ومستعمراتهــا ، وعند الرومان وفي مستعمراتهم ، حيث عززته وبررته فلسفاتهم وآراء مفكريهم ، كما كان موجوداً ، بشكل أو بآخر ، في جميع مواطن الحضـــارة الاخرى . وبلغ أقصى غاياته وأشنع صوره في الهنـــد حيث كان يعتقد ان التقسيم الطبيعي الغريب العجيب السائد في الهند ناشيء من كون الطبقات العليا قد خلقت من رأس الإله وساعديه، أما الطبقات السفلى فقد خلقت من فخذيه وقدميه .

وحينما يكون الانقسام الطبقي ـ أياً مــا كان المحور الذي يقوم عليه هذا الانقسام ـ قائماً على مبدإ جعل الطبقة التي ينتسب اليها الانسان مقياساً لقيمته الاجتماعية وتحديدها . حينما يحدث هــذا فان المجتمع يقع في شر عظيم ـ إذ انه يؤدي ـ مضافاً الى تحقير الانسان بجعل قيمته تابعة من شيء خارج ارادته وذاته ـ الى التناحر الطبقي الذي يكوّن في داخل المجتمع الواحد مجتمعات مغلقة على نفسها ، تضغ احقادها الطبقية وتنميهــا ، وتتحين فرصة التعبير عنها بالانتقام من أعدائها الطبقيين .

* *

ومما يتصل بما تقدم الآن ان المرأة كانت ، في عالم ما قبل الإسلام، مخلوقاً ناقص الانسانية في افضل الحالات ، وقد ساهمت في اعطاء هذه الفكرة عنها الأديان والفلسفات .

وكان موقف الرجل منها يتراوح بين نبذها التام ، وبين اعتبارها مصدراً للهو والاستمتاع في افضل الحالات .

وامــا النظر اليها كانسان كامل الانسانية ، حر ومسؤول ، فكان أمراً غير وارد على الاطلاق .

* *

كان عالم الجاهلية عالماً خرباً ، منحلاً ، عفناً ، سرى الخراب والانحلال والعفن فيه الى جميع مؤسساته .

الدين انحدر الى مستوى الخرافة ، وتسبب في ضياع الانسان .

والاخلاق لم تعد قائمة على العقل والفطرة الصافية ، وإنما على الهوى والعاطفة ، أو على نظرة خاطئة الى مركز الانسان في الحياة ، فبدلاً من ان تكون سبيلا لنمو انسانية الانسان ، غدت سبباً لضياعه وانحطاطه .

والحكم تحول الى استرقاق

والاقتصاد خصص ليغذي نفقات فجور حفنة صغيرة من الناس .

وعلاقات الناس فيما بينهم فسدت الى أبعد مدى .

كان هذا هو الحال في مراكز الحضارة والمدنية والتقدم العقلي ، فما بالك بمواطن الهمجية والتأخر .

* *

وعلينا قبل أن نختم هذا الحديث أن ننوه بأن جاهلية ما قبل الإسلام على ما سادها من ظلام لم تكن تخلو من مناطق نور . ففي الظلام السائد آنذاك كانت توجد هنا وهناك واحات لا تزال مصابيح الهدى مضيئة فيها . في جزيرة العرب متمثلة بجماعات الحنفاء ، ومتمثلة بجماعات أخرى مشابهة في كثير من بلدان العالم القديم.وكانت هذه الجماعات تشكل رفضاً عملياً ونظرياً لعالم الجاهلية ومثله وأساليبه .

وكانت هذه الجماعات تعي بوضوح ان عالم الجاهلية لا يمكن ان يستمر ، وانه لا بد أن يأتي نور الله وهدى الله ، ليضيء الظلمات ، ويمحق الباطل ، وينقذ الانسان ، فيصحح وضعه في الحياة والكون ، ويضعه على الصراط المستقيم .

وكان وعي واحات النور هذه صادقاً ، فأشرق نور الإسلام .



الإسلام

- تعريف
- عصر جديد للانسان . الانسان الجديد
- من مبادىء الاسلام العامة



تَعْرِيفٌ بالإِسْلَامِ


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلام

تعريف بالاسلام

بعث الله سبحانه وتعـــالى نبيه محمداً ﷺ في عالم كهذا برسالة فيها خلاص هذا العالم .

وهذه الرسالة هي رسالة الاسلام .

وقد اكتسب هذا الدين اسمه الخاص « الإسلام » من القرآن الكريم ، حيث ورد هذا اللفظ في آيات كثيرة اسمـاً للدين الذي أرسل به محمد ﷺ ، وللدين الإلهي في جميع مستوياته على مدى العصور .

قال الله تعالى :

« إن الدين عند الله الاسلام . ومـــا اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .. [1] »

وقال تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين [2] » .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٨٥ .

وقال تعالى :

« فمن يرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام .. [١] »

وقال تعالى :

« ..اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام ديناً [٢] » .

وقال تعالى :

« أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه [٣] » .

وقال تعالى :

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعَى الى الاسلام ، والله لا يهدي القوم الظالمين [٤] » .

* *

وكما ان تسمية الدين الإلهي الحق ـ قبل محمد ﷺ وبعد بعثته بالصيغة الأخيرة والكاملة للدين الإلهي ـ كما ان هذه التسمية تمت بالوحي القرآني ـ كذلك تسمية معتنقي هذا الدين « مسلمين » اشتمل عليها الوحي القرآني في هاتين الآيتين المحددتين للملامح الرئيسية في شخصية الجماعة المؤمنة .

---

(١) سورة الانعام ، الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٣ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٤) سورة الصف ، الآية : ٧ .

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله ، هو مولاكم . فنعم المولى ، ونعم النصير [١] » .

وهنا نلاحظ ان هذه التسمية « الاسلام » تميز الدين الإسلامي عن سائر الأديان . فان الأديان السابقة على الإسلام قد نسبت الى مؤسسيها او الى قبائلهم ، فنجد « اليهودية » « الموسوية » « المسيحية » « بوذية » « زرادشتية » « مانوية » وغير ذلك . بينما نجد ان هذا الدين لم ينسب الى النبي الذي أرسل به ، وإنما سمي بهذا الاسم «الإسلام» الذي يجرده عن أي تسمية أرضية ، ويصل معتنقيه بالله مباشرة دون توسيط بشر بينهم وبين الله سبحانه وتعالى [٢] .

* *

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٧ – ٧٨ .

(٢) نلاحظ ان بعض الكتاب – من المسلمين وغيرهم – يطلق على المسلمين اسم « محمديين » و « الطوائف المحمدية » ويقولون عن فلان او فلان انه « محمدي » وهكذا .

ان هذا خطأ عقيدي وتاريخي ، والمسلمون يرفضون هذه التسمية لانها خطأ عقيدي وتاريخي ، إنهم مسلمون ، والاسلام وحي الله تعالى ، وليس من اختراع وابتداع محمد بن عبد الله (ص) حتى تنسب الدعوة اليه ، وينسب اتباعها اليه . ولذلك فان المسلمين منسوبون الى الله في معتقدهم ، وليس الى نبي الاسلام صلى الله عليه وآله وسلم .

ونأمل أن يكف الذين يستعملون كلمة « محمدي » للدلالة على المسلم عن استعمالها ، لأنها كما قلنا آنفاً ، خطأ .

وهذه الملاحظة تنتهي بنـــا الى ملاحظة أخرى هي الحديث عن معنى كلمة « إسلام » .

معنى كلمة إسلام :

إن كلمة إسلام تعني :

١ ـ الطاعـــة المطلقة لله سبحانه وتعالى دون سواه ، ودون اشراك أحد معه .

٢ ـ وموضوعَ الطاعة المطلقة وهو الدين المسمى بهذا الاسم (إسلام) بما هو نظام كامل للحياة .

ـ ١ ـ

فان الفكرة الإسلامية عن الإله الواحد سبحانه وتعـالى تجعل له السلطة المطلقة ، وتمام التصرف والحاكمية في الكون والمخلوقات . فهو تعالى على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، ورب كل شيء ، واليه الأمر كله .

قال تعالى :

« قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزِع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير [١] » .

وإذن فلا يمكن أن توجد قوة في الكون وفي الحياة يمكن ان تعارض الله تعالى في حكمه النافذ وارادته التكوينية ، او تنازعه في سلطانه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٦ .

وكتاب الله سبحانه وتعالى حافل بالآيات التي تدل على أن الإسلام هو الطاعة المطلقة لله دون سواه ، ودون اشراك أحـــد معه في أي شأن من شؤون الانسان .

منها قوله تعالى :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[1]».

ومنها قوله تعالى :

« ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة،ثم يقول للناس كونوا عبـاداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بمـا كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين ارباباً . ايأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون [2] » .

فهذه الآيات ــ وغيرهــــا ــ ظاهرة في أن الاسلام يعني الرفض الحاسم والنهائي للعبودية لغير الله ولعبادة غير الله تعالى .

فان الوحي القرآني يحصر العبــادة (الطاعة المطلقة وطلب المعونة) بالله تعالى ، كما يحصر عبودية الانسان بالله سبحانه وتعالى .

قال تعالى :

« قل يا أيهـا الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ – ٨٠ .

تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ، وأمرت ان اكون من المؤمنين [1] » .

وقال تعالى :

« ما تعبدون من دونه الا اسماءً سميتموها انتم وآباؤكم ، ما انزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا اياه ، ذلك الدين القيم [2] » .

وقال تعالى :

« ولله غيب السماوات والارض ، واليه يُرجَعُ الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه [3] » .

- ٢ -

وموضوع الطاعة ـ التي هي التعبير العملي عن العبودية لله تعالى ـ هو الدين المسمى بهذا الاسم « الإسلام » بما هو نظام كامل للحياة يشمل مساحة الحياة الإنسانية كلها : عمقاً وامتداداً في الزمان .

فإن المؤمن بالإسلام يعتقد ان لكل فعل من أفعاله ، كل موقف سلبي أو إيجابي يتخذه في حياته اليومية الخاصة والعامة ، حكم في الشريعة الإسلامية عليه أن يلتزمه ، ويكون أميناً عليه .

وحينما يسلم المرء فانه يلتزم بالخضوع والتسليم المطلق لله الذي لا حـد

---

(١) سورة يونس ، الآية ١٠٤ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة هود ، الآية : ١٢٣ .

القدرته وسلطانه من خلال التزامه بهذا الدين عقيدة وشريعة تنظم حياته من جميع وجوهها .

وبذلك ينقطع عن الاعتماد على أية قوة غير الله سبحانه وتعالى .

والآيات الكريمة التي تجعل الإسلام التزاماً كاملاً بالدين ، عقيدة وشريعة ، كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى .

منها قوله تعالى :

« ان الله اصطفى لـكم الدين ، فـلا تموتن إلا وانتم مسلمون [1] » .

ومنها قوله تعالى :

« أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً ، واليه يرجعون [2] » .

ومنها قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وانتم مسلمون [3] » .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٢ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٨٣ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢ .



عَصْرٌ جَدِيدٌ لِلإِنْسَانِ : الإِنْسَانُ الجَدِيدُ

عصر جديد للانسان

الانسان الجديد

كان ظهور الإسلام إيذاناً بأن عصراً جديداً بالنسبة الى الانسان قد بدأ ، وانه بالاسلام وُلد الإنسان الجديد .

وقد وردت اشارات كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى الى ولادة هذا الانسان الجديد .

ومن أظهرها دلالة على هذه الحقيقة قوله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله [1] » .

ان التعبير في الآية المباركة بكلمة «أخرجت» يوحي بالاحداث والتكوين. يعني ان هذه الأمة وجدت واخرجت بعد ان لم تكن . نظير قوله تعالى « الذي اخرج المرعى » [2] . بالإسلام ، إذن ، أُخرجت هذه الأمة ووجدت .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

(٢) سورة الاعلى ، الآية : ٤ .

وهي أمة أخرجت لا لنفسها ، وإنما أخرجت للنـاس ، فهي ذات دور تاريخي عالمي يتعدى الأمة نفسها ليشمل البشرية كلها ، انها أمة مختارة .

وقد ورد التصريح بأن الإنسان الجديـد هو الانسان المختـار من قبل الله سبحانه وتعالى لاداء مهمة اصلاح البشرية في قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ، واعبدوا ربكم ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج . ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هـذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونـوا شهداء على النـاس ، فأقيموا الصلاة ، وآتـــوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير [١] » .

* *

ومن أكثر النصوص الاسلامية إيحاء بأنه بالاسلام بدأ عصر جديد للانسان ما ورد في خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، وهو قوله :

« وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض [٢] » .

فاننا لا نفهم معنى لاستدارة الزمـــان أقرب ولا أوجه من أنه قد بدأ جديداً بـكراً كما بدأ أول ما خلق . فان الزمان الأرضي بالمعنى الذي نفهمه

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٧ - ٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا ورفيقيه - الطبعة الثانية : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ ج ٢ ص ٦٠٤ .

ماشيء عن حركة الفلك . ويوم خلق الله السماوات والأرض بـدأ هذا الزمان بعد ان لم يكن . فكأنه ﷺ يريد أن يقول ان الاسلام فاصل بين زمانين في عمر الانسانية زمـان مضى وزمـان جديد بدأ بالاسلام الذي كوّن الله به الانسان الجديد ، وهو الانسان المسلم .

* *

والانسان الجديد الذي وُلد بالاسلام، والذي لا يزال الاسلام قادراً على تكوينه في كل عصر وفي كل وطن ، هذا الانسان ليس جديداً بالنسبة الى جهة خاصة من جهات نفسه ومجتمعه ، بل هو جديد بالنسبة الى جميع وجوه حياته : في الامتداد والعمق ، في الظاهر والباطن .

هذا الانسان جديد في الحياة الشخصية والعـامة ، في الممارسة الاخلاقية والسياسية والاقتصادية في التعامل مع الله عابـداً مُنيباً ، وفي التعـامل مع الكون المادي المسخر له سيداً فاعلاً مريداً ... في كل هـذا وفي غيره وُلد بالاسلام انسان جديد .

وذلك لأن رسالة الاسلام ليست مذهباً إصلاحياً يتناول جانبـاً خاصاً من جوانب الحياة ويهمل سائر الجوانب، وإنما هي عقيدة ثورية شاملة ومستوعبة لجميع مظاهر النشاط الانساني .

* *

وقد كان رسول الله ﷺ منذ أوائـل العهد المكي ـ كما علمه الله سبحانه وتعـالى ـ واضحاً ، وحاسماً ، وصريحـاً في الرفض المطلق لكل ما كانت عليه الجاهلية والانسان الجاهلي من نظام ، وأعراف ، ومفاهيم.

لقد ظن بعض زعمـــاء المجتمع المكي الوثني ـ في الفترة القصيرة التي

التزموا فيها الحوار مع رسول الله ﷺ، ثم انتقلوا منها الى مرحلة الاضطهاد ـ لقد ظن هؤلاء أنّ في وسعهم أن يدخـلوا مع النبي في مساومات، وان يصلوا معـه الى بعض الحلول الوسط التي تتم عن طريق التسويات ـ كما يحلو لبعض المفكرين في هـذه الايام أن يفعـلوا حين يتحدثون عن « تجديد » الاسلام ـ ظن أولئك الزعماء المكيون ان في وسعهم ان يصلوا مع النبي ﷺ الى تسوية .

لقد قيل «ان جماعة من المشركين دعوا النبي ﷺ الى ان يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة » .

« وقيل انهم قالوا، نشركك في أمرنا، فان كان الذي في أيدينا خيراً كنت قد أخذت بحظ منه، وإن كان الذي في يدك خيراً كنا قـد أخذنا بحظ منه » .

وقيل ان الذي قال ذلك: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والاسود ابن المطلب، وأمية بن خلف .

وقيل : انهم قـالوا : « نتداول العبادة ليزول مـا بيننا من البغضاء والعداوة [1] » .

وربمـا يكون كل ما روي انه قيل، عناصر حوار واحد مع رسول الله ﷺ، اشتمل على « حلول » متعددة للمشكلة التي كان يعاني منها المشركون.

ولكن جواب رسول الله ﷺ ـ كما علمه الله تعالى ـ على هـذه العروض كلها كان صريحـاً وحاسماً :

« قل يا ايها الكافرون . لا أعبد مـا تعبدون . ولا انتم

---

(١) محمد بن الحسن الطوسي (الشيخ الطوسي) : التبيان في تفسير القرآن ـ ط : النجف الاشرف/العراق ـ ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م ـ ج ١٠ ص ٤٢٠ .

عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولي دين [1] » .

هكذا ، بعد رفض العبادة والعبودية لغير الله تعالى تأتي النتيجة ببساطة: هي الانفصال المنهجي الكامل بين عالم الجاهلية وعالم الاسلامية : « لكم دينكم ولي دين » .

وهذا الموقف الاسلامي هو الموقف الأساسي في الاسلام منذ بدأ بصيغته الأولى . انه استمرار لموقف ابراهيم عليه السلام والجماعة المؤمنة التي كانت معه من قومهم الكافرين ، في هذا الشأن يخاطب الله تعالى المسلمين مبيناً لهم مواقف اسلافهم في مسيرة الايمان : « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده [2] » .

* *

ولما كانت المؤسسات الانسانية الفاسدة ، وأفكار الانحطاط والضياع الانساني ، ومناهج السلوك الملتوية والمنحرفة عن النهج السوي – لما كان كل هذا نتاجاً للروح الانسانية الضالة المريضة ، كانت الوسيلة الصحيحة لانقاذ الانسان من جاهليته هي انقاذ روحه ، انقاذ كيانه المعنوي من الضلال ، وشفائه من الأمراض ، ورد الاعتبار الى العقل الانساني المخدر بالخرافات والاوهام .

ولذلك كان إصلاح الانسان من الداخل ، مضافاً الى إصلاح مؤسسات المجتمع ، وتنظيم العلاقات الانسانية على أسس تستمد معناها من الانسان

---

(١) سورة الكافرون ، الآيات : ١ – ٦ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

ومعناه – كان هذا هو الطريق الذي شرعه الله تعالى في الاسلام ، لإنقاذ الانسانية من جاهليتها المظلمة .

فإصلاح المؤسسات وحده ، مع بقاء الذات الانسانية على فسادها وانحطاطها ، لا يفيد في المدى البعيد ، لأن الفساد الكائن في نفس الانسان ، والضلال المحيط به سيدفعه في النهاية الى افساد اوضاعه الخارجية من جديد.

كما ان إصلاح الانسان من الداخل فقط ، مع ابقاء الأوضاع والظروف الفاسدة المحيطة به على حالها سيؤدي بالانسان في النهاية الى الفساد بسبب ظروفه الخارجية .

وإذن ، فلا بد من إصلاح عالم الانسان وعالم المؤسسات معاً .

مِن
مَبَادِئ الإِسْلَامِ العَامَّة



نقدم فيما يلي تعريفاً موجزاً ببعض المبادىء العامة في الاسلام ، ليتسنى لنا تكوين فكرة مقاربة عنه . مؤكدين ، في الوقت نفسه ، ان الوصف الكلامي لأية دعوة عامة — وللاسلام بوجه خاص — لا يعدو كونه وصفاً من خارج ، ولا يغني — بحال من الاحوال — عن الممارسة الفعلية لتلك العقيدة — بوعي — حيث يتاح للممارس عن طريق الممارسة اكتشاف مزاياها وابعادها الخفية التي يعجز الوصف الكلامي عن التعريف بها بصورة صحيحة .

وفي كتاب الله سبحانه وتعالى توجيه كثير نحو العمل باعتباره الطريق الأفضل لاكتشاف الحقيقة ، وعدم الاكتفاء بالتعلم النظري وحده ، بل ان الله تعالى يذم الذين يكتفون بالتعليم النظري وحده، دون ان يحولوا معرفتهم الى عمل يومي :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسوْن أنفسكم ، وانتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون [1] » .

« يا أيها الذين آمنوا : لِمَ تقولون ما لا تفعلون : كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون [2] » .

وقد بيّن الله تعالى أن هذا الفريق من الناس سيكون موضوعاً لشكوى رسول الله ﷺ الى الله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٤ .

(٢) سورة الصف ، الآية : ٢ — ٣ .

« وقال الرسول : يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً [1] » .

فإن « اتخاذ » القرآن مهجوراً ربما يعني شيئاً غير « ترك » العمل به نتيجة لرفضه من حيث المبدأ ، ربما يعني معرفته ثم تجنب تطبيقه ، والله تعالى أعلم.

فثمة من بين مجموعة المواقف من القرآن ، موقفان منه :

احدهما : موقف رفضه المطلق ، رفض اكتشافه نظرياً ، فضلاً عن رفض تطبيقه العملي ، وهذا هو موقف الكافرين المبدئي :

« وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [2] » .

ثانيها : موقف القبول النظري والهجر العملي في مرحلة التطبيق ، وهو الموقف الذي نتحدث عنه .

وهذه الآية تبدو كأنها حكاية لبعض المواقف المعاصرة من القرآن التي تدعو الى « هجر » القرآن في الحياة العامة ، وتحويله الى كتاب للتبرك ، او ، في احسن الأحوال ، للعمل به في مجال الأحوال الشخصية فقط .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

- ١ -

دين واحد

من المبادىء المقررة في الاسلام ان جميع الدعوات الدينية التي جاءت من قبل الله سبحانه وتعالى بواسطة أنبيائه ورسله ـ ومنها الدين الاسلامي ـ هي في الحقيقة والواقع عبارة عن دعوة واحدة ، ودين واحد، ولا اختلاف بينها في الحقيقة والجوهر ، وإنما الاختلاف في الشمول وعدم الشمول ، والسعة والضيق ، وذلك بحسب ما تقتضيه سنة الله من التدرج في تعليم البشرية حسب سيرها التصاعدي نحو الكمال والتقدم بتربية الله تعالى عن طريق رسله صلوات الله عليهم جميعاً .

« فان للمجتمع الانساني نشأة طبيعية كنشأة الفرد،وادواراً في الحياة مثل ادواره .

« فله مولد كما لأي فرد من أفراده ، ثم له دور طفولة وعهد صبا ، وطور مراهقة ، وله سن كمال ونضوج . وله تدرج طبيعي أيضاً في نمو الوعي واتساع المدارك ، وتكامل المواهب وهو يتدرج في تكامل وعيه ، واتساع مداركه مع تدرجه في أطوار حياته ، كما ينتقل الفرد في ذلك سواء بسواء .

« ومن البديهي ان تختلف ضرورات الاجتماع مع اختلاف اطوار المجتمع في النشأة ، واختلاف ادواره في الوعي ، ومن البديهي ان تختلف متطلبات هذه الضرورات كذلك من طور الى طور ، ومن دور الى دور .

« فكان من الحتم ان يتدرج القانون الاجتماعي مع المجتمع الناشيء وان يعدّ له في كل طور ما يوائمه .

« على الدين ان يحضن المجتمع الانساني وليداً ، وان يدأب في تغذيته وتنشئته طفلاً ، ويجهد في تأديب غرائزه صبياً ، ويسعى لتقويم عاداته وإنماء مداركه يافعاً ، ويدخر للمجتمع التامّ النمو ، المكتملِ الرشد ما يوائم نضوجه ورشده .

« على الدين ان يتطور كذلك ويتدرج في تقديم هداياته وتطعيم علاجاته ، اخذاً بناموس الارتقاء في الامور ، وسيراً مع اقتضاء الحاجة في المجتمع .

« ولو لم تتطور الشرائع الدينية مع المجتمع ، ولو انها اعطته غذاء الرجولة في دور الطفولة ، لكانت هازلة الحكمة فاقدة الجدوى ، بل لكانت بالغة الضرر معكوسة النتيجة، ومن يثب الى القمة من اعلى السلم يوشك أن ينتكس الى الحضيض مهشماً .

« وهذا التحول الارتقائي في الشرائع لا يثلم وحدة الدين ابداً ، كما ان التطور الاجتماعي ذاته لا يصدع وحدة المجتمع .

« وعلى هذا المنهاج الطبيعي، وعلى هذا السنن الرشيد أنزل الله سبحانه وتعالى شرائعه للانسان ، فأعطاه في كل عهد ما

يلائمه ، وكان دور الرشد الاجتماعي هو دور الرسالة الكاملة ، والشريعة الخالدة [1] » .

* *

والشواهد على هذا المبدأ الاسلامي من القرآن الكريم كثيرة جداً .

منها قوله تعالى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا اليك ، ومـــا وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [2] » .

وقوله تعالى مخاطباً المسلمين :

« قولوا : آمنا بالله وما أنزل الينا ، وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط ، ومـا أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون [3] » .

وقوله تعالى :

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربـه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله[4]».

---

(١) محمد امين زين الدين : الاسلام ينابيعه ، مناهجه ، غاياته – ط : النجف / الاشرف ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م – ص : ٨٢ – ٨٣ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٣٦ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

فهذه الآيات ، وغيرها مما لم نذكره ، صريحة في أن الاسلام لا ينظر الى الدعوات السابقة عليه باعتبارها دعوات غريبة عنه ، وإنما ينظر اليها باعتبارها حلقات سابقة له في سلسلة التعليم الإلهي للبشرية ، وهو يمتاز عليها جميعاً بأنه الحلقة الأخيرة ، والرسالة الخاتمة في تلك السلسلة المضيئة ، الرسالة التي جاءت ملبية حاجات الانسانية في مرحلة الرشد والتكامل .

- ٢ -

العقيدة بالاله

الإسلام – كما عرفت – لم يعالج في الانسان حالة خاصة ، أو جانباً معيناً ، وإنما استوعب في تخطيطه كل نشاط ، وامتد بتشريعه وتنظيمه الى كل مرفق من مرافق الحياة .

وسنتبين – بعون الله تعالى – في هذا القسم من بحثنا عقيدة الاسلام في الالوهة ، وموقفه من خرافات عالم الجاهلية في هذه المسألة ، وفضله على الانسانية .

* *

ليس الإله في الإسلام مادة مواتاً ، ولا بطلاً خرافياً ، ولا حيواناً ابكم ، ولا إنساناً ، لا ، لقد انتهى عصر الخرافة بالاسلام ، وانتهى عصر الظلمات التي نسجتها الجهالات والضلالات التي تراكمت على عقل الإنسان وروحه ، انتهى هذا العصر بنور الله في الإسلام :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع

رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم [1] » .

إن الإسلام قد دعا الى عبادة الإله الواحد الأحد ، الذي ليس كمثله شيء :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد [2] .

* *

والله الواحد الذي لا شريك له هو مالك كل شيء ، واليه الأمر في كل شأن من شؤون الحياة والموت ، ومن هنـا فلا سلطان لأحد غير الله تعالى ، وارتباط الانسان في جميع شؤونه بالله وحده، ولا يملك شخص من الاشخاص، أو جهة من الجهات ، أو قوة من القوى سلطة موازية لسلطة الله تعالى :

« وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم واليه ترجعون . قل أرايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون [3] » .

« أمّن خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذاتَ بهجة مـا كان لكم ان تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمّن جعـل الأرض قراراً

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٥ — ١٦ .

(٢) سورة الاخلاص .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٧٠ — ٧٢ .

وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون . أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله قليلا ما تذكرون . أمّن يهديكم في ظلمــــات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، أإله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين[1] ».

* *

والله سبحانه وتعـالى عادل ورحيم وحكيم . فهو يعامـل الناس بمقتضى حكمته من عدالة أو رحمة :

« ان الله لا يظلم مثقال ذرة[2] » .

« ذو الرحمة[3] » « الرحمن الرحيم » .

« احكم الحاكمين[4] » .

* *

وليس ثمة حجب خارج ذات الانسان بين الله والانسان .

إن الانسان نفسه هو الذي يملك مفتاح القرب من الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٦٠ — ٦٤ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة الانعام ، الآية : ١٣٣ .

(٤) سورة التين ، الآية : ٨ . والآيات التي اشتملت على وصفه تعالى بهذه الصفات وردت في الكتاب الكريم بالعشرات . وما ذكرناه مثال منها على سائرها .

وذلك بالانابة والتوبة والعبادة،وهو الذي يملك أن يجعل بينه وبين الله حجاباً بالمعصية ونسيان الله تعالى .

والله سبحانه وتعالى قريب من كل إنسان : يسمع نجواه ، ويستجيب دعاه :

« ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد [1] » .

« وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون [2] » .

* *

وفيما بشر الإسلام بأصفى عقيدة توحيدية عرفها العقل البشري وأنبلها ، وحرّر بها الانسان من جميع العبوديات التي غلّت عقله، ومسخت إنسانيته، ورمت به في متاهات الضياع — نراه في الوقت نفسه يعلن حرباً لا هوادة فيها على الخرافة في الدين :

« إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً . إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً [3] » .

« ايشركون ما لا يخلق وهم يُخلَقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا انفسهم ينصرون [4] » .

---

(١) سورة ق ، الاية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

(٣) سورة العنكبوت ، الاية : ١٧ .

(٤) سورة الاعراف ، الاية : ١٩٠ — ١٩١ .

« قل : هـل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قـل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ، فانى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ، قل الله يهدي للحق [١] » .

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم شِرك في السماوات ؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً [٢] » .

« والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشركم ، ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد [٣] » .

فإلى هؤلاء الذين أقسموا :

« وقالوا : بعزة فرعون انا لنحن الغالبون [٤] » .

هؤلاء الوثنيين ، عبيد الأشخاص ، والمادة الموات، والى اصحاب الديانات السماوية المحرفة والوثنيات الارضية المزورة على الدين الحق،الى جميع الذين:

« اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله [٥] » .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٤ – ٣٥ .

(٢) سورة فاطر ، الاية : ٤٠ .

(٣) سورة فاطر ، الاية : ١٥ – ١٧ .

(٤) سورة الشعراء ، الاية : ٤٤ .

(٥) سورة التوبة ، الاية : ٣٢ .

الى هؤلاء جميعـاً وجه الله هذه البيانات الهـادية الشافية ضد الخرافة في الدين داعياً الى تحرير الانسان من هذه العبوديات كلها :

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم : الاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[1] ».

* *

وقد رد الإسلام الى العقل الإنساني كرامته المهدورة في معظم الحضارات والثقافات السابقة على الإسلام ، وذلـك حينما وجه الخطاب اليه ، ودعاه الى التـأمل في الكون والطبيعة والإنسان ، ليهتدي الى الحقيقة ، ويكتشف الصراط المستقيم .

والآيات التي وجه فيهـا الخطاب القرآني الى الإنسان بما هو كائن مدرك ومفكر ، وبما أن نعمة التفكير عنده هي سلاحه في اكتشاف الكون المحيط به ، وبما انه اذا عطل هذه النعمة عن العمل في مجالها الذي هيأهـا الله تعالى للعمل فيه ، فإنه يهوي في الضلال العقيدي والتعاسة الدنيوية .

إن الآيات الكريمة التي خاطب الله فيها الانسان المفكر بهذه الاعتبارات كثيرة جداً ، وهي تدل بما لا يقبل الريب على مـدى احترام الإسلام للعقل وتقديسه اياه .

قال تعالى :

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن في

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون . ومن النـــاس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حباً الله [1] » .

هـذا نموذج عن الآيات التي خاطب الله تعالى بهـــا الانسان بما هو كائن مدرك ومفكر .

« ان القرآن الكريم يدعو في كثير من آياته الى التفكر في الآيات السماوية والنجوم المضيئة ، والاختلافات العجيبة في اوضاعها والنظام المتقن الذي تسير عليه .

«ويدعو الى التفكر في خلق الأرض والبحار والجبال والأودية وما في بطون الأرض من العجائب ، واختلاف الليل والنهار وتبدل الفصول السنوية .

« ويدعو الى التفكر في عجائب النبات ، والنظام الذي يسير عليه ، وفي خلق الحيوانات ، واثارها وما يظهر منها في الحياة .

« ويدعـو الى التفكر في خلق الانسان نفسه ، والاسرار المودعة فيه ، بل يدعو الى التفكر في النفس واسرارها الباطنية وارتباطها بالملكوت الاعلى . كما يدعو الى السير في اقطـــار الارض ، والتفكر في آثار المـــاضين ، والفحص في أحوال

---

(١) سورة البقرة ، الاية : ١٦٣ — ١٦٥ .

الشعوب والجوامع البشرية وما كان لهم من القصص والتواريخ والعبر [1] » .

في هذه الابعاد الرحبة الواسعة اطلق الإسلام عقل الانسان رائداً، باحثاً، مكتشفاً محولاً كل مـا في الارض والفضاء من كنوز الى خدمة الانسان .

وبعد كل شيء ، فلنقل :

« لقد حرر مفهوم الكون، وشعائر الدين ، واعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات والمسوخ التي كانت تحط من قدرها وحررت العقول الانسانية من الهوى . لقد أدرك الانسان آخر الأمر مكانته الرفيعة...لقد حررت الروح من الهوى،واطلقت ارادة الانسان من القيود التي طالما ابقته موثقاً الى ارادة أناس آخرين ، او الى ارادة قوى أخرى يدعونها خفية . لقد هوى الكهّان، وحفظة الالغاز المقدسة الزائفون ، وسماسرة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأنهم وسطاء بين الله والانسان ، والذين اعتقدوا – بالتالي – ان سلطانهم فوق ارادات الآخرين – نقول : لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم ان الانسان امسى خادم الله وحده ، ولم تعد تشده نحو الآخرين غير التزامات الانسان الحر نحو الانسان الحر [2] » .

---

(١) محمد حسين الطباطبائي : القرآن في الاسلام – تعريب السيد احمد الحسيني – الناشر دار الزهراء – بيروت ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م – ص ١١٢ .

(٢) دفاع عن الاسلام – ص : ٤٥ – ٤٧ .

- ٣ -

اسلوب الدعوة

ألفنا ان نقرأ لكثير من المستشرقين دعوى طالما رددوها في كتاباتهم عن طبيعة الاسلوب الذي اتبعه رسول الله ﷺ في الدعوة الى الإسلام ، والذي سار عليه خلفاء المسلمين من بعده .

وخلاصة هـــذه الدعوى ان الإسلام انتشر ، في شبه الجزيرة العربية وخارجها بالسيف ، خلافاً للأديان الاخرى . ويزيـد بعضهم غلواً في دعواه فيذهب الى أنه لولا السيف لما انتشر الاسلام انتشاره التاريخي المعروف .

وعلينا أن نعترف بأن مروّجي هذه الدعوى قد استطاعوا أن ينجحوا في غرسها في عقلية الانسان غير المسلم في اوروبا وامريكا وغيرهما .

بل لقد استطاعوا أن يغرسوا هذا الاعتقـــاد في عقول كثير من العرب والمسلمين الآخرين الذين تلقوا تعليمهم وفقاً لمناهج التعلم الحديثة في أوطانهم، أو أتيح لهم أن يتعلموا في معاهد اوروبا وأمريكا وغيرهما .

في عـــالم خائف من الحرب ، كاره لها ، متلهف على السلام والأمن والاستقرار ، قـُدّمَ الدين الاسلامي الى الانسان الاوروبي والامريكي بأقـلام

المستشرقين والدعاة السياسيين الحاقدين على الإسلام ، أو الخائفين منه — قدم بصورة الدعوة التي تشهر السيف دائماً، وتسعى الى الحرب على انها دين ومبدأ.

* *

ولا نريد هنا أن ندخل في تبيان الدوافع والاهداف التي حملت هؤلاء على أن يتجاوزوا أمانة العلم المفروضة ، ودعتهم الى أن ينحرفوا عن جادة الحق، ويحرفوا الكلم عن مواضعه استجابة لغايات دينية وسياسية وحضارية . لا نريد تبيان هذه الدوافع وشرح أبعادها ، وخلفياتها في مؤسسات الحكم والثقافة والدين في أوروبا وأمريكا ، فذلك حديث طويل . وإنما نريد هنا أن نبيّن وجه الحق في حقيقة الاسلوب الذي شرعه الله سبحانه وتعالى للدعوة الى الإسلام .

* *

بيّنا فيما سبق ان الهدف الاساس والنهائي للاسلام هو اصلاح الانسان فرداً ومجتمعاً والارتفاع به الى أعلى الذرى .

أما بناء الدولة فليس غاية في حد ذاته . ان الدولة في الإسلام وسيلة لا غنى عنها لتوفير الظروف المناسبة لنمو الانسان المسلم والمجتمع المسلم .

وإذا كان الهدف الاساس والنهائي الذي لا يتعقبه هدف آخر هو اصلاح الانسان وبناؤه والارتفاع به الى أعلى الذرى فمن الواضح ان من المستحيل في هذه الحالة اعتماد اسلوب الارغام والاكراه في الدعوة اليه ، لأن هذا الاسلوب لا يؤمن الوصول الى الهدف المبتغى ، فإن الارغام ، إذا نجح ، يؤدي إلى الاعتناق الشكلي للاسلام من قبل المرغمين عليه ، دون أن يوفر العامل النفسي ، الذي هو عبارة عن القناعة العقلية الشعورية ، الذي يدفع بالانسان الى الممارسة الواعية لاحكام هذا الدين ، الممارسة التي هي الوسيلة الوحيدة الى تحقيق نمو الانسان وازدهاره ، وتفتح جميع طاقاته الخيّرة ، وارتفاعه في مراقي الكمال .

وذلك لان العامل النفسي الذي اشرنا اليه إنما يتأتى، من القناعة الواعية ، والرضا والقبول الحر .

لهذا نجد ان الله سبحانه وتعالى قد شرع الدعوة بالحسنى في سورة النحل المكية ، في قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي احسن ، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين [١] » .

ولكن هـذا الهدف لا يمكن ان يتم بصورة معقولة ومقبولة بدون بنـاء الدولة ، فهل يؤدي قيام الدولة الى تغيُّر مبدئي في تشريع اسلوب الدعوة في الاسلام ، بأن يتحول هذا الاسلوب من الدعوة بالحسنى الى الدعوة بالقوة ؟

نجيب على هذا بالنفي .

إن بناء الدولة لا يُدخل أي تغيُّر مبدئي في تشريع اسلوب الدعوة الى الاسلام . ان الاسلوب الاساس ، الذي يُفضل اتّباعَه دائماً يبقى هو اسلوب الدعوة الى الله بالحسنى .

ولكن علينا من أجل أن نكون موضوعيين ان ندخـل في حسابنا ان الدولة — أيّ دولة — وان النظام — أي نظـام كان — يعنيان السيادة ، ويقتضيان حرية الحركة . فلا نتصور دولة كاملة المقومات لا تمارس السيادة على أرضها وعلى شعبها ، كما لا نتصور دولة كاملة المقومات لا تتمتع بحرية الحركة .

وعلينا أن نفهم ان الدولة الإسلامية لا تقوم على أساس عنصري ، ولا على أساس قومي، ولا على أساس طبقي ، ولا على مفهوم الامبراطورية . انها تقوم

---

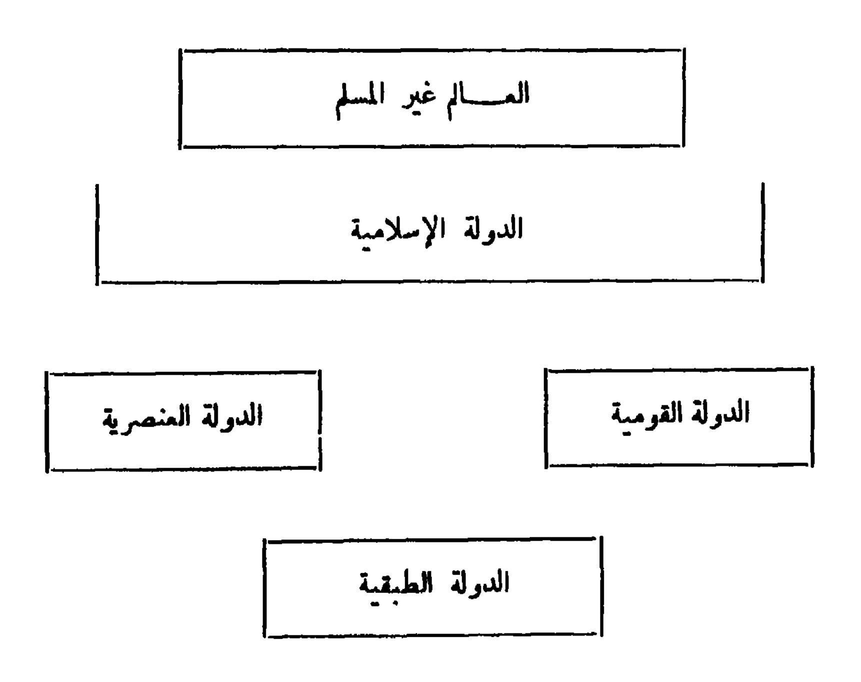
(١) سورة النحل (مكية) ، الاية : ١٢٥ .

على أساس الدين الإسلامي الذي يعتبر الانسانية كلها أسرة واحدة متلاحمة، انها تقوم على مجموعة بشرية مؤمنة بهذا الدين لا تعلو فيها قرابة على قرابة الإيمان .

وهي بطبيعتها هذه فريدة في طبيعة تكوينها السياسي ، فريدة في الروح التي تجمع بين مواطنيها وتحركهم ، لا يشبهها أي تكوين سياسي في العالم .

وهي - بتكوينها الفريد هذا - تواجه حينئذ بلا شك دولاً قائمة على اساس امبراطوري أو عنصري أو قومي ، أو طبقي .

إذن ، ان الدولة الإسلامية بحكم انفتاحها المطلق على الانسانية كلها تستطيع ان تتعايش مع أي دولة أخرى بسلام إذا توفرت لها حرية الحركة في مجال الدعوة الى الله .



هـذا ، مع الاعتراف بأن التكوين السياسي الإسلامي - بحكم كونه منفتحاً - يعتبر نفياً اخلاقياً وحقوقياً للتكوينات السياسية الاخرى ذات الطبيعة المغلقة . ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن ان يتعايش معها ، انها شيء موجود بالفعل ، ولا ضرورة للصدام معها إذا توفر شرط التعايش وهو حرية الحركة ، ولذا فيمكن القول ان التكوين السياسي الإسلامي يمكن ان يعايش التكوينات السياسية الأخرى - دون أن يعترف بشرعية الأساس الذي تقوم عليه - إذا توفرت له حرية الحركة في مجال الدعوة الإسلامية .

ولكن التكوينات السياسية الاخرى بحكم طبيعتها المقفلة ، التي يحجبها جدار العنصرية ، أو القومية ، أو الطبقية - هـذه التكوينات السياسية اللاإسلامية لا تستطيع أن تتعايش مع التكوين السياسي الإسلامي ، دون ان تتخلى عن مبرر وجودها وهو العنصرية أو القومية أو الطبقية وقد وردت الاشارة الى هذه الحقيقة في عدة آيات من كتاب الله تعالى ، منها قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودّوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بيّنا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ، ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور . ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ... [1] »

هذا التحليل يؤدي بنا الى توقع ان يجابه العالمُ غير المسلم الدولة الاسلامية بالعدوان، لأنها تشكل تحدياً اخلاقياً وحضارياً لوجود أي تكوين سياسي في العالم غير المسلم يقوم على أساس ظالم .

---

(١) سورة آل عمران (مدنية) ، الآية : ١١٨ - ١٢٠ .

وهنا نتساءل :

على أي نحو كان ينبغي ان يكون عليه موقف الشريعة الاسلامية — في مجال تشريع أسلوب الدعوة — من توقع كهذا ؟

ثمة موقفان :

احدهما ما يشتهيه المستشرقون ، ويأسفون لانه لم يحدث ، وهو موقف التسليم والخضوع لأي عدوان ، وممارسة الحسنى مع المعتدين .

ثانيهما ان تتصرف الدولة بمنطق الدولة فتمارس القوة .

ان الموقف الاول يؤدي الى استحالة موضوعية .

وذلك لأن هدف الإسلام الأساسي والنهائي — كما ذكرنا — هو بنــاء الانسان الجديد . والدولة وسيلة الى هـذا البناء ، فالسماح للمعتدي بممارسة عدوانه دون مقاومة وردع يؤدي — لا الى تهديم الدولة فحسب ، وإنما الى القضاء على الهدف الاساس ، فان المعتدي لا يحارب الدولة أو لا يقيد حرية حركتها السلمية في مجال الدعوة الى الله لمجرد الشهوة في الغلب ، وإنمـا يريد القضاء على المعنى الذي تمثله .

وقد ورد بيان هذه الحقيقة البديهية في سياق آيات وردت في شأن القتال في سورة البقرة المدنية :

« كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام . واخراج اهله منه اكبر عند الله ، والفتنة اكبر من

القتل ، ولا يزالون يقـــاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا [١] » .

« ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق [٢] » .

والآية صريحة في ان القتال نشأ من رفض التكوينات السياسية الاخرى لتوفير حرية الحركة للتكوين السياسي الإسلامي، ومن تصدي هذه التكوينات للتكوين السياسي الاسلامي بالحرب بهدف ان « يردوكم عن دينكم » فالحرب للقضاء على المعنى الذي تمثله الدولة ، وليس على الدولة من حيث هي كيان سياسي فقط ، والا فقد عرفت فيما مضى ان المشركين ـ مثلاً ـ كانوا على استعداد للقبول بالدعوة الاسلامية إذا وافق الرسول على تنـــازلات تلغي التعارض الاساسي بينها وبين المضمون الجاهلي للنظام القائم في مكة .

نتيجة لهـــذا كان لا بد ، إذن ، من التزام الموقف الثاني ، وهذا هو مـــا تضمنته الشريعة الإسلامية ، وهو مـــا سنشرح خطوطه العامة في كتاب الله تعالى ، ثم في الواقع التاريخي فيما يأتي .

* *

ننتقل الآن الى محاولة معرفة انواع المجتمعات والتكوينات السياسية التي تواجه المجتمع الإسلامي بما هو دولة .

في مقابل المجتمع الإسلامي الخالص نتصور المجتمعات التالية :

---

(١) سورة البقرة (مدنية) ، الاية : ٢١٦ – ٢١٧ .

(٢) سورة البقرة (مدنية) ، الاية : ١٠٩ .

١ — المجتمع المحايد :

وهو المجتمع الذي لا توجد معه حالة حرب ، ولم يعلن العـداء للتكوين السياسي الإسلامي ، ولا تضطهد الدعوة فيه .

هذا المجتمع يجب ان تقوم معه حالة سلام كاملة على اسلوب الإسلام الكريم النبيل في المودة والاحسان ورعاية الحقوق .

ولعل الله سبحانه وتعالى أشار الى هذا النوع من الجماعات والمجتمعات في هذه الآية المدنية :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين[١] ».

٢ — المجتمع المعاهد :

وهو المجتمع الذي تربطه بالمجتمع الإسلامي الخالص مواثيق متفق عليها بين المجتمعين . وعلى المسلمين في هذه الحـــالة أن يراعوا تلـك المواثيق وأن يعملوا بهـا على مـا ثبت في الشريعة الإسلامية من تشدد في رعاية العهود ، واحترامها نصاً وروحاً .

ولا فرق في هــذه المواثيق بين أن تكون قد أبرمت في حــالة سلام ، وذلك بأن يتحول المجتمع المحايد إلى مجتمع معاهد ، أو حصلت نتيجه لنزاع مسلح أعقبته حالة سلام تعاقدي .

وحرمة العهود والمواثيق في الشريعة الإسلامية ، وفي الاخلاق الإسلامية ، لا تعلو عليها حرمة. وقد تكرر كثيراً في كتاب الله تعالى تعظيم شأن العهود

---

(١) سورة الممتحنة (مدنية) ، الآية : ٨ .

بين المسلمين أنفسهم ، و بهم وبين غيرهم ، ووجوب الوفاء بها في جميع الأحوال .

قال تعالى :

« وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا [1] » .

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، ان الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة [2] » .

إن هذه الحرمة العظيمة التي جعلها الله تعالى للعهد شرعاً واخلاقاً كانت نتيجتها ما سجله التاريخ للمسلمين في جميع عصورهم من وفاء بالعهود نادر المثال ، بل عديم المثال عند غيرهم من أمم الدنيا .

وحينما أنهى الله تعالى حالة الهدنة العامة بين المسلمين والمشركين في سنة تسع للهجرة بسبب نقض المشركين لعهودهم أو عزمهم على نقضها ، وبعد أن أعطاهم الله تعالى فرصة أربعة أشهر لاتخاذ موقف نهائي مع الدعوة الإسلامية أو ضدها — حينما صدر هذا الاعلان أبقى الله تعالى للعهود التي لم تنقض حرمتها ووجوب الوفاء بها :

« واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ . فان تُبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غيرُ معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

اليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم احداً ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين [1] » .

* *

بل لقد بلغ تعظيم الإسلام للعهود والمواثيق ذروة تتجاوز كل خيال حين قرر انه يجب الوفاء بالعهد ورعاية بنوده حتى في حالة ما إذا كان الوفاء بالعهد يعرض جماعة المسلمين في مكان ما – خارج المجتمع الإسلامي الخالص – للخطر ، نتيجة لدخولهم في نزاع مسلح مع جماعة غير مسلمة ، مرتبطة مع المجتمع الإسلامي بميثاق .

وهذا الحكم الشرعي ثابت في الوحي القرآني ، بعد الهجرة :

قال الله تعالى في سورة الانفال المدنية :

« والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير [2] » .

٣ – المجتمع المحارب :

إن المجتمع المحارب إما أن يكون في حالة حرب فعلية مع المجتمع الإسلامي الخالص ، أو لا يكون في حالة حرب فعلية ، ولكنه يكون في حالة عداء معلن .

في الحالة الأولى : يتعين على المجتمع الاسلامي الخالص أن يخوض حرباً

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣ – ٤ .

(٢) سورة الانفال (مدنية) ، الآية : ٧٢ .

دفاعية ضد المجتمع غير المسلم المحارب ، وذلك حفاظاً على كيانه وعلى معناه وقوام وجوده ، وهو الدعوة الاسلامية . ويعتبر اي موقف آخر في هـذه الحالة سوى الحرب ، مع القدرة على ربحها ، خيانة كبرى شرعاً .

في الحـالة الثانية : ليس من الضروري أن تؤدي حـالة العداء المعلن الى حرب فعلية . فاذا تمكن المجتمع الاسلامي من ضمان الا تهدد حالة العداء سلامتـه ، وحرية حركته في مجـال الدعوة زال السبب الموضوعي للحرب ، ويمكن أن يتحول هذا المجتمع في هذه الحالة الى مجتمع معاهد .

اما اذا لم يمكن ذلك فيجب ان تعلن حرب ابتدائيـة ضد مجتمع معلن بالعداء . ويمكن ان تكون الحرب ، في هذه الحالة ، وقائية إذا كان من المتوقع حدوث حالة عدوان من جانب المجتمع العدو على المجتمع الاسلامي الخالص .

وهكذا ، فان العلاقـــة مع المجتمع المعـادي لا بد ان تكون حالة حرب :

أ — ابتدائية : ضد مجتمع معلن بالعداء .

ب — وقـائية : ضد هجوم متوقع .

ج — دفـاعية : ضد هجوم فعلي .

ولا يستطيع أي إنسان ينظر الى مواجهة المجتمع المعلن بالعـداء بفكر محايد ، إلا ان يعترف ويوافق على ان المـــبرر الاخلاقي للحرب موجود في هذه الحالة .

ولعل الآيات التالية تعالج طرفاً من حالة موقف المجتمع الاسلامي الخالص من المجتمع الآخر المعلن بالعداء .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وانا أعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم اعـــداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون »

....

« عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهـــاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين،ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون [1] » .

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غيرُ معجزي الله وان الله مخزي الكافرين » .

....

« فاذا انسلخ الاشهر الحـــرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد .

---

(١) سورة الممتحنة (مدنية) ، الآيات : ١ – ٢ – ٧ – ٩ .

فان تابوا واقـــاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » .

...

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ..... كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة. يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليـــلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون [1] » .

* *

والواقع التاريخي يؤيد مـــا قلناه في شأن المجتمع المحارب والمجتمع المعلن بالعداء .

فإن حروب النبي ﷺ كلهـا – كما يتضح للباحث المحـايد – كانت ضد مجتمع محارب استُنفِدَت معه كل امكانات السلام بمعناه الصحيح (المحافظة على الذات والمحافظة على الرسالة) وما كانت تلوح لرسول الله ﷺ فرصة من فرص السلام إلا استغلها ، ولم يتجاوزها الى الحرب في حال من الحالات .

أما الحروب التي خاض المسلمون غمارهـا بعد رسول الله ﷺ في عهـد الخلفاء الثلاثة الاولين ضد مستعمرات الدولة البيزنطية ، وضد الامبراطورية الساسانية الفارسية ومستعمراتهـا ، فقد كانت حروبـاً وقائية ضد مجتمعات معادية أثار غرائز العدوان فيهـــا انتصار الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، ووصول سلطانه الى حدود الامبراطوريتين .

---

(١) سورة التوبة (مدنية) ، الآيات : ١ – ٢ – ٥ – ٧ – ١٠ .

وما كان لحروب الفتح الاولى أن تتوسع وتمتد لولا ان أمراء الحرب في بيزنطة وفارس حزموا أمرهم على سحق القوة الاسلامية الصاعدة .

أما سائر الحروب التي خاضها المسلمون على مدى التاريخ فمعظمها اما حروب دفاعية أو حروب وقائية .

ثمة بلا شك حروب كانت دوافعها غير إسلامية ، ولم يتبع القادة في هذه الحروب حكم الاسلام في مسألة الحرب والسلام . ولكن من قال ان الاسلام يبرر كل حرب تقوم باسمه ؟

* *

وهكذا يتضح لنا من جميع ما تقدم ان الاسلام لا يدعو الى شن الحرب باعتبارها الاسلوب المفضل في الدعوة الى الله دون مبرر موضوعي اخلاقي للحرب يتصل بالدفاع عن كيان المجتمع الإسلامي الخالص ، وعن حرية حركة هذا المجتمع في الدعوة الى الله .

ويتضح لنا ان كلّ ما قيل أو يقال خلافاً لهذا من الباحثين الغربيين والمتأثرين ناشىء من تقصير في البحث العلمي أو ناشىء من النية السيئة .

* *

ننتقل الآن الى البحث عن وجه الحق في دعوى أخرى للمستشرقين تتصل بالدعوى الأولى التي بيّنا وجه الحق فيها فيما سلف من هذا الحديث .

وهي ان الإسلام كان يدعو الى السلام حين كان واهناً ضعيفاً في مكة ، فلما اشتد ساعده بعد الهجرة ، واستطاع ان يمارس القوة مارسها ضد اعدائه دون ان يلقي بالاً الى أسلوب السلام .

ولذا فان ثمة أسلوبين للدعوة في الإسلام .

الأسلوب السلمي ، وهذا كان في مكة حين لم تكن الحرب مستطاعة .

وأسلوب الحرب ، وهو ما اعلنه الاسلام كتشريع نهائي للتعامل مع غير المسلمين ، وهذا تم عند استقرار المسلمين في المدينة . وغدا هو شريعة الاسلام في باب الدعوة الى الله منذ ذلك الحين .

هذه الدعوى من المستشرقين ، والمأخوذين بأسلوبهم وعقليتهم تكشف عن جهل بالاسلام ، إذا لم تكشف عن سوء نية تجاهه ، وفيما يلي بيان وجه الحق في هذه الدعوى .

* *

لا ينبغي أن يفهم من تشريع القتال بعد الهجرة انه انهاء للمبدأ الذي أقره التشريع المكي في أسلوب الدعوة الى الإسلام .

إن التشريع الذي نزل في مكة لأسلوب الدعوة استمر الى ما بعد الهجرة ، ولا يزال مستمراً الى الآن . وسيبقى مستمراً الى النهاية .

ولكن علينا أن نفهم ان تشريع أسلوب الدعوة لم يكن — في العهد المكي — مكتملاً من جميع جوانبه ، وإنما كان فعلياً في جانب منه فقط ، وقد اكتمل من جميع جوانبه بتشريع القتال في عهد ما بعد الهجرة .

إن الشريعة الاسلامية — كما يعلم كل مطلع — لم تنزل على رسول الله ﷺ مكتملة دفعة واحدة وإنما تكونت بالوحي تدريجاً على امتداد ما عمّر النبي ﷺ من السنين بعد البعثة ، لأن الله تعالى شأنه كان — في تلك المرحلة من عمر الاسلام — يربي الجيل الأول من المسلمين الذي خرج من ظلمات الجاهلية — كان يربيه بالشريعة ، كما كان يربيه بالعقيدة ، كما كان يربيه بالتوجيه الآني في المواقف الطارئة .

وكما هو الشأن في كل عملية تربوية صغيرة انها تتم بالتدريج ، وبالمرحلية في بناء الشخصية ، فكيف بنا في هذه العملية التربوية الكبيرة التي تناولت أمة بكاملها في مدة جيل واحد فقط ، وبطموح الى تكوين نوعية إنسانية تتعدى التغيير الشكلي ، أو التغيير الجزئي الى تغيير الشخصية الانسانية تغييراً كاملاً شاملاً في العمق والامتداد .

ولا ريب في أن تشريع أسلوب الدعوة كان يتم وفقاً لهذا المبدأ في تدرج التشريع .

١ – في العهد المكي :

إن العهد المكي لم يكن ملائماً لتشريع القتال لسببين :

الأول : ضعف المسلمين ، وقلتهم في مكة ، وهذا أمر واضح لمن يراجع تاريخ تلك الفترة من عمر الدعوة الاسلامية . وهذا يقضي بألا يشرّع القتال في ذلك العهد . والا ، فهل من المنطقي بالنسبة الى أية دعوة تعاني من الاضطهاد والظلم ما كانت تعانيه الدعوة الاسلامية في العهد المكي – هل من المنطقي تشريع القتال في مرحلة لا يكن فيها ربح أي قتال ، في مرحلة يكون بمجرد اعلان تشريع القتال فيها انتحاراً أهوج لا معنى له ، ولا فائدة فيه ؟

من الواضح ان الجواب الموضوعي المحايد الذي يتم وفقاً لتقدير الموقف المشار اليه بروح الموضوعية لا بد أن يكون بالنفي .

الثاني : إن القتال ما كان ليشرع في العهد المكي حتى لو افترضنا ان الجماعة الاسلامية كانت قادرة على القتال وعلى الخروج منه منتصرة . وذلك لأنها كانت في وضع يقضي عليها بأن تكف يدها وتسالم أعداءها ، وتتعامل معهم بالحوار . ولأنها ما كانت – في تلك المرحلة – تملك هدفاً تقاتل من أجله .

وإذن ، فقـد كان يحيط بالدعوة الاسلامية ـ في العهد المكي ـ عاملان : احدهما إيجابي والآخر سلبي يقضيان عليها بأن تنتهج مع اعدائها من المشركين سياسة الحسنى ، حتى لو كانت قوية قادرة على القتال .

أ ـ العامل الايجابي :

العامل الايجابي يأتي من ان الاسلام يتضمن طريقة جديدة في الحياة يريد الرسول ﷺ أن يقدمها للمجتمع المكي وللناس جميعاً ، هذه الطريقة تنتهج أسلوبـاً في حل النزاعات والخصومات يختلف عن الأسلوب الذي يعرفه الجاهليون العرب ويمارسونه في حياتهم اليومية عند تعاملهم فيما بينهم ، وهو اسلوب القوة والعنف ، والأسلوب الجديـد الذي تضمنه الاسلام وبشر به الرسول ﷺ هو الحوار المتفتح المحب .

وكان وضع المسلمين في ذلك الحين يقضي عليهم بأن يحافظوا على وضعهم الاجتماعي باعتبارهم جزءاً من المجتمع المكي ، وذلـك من أجل ان يتاح لهم التغلغل في اعمـاق ذلـك المجتمع ، ليربحوا الى جانبهم من المجتمع المكي كل عناصره الصالحة ، وليستفيدوا من كل الظروف والعلاقات القبلية التي يوفرها لهم المجتمع القبلي الذي كانوا يحيون فيه ، وان يوظفوا العصبيات القبلية في سبيل تأمين حدّ أدنى من القدرة على الحركة والاختلاط بسائر فئات المجتمع، والتأثير فيها .

وقد كان استخدام القوة مرة واحـدة من قبل المسلمين كفيلاً بأن يجعلهم جماعة معزولة عن المجتمع ، مرفوضة منـه ، لا بسبب منطقها الخاص الذي هو النهج الاسلامي ـ وإنما بسبب منطق المجتمع الجاهلي نفسه، المنطق القائم على الثأر ، وعلى العداء الشخصي الذي يقضي على كل امكانية للحوار السلمي الموضوعي بين الطرفين المتعاديين .

وهذا الوضع الذي كان خليقـاً بأن ينتج عن استعمال القوة ـ حتى لو

توفرت للمسلمين فرصة الانتصار النسبي ، بمعنى حماية الذات ضد الاضطهاد (وهذا أقصى ما يتصور حصوله في ذلك الظرف) هذا الوضع الذي كان خليقاً بأن ينتج عن استعمال القوة يحرم المسلمين والاسلام من كل الظروف المواتية لنجاح الدعوة في الوسط المكي على أي مستوى للنجاح . وان كنا نعترف بأن هذه الظروف المواتية للدعوة قاسية بالنسبة الى فريق معين من المسلمين .

كان الذي يحدث في تلك الحالة ان المسلمين يعزلون عن مجتمعهم ، فيغدون جماعة منبوذة ومكروهة . ونتيجة لذلك يفقدون قدرتهم على إحداث أي تأثير نفسي ايجابي في المجتمع ، ويفقدون أيضاً قدرتهم على اجتذاب أي عنصر صالح من عناصره أو على تحييد قسم منه ، وذلك لان العناصر الصالحة والمعتدلة لا بد أن تتأثر - بحكم الجو الجاهلي - بالقيم الجاهلية التي تنشطها وتحرضها على التحرك حالةُ العداء الناتجة عن ممارسة القوة ، دون أن يقوى المسلمون على الحيلولة دون أن تعمل هذه القيم الجاهلية عملها السلبي ضد المسلمين، لأنهم في ذلك الحين لم يكونوا قد كوّنوا مناخاً ثقافياً ضاغطاً يقلص تأثير القيم الجاهلية ويضيق دائرة عملها في نفوس الناس ، بل كانت القيم الجاهلية في ذلك الحين لا تزال في عنفوان نشاطها الذي كان يكيف الموقف النفسي والعقلي للانسان الجاهلي المكي وغير المكي في شبه الجزيرة العربية .

ان الحرص على ابقاء هذا العامل الايجابي في خدمة الدعوة قد اقتضى ثمناً تحمله المسلمون الاولون بشجاعة وثبات ، وهو ان يتعرض جماعة المستضعفين من المسلمين للاضطهاد ، وقد كان الداعي الى اتخاذ هذا الموقف هو الحرص على سلامة الاهداف العليا للدعوة الاسلامية .

ب - العامل السلبي :

والعامل السلبي يتلخص في ان الجماعة الإسلامية في مكة لم تكن في

مرحلة بناء الدولة ، ولذا فان منطق القوة في هذه المرحلة لم يكن وارداً بصورة مبدئية لعدم توفر هدف تمارس القوة من أجل ايجـــاده ، أو من اجل حمايته .

نعم كان ثمة هدف شخصي لممارسة القوة هو حماية الذات لقسم من الجماعة الاسلامية هم المستضعفون ، ولكن هذا الهدف ـ على أهميته ـ فقد صلاحيته للتأثير كما رأينا آنفاً ـ بسبب الحرص على توفير العامل الايجـابي الذي تقدم ذكره .

* *

إن الظروف التي كانت تحيط بالدعوة الاسلامية في العهد المكي كانت تحول دون اعلان التشريع الكامل لاسلوب الدعوة الى الاسلام .

انها كانت تسمح باعلان الجانب المبدئي الاساسي من هذا التشريع ، وهو الدعوة بالحسنى .

٢ — في العهد المدني :

في العهد المدني حدث تغير كمي ونوعي بالنسبة الى الدعوة الاسلامية .

حدث تغير كمي بتزايد عدد المسلمين .

وحدث تغير نوعي بقيام المجتمع الاسلامي ، وتأسيس الدولة الاسلامية .

ونتيجة لذلك تغيرت الظروف التي كانت سائدة في العهد المكي .

لم يعد المسلمون اقلية ضعيفة في مجتمع معاد تعتبر ممارسة القوة منها ضده عملا انتحارياً .

بل غدوا قوة كبيرة متلاحمـة الأجزاء . قادرة على حماية نفسها ، وردع أي عدوان يقع عليها .

ولم يعد المسلمون جماعة في مجتمع لا بد لها من ان تحرص على ابقاء الصلاد الايجابية به حية نابضة لتبقى لديها القدرة على التأثير الحسن فيه ، واجتذاد العناصر الصالحة منه ، وتحييد العناصر المعتدلة من أفراده .

بل غدوا ـ بعد الهجرة الى المدينة ـ مجتمعاً قائماً بنفسه يحكمه نظام يجعله متميزاً عما عداه من الجماعات والمجتمعات الجاهلية المحيطة به ، ويملك قوة جذب كبرى ناتجة عن تكوينه الذاتي الباهر ، وناتجة عن مناخه الثقافي الآسر .

لم يعودوا بحاجة الى أن يكونوا جزءاً من المجتمع الجاهلي، لأنهم ـ بارادة الله تعالى ـ دخلوا مرحلة جديدة تجاوزوا بها مرحلة المجتمع المكي ، ودخلوا مرحلة كونهم الأمة الشاهدة على المجتمعات الجاهلية كلها :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً [1] » .

« وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس [2] » .

* *

في هذه الظروف الجديدة الجيدة في العهد المدني توفرت الشروط المناسبة

---

(١) سورة البقرة (مدنية) ، الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة الحج (مدنية) ، الآية : ٧٨ .

لاعلان ما لم يعلن من تشريع اسلوب الدعوة، فأنزل الله تعالى الإذن بالقتال ـ كما ذهب اكثر المفسرين ـ في آية السيف :

« أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز [1] » .

كان هذا اول مـا نزل على رسول الله ﷺ من آيات الإذن بالقتال ، ثم توالت بعد ذلك الآيات التي تفصل أحكام القتال ، ومداه ، وحدوده ، وضد مَن مِن الناس ، وما الى ذاك من الأحكام .

* *

وهنا نتساءل :

هل كان نزول آيات القتال إنهـــاءً لمرحلة في تشريع اسلوب الدعوة ، وابتداء لمرحلة جديدة في الاسلوب ؟

ونعود في الجواب عن هــذا التساؤل الى تقرير الحقيقة التي قررناهـا في مطلع هذا الحديث .

---

(١) سورة الحج (مدنية) ، الآية : ٣٩ ـ ٤٠ .

وقيل ان أول ما نزل في شأن القتال هو الآية التسعون بعد المئة من سورة البقرة المدنية: « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقيل ان اول ما نزل في هذا الشأن هو الآية الحادية عشرة بعد المئـــة من سورة التوبة المدنية : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » هذا، ولكن الرأي الراجح ان اول ما نزل هو الآية المذكورة في سورة الحج .

وهي ان نزول آيات القتال في العهد المدني كان مكملا للتشريع الذي سبقه في مكة ، لأن تشريع الدعـوة بالحسنى ظل مستمراً ، ولا يزال مستمراً الى الآن . وظل هو المبـدأ الأساسي في تشريع اسلوب الدعـوة ، ولا يزال هو المبدأ الى الآن .

ان المبدأ في اسلوب الدعوة هو الحسنى ، وهذا هو ما أعلن منذ البدء في مكة ، واستمر حكماً ثابتاً في الشريعة الى الآن .

أمـا القوة فهي اجراء ضروري عند الحـاجة اليه ، وعند توفر مبرراته الموضوعية والاخلاقية .

وقد كان مبدأ استخدام القوة – في العهـــد المكي – في مرحلة القوة والامكان ، وفي العهد المدني انتقل الى مرحلة الفعلية والاعلان .

ولا شك في أن إعلان مبدأ استخدام القوة في مقابل العدوان والصدّ عن سبيل الله لم يفاجىء المؤمنين في المدينة،فإن نصوصاً كثيرة من الوحي القرآني التي نزلت في العهد المكي كانت تلوح ، وبعضها يصرح ، مهددة المشركين بأن عهد استخدام القوة معهم سيأتي ، مؤكدة لهم وللمؤمنين بأن عهد الاضطهاد: اضطهاد الدعوة واتباعها لن يستمر طويلاً ، وان عهـــداً من القوة الرادعة والمنعة سيأتي فيحول بين المشركين وبين أن يمارسوا ما يمارسونه الآن من ظلم واضطهاد للمسلمين .

كما أن نصوص الوحي القرآني ظلت في المدينة تنزل على رسول الله ﷺ – كما كانت تنزل عليه في مكة – تتضمن تأكيداً وتفصيلا لتشريع اسلوب الدعوة الى الله بالحسنى .

وهذا أعظم برهان على ما ذكرناه من أن التشريعين متكاملان ، وليس احدهما ناسخاً للآخر وحالاً محله، وان استمرار تشريع الدعوة بالحسنى حكم ثابت في الشريعة لم ينسخ بأي وجه من الوجوه ، وان كل مـا دخل من تغيير

في الاسلوب في العهد المدني ناشيء من ان المؤمنين لم يعودوا مضطرين للسكوت على العدوان ، ولم يعودوا مضطرين لتقبل الأذى والاضطهاد دون مقاومة ، وإنما غدا من حقهم في حالات ، ومن واجبهم في حالات أخرى أن يمارسوا القوة ضد أعدائهم في الدين ، سواء وجه العدوان اليهم بالذات ، أو وجه الى حرية تحركهم بالدعوة في سبيل الله .

* *

أما عن نصوص الوحي القرآني التي كانت قبل فعلية تشريع استخدام القوة ووضعه موضع التنفيذ – كانت تلوح أو تصرح – في العهد المكي المشركين بأن عهد القوة آتٍ فهي غير قليلة ، منها الآيات التالية :

قوله تعالى في سورة الانعام (مكية) :

« إن ما توعدون لآت وما انتم بمعجزين . قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، انه لا يفلح الظالمون [1] » .

وقوله تعالى في سورة الصافات (مكية) :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. انهم لهم المنصورون. وان جندنا لهم الغالبون . فتول عنهم حتى حين . وابصرهم فسوف يبصرون . افبعذابنا يستعجلون . فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وابصر فسوف يبصرون [2] » .

---

(١) سورة الانعام (مكية) ، الآية : ١٣٤ – ١٣٥ .

(٢) سورة الصافات (مكية) ، الآية : ١٧١ – ١٧٩ .

وقوله تعالى في سورة المؤمن (مكية) :

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيـــاة الدنيا ، ويوم يقوم الاشهاد[1] .

وقوله تعالى في سورة القمر (مكية) :

« اكفاركم خير من اولائكم ؟ ام لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر[2] ».

وقوله تعالى في سورة الشعراء (مكية) :

« ومـــا يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين. فقد كذبوا فسيأتيهم انباء ما كانوا به يستهزؤن[3] ».

فهذه الآيات ، وغيرها مما لم نذكره هنا ، ظاهرة الدلالة على ان تشريع استعمال القوة في العهد المكي ، كان موجوداً إلا أنه لم يكن فعليـاً ولم يوضع موضع التنفيذ ، وظاهرة الدلالة على ان المسلمين في حاضرهم ذاك المثقـــل بالاضطهاد والأذى في جنب الله كانوا يرون في احشاء المستقبل التطور الجديد الذي سيصير اليه أمرهم وأمر المشركين الذين يمارسون الاضطهاد ضدهم لأنهم يقولون « ربنا الله » .

* *

---

(١) سورة المؤمن (مكية) ، الآية : ٥١ .

(٢) سورة القمر (مكية) ، الآية : ٤٣ — ٤٥ ، الآيات موجهة الى مشركي العرب ، بعد استعراض حال الكافرين بانبيائهم من الامم القديمة : قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

(٣) سورة الشعراء (مكية) الآية : ٥ — ٦ .

وأمـا عن نصوص الوحي القرآني التي ظلت – في العهد المدني – تتوالى على رسول الله ﷺ في شأن الدعوة الى الله تعـالى بالحسنى ، وترسيخها في عقول وقلوب المسلمين ، فهي كثيرة .

وهي – كما ذكرنا فيما سبق من هـذا الحديث – تدل بصورة قاطعـة لأي جدال على استمرارية هـذا التشريع في أسلوب الدعوة الإسلامية الى العهد المدني ، والى الآن .

قال تعالى :

« لا اكراه في الدين قـد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفرْ بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم [1] » .

وقال تعالى :

« فان حـاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن . وقـل للذين أوتوا الكتـاب والاميين : أأسلمتم ؟ فان اسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ، والله بصير بالعباد [2] ».

وقال تعالى :

« من يطع الرسول فقد اطاع الله ، ومن تولى فـما ارسلناك عليهم حفيظاً [3] » .

---

(١) سورة البقرة (مدنية) ، الآية : ٢٥٦ .
(٢) سورة آل عمران (مدنية) ، الآية : ٢٠ .
(٣) سورة النساء (مدنية) ، الآية : ٧٩ .

وقال تعالى :

« ما على الرسول إلا البلاغ ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون [1] » .

وقال تعالى :

« وما جعلناك عليهم حفيظاً وما انت عليهم بوكيل[2] » .

وقال تعالى :

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين [3] » .

وقال تعالى :

« واطيعوا الله واطيعوا الرسول ، فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين[4] » .

(*)

---

(١) سورة المائدة (مدنية) ، الآية : ٩٩ .

(٢) سورة الانعام (مدنية) ، الآية : ١٠٧ .

(٣) سورة النور (مدنية) ، الآية : ٥٤ .

(٤) سورة التغابن (مدنية) ، الآية : ١٢ .

(*) مسألة اساوب الدعوة الى الاسلام تتسع لأبحاث كثيرة من زوايا متعددة ، وقـد عالجنا المسألة في حدود ما يتسع له فصل في كتاب ، وقد عالجها السيد محمد حسين فضل الله بطريقة أخرى غير التي اتبعناها في هذا الفصل وذلك في كتابه القيم « اساوب الدعوة في القرآن » (دار الزهراء - بيروت - ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م) .

- ٤ -

الحريـــة
والمسؤولية الشخصية

نبدأ بالقول ان فكرة الجـــبر بالنسبة الى الانسان فكرة باطـلة ، وغير إسلامية ٠

في الإسلام : المخلوق العاقل حر ، وهو الذي يقرر بحريته واختياره التام موقفه من الأشياء والأحداث . وارادة الله تعالى تأتي في مرحلة متأخرة عن اختيار الانسان .

ان الفعل الانساني يتم انجازه نتيجة لاختيـــار المخلوق وحريته الداخلية مضافاً اليها في مرحلة تالية ارادة الله ، وذلك وفقاً للمعادلة التالية :

ارادة الانسان + ارادة الله = الفعل .

فالفعل مخلوق لارادة الله ، ولكن ليس ابتداء ، وإنمـا بعد ان يريده الإنسان ويقرره بتمام حريتــه ، فهو (الفعل) نتيجة لعامـل الحرية ، يتلوه تدخل الارادة الإلهية في خلق الموقف الذي قرر الانسان اتخاذه .

هذا تبسيط لنظرية اهل البيت عليهم السلام في مسألة حرية الانسان وعلاقتها بالارادة الإلهية ، والتي اجملوها في النص الوارد عنهم :

« لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين الأمرين » .

فالمخلوق ليس مجبراً ، لاننا بوجداننا ندرك ما نتمتع به من حرية داخلية مطلقة، والمخلوق ليس مفوضاً لا دخل لارادة الله في خلق افعاله ، وفي تسيير الكون ، بل ارادة الله تعالى حاضرة دائماً ولكن في مرحلة لاحقة على قرار العبد الذي يتخذه .

* *

ان الأمر الإلهي ينقسم الى قسمين : أمر تكويني ، وأمر تشريعي .

أ – الارادة التكوينية = الأمر التكويني :

إن الأمر التكويني يتعلق بالأفعال والأشياء المنسوبة الى الله تعالى بصورة مباشرة . وهذا هو المعبر عنه في القرآن الكريم في جملة مواضع بقوله تعالى :

« إنما أمره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون [1] » .

---

(١) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

وقد ورد هذا المعنى في سور اخرى بغير هذه الصيغة :

١ – « بديع السماوات والارض واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » البقرة ، الآية : ١١٧ .

٢ – « ... يخلق ما يشاء . إذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون » آل عمران ، الآية : ٤٧ .

٣ – « ... سبحانه اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » مريم ، الآية : ٣٥ .

٤ – « هو الذي يحيي ويميت فاذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » المؤمن ، الآية : ٦٨ .

والارادة التكوينية قد تتعلق بوجود شيء ، وقد لا تتعلق بوجود شيء ما (بمعنى انه يراد عدمه) وقد يكون شيء لا تتعلق به الارادة التكوينية من حيث وجوده ولا من حيث عدمه .

ونستطيع أن نفهم هـــذه الحقيقة إذا لاحظنا مواقفنا نحن من الأشياء والأحداث (وهذا مجرد مثال لتوضيح الفكرة) فثمة أشياء نريدها فنسعى في سبيل تحقيقها وإيجادها ، وثمة أشياء لا نريدها (نريد عدمها) فنكافح في سبيل ذلك ، ونسد عليها جميع منافذ الوجود بحسب ما نستطيع . والفرق بين ارادتنا وارادة الله هو ان ارادتنا كثيراً مـا تخفق في تحقيق رغباتنـا ، وارادة الله تتحقق دائمـاً ، وان ثمـة رغبات يستحيل علينا تحقيقها ، ولا يستحيل على ارادة الله شيء .

على هذا الضوء :

١ ـ إذا اراد الله وجود شيء تكويناً فلا بد ان يوجد ذلك الشيء .

٢ ـ إذا لم يرد الله وجود شيء تكويناً (أراد عدمه) فلا يمكن ان يوجد ذلك الشيء ، لانه يكون مستحيلاً .

وهذان الموردان هما مجـال عمل الارادة التكوينية المباشرة ، التي لا تتخلف عن المراد .

ويبقى مورد ثالث للارادة التكوينية تعمـل فيـه بصورة غير مباشرة ، وإنما يتبع ارادة الانسان. وهذا المورد يتضح لنا عند بيان الأمر التشريعي .

ب ـ الارادة التشريعية = الأمر التشريعي :

إن الأمر التشريعي (أو النهي التشريعي) همـا الأمر والنهي المتعلقان بأفعال العبـاد . وفعل العبد (أو تركه) منسوب الى العبد حقيقة ، فهـو

الذي يفعل ، وهو الذي يترك. وهو في الحالين يتمتع بالحرية المطلقة في اطاعة الأمر الإلهي والنهي الإلهي وعصيانهما .

ولكن العبد عاجز عن خلق افعاله بنفسه ، فهو –لذلك– يمارس حريته بمعونة الارادة الإلهية . فاذا قرر العبد موقفاً معيناً من شيء (والعبد يمارس حرية مطلقة في اتخاذ قراره بدون تدخل للارادة الإلهية) حينئذ – وبعد أن يتخذ الانسان قراره ، يأتي دور الارادة الإلهيـة في تحقيق قرار الانسان بإعانته على جعل قراره النظري نافذاً في الواقع .

وبهذا يتأكد مبـدأ الحرية ، إذ بدون تحقيق ارادة العبد تبقى حريته نظرية لا قيمة لها .

وقد بيّنا هـذه الحقيقة في مطلع هـذا البحث عند حديثنا عن الحرية الداخلية .

والخلاصة :

إن الله كلف الانسان ، وأمره بالطاعة ، وأعطاه الحرية ، وجعله مسؤولاً عن كيفية ممارسته لحريته . فإذا قرر الطاعة فهو حر في اتخاذ هذا القرار ، وإذا قرر المعصية فهو حر في اتخاذ هذا القرار ، ويتحمل مسؤوليته. ولأجل أن تتحقق له حريته الكامـلة تتدخل الارادة الإلهية في تنفيذ قراراته التي اتخذها .

* *

على هذا الضوء نصل الى النتائج التالية :

١ – الارادة التكوينية مجال عملها عالم الأشياء .

٢ – الارادة التشريعية مجال عملهـا أفعـال الانسان ، ولا دخل للارادة

التكوينية فيها بالنحو الذي بيّناه . وهو ـ كما قلنا ـ لا يتعارض مع مبدأ الحرية ، بل يؤكد مبدأ الحرية ويجعله واقعاً عملياً معاشاً .

٣ ـ لأن الله جعل الانسان حراً ، فلا يمكن ان يأمره بشيء تشريعاً ، ويريد منه خلافه تكويناً ، بل إذا أمره بشيء تشريعاً يترك له حرية اتخاذ قراره ، وينفذ له قراره الذي اتخذه .

* *

والشواهد من كتاب الله سبحانه وتعالى على مبدأ الحرية الانسانية كثيرة جداً ، نذكر بعضها فيما يلي :

إن جميع ما ورد في كتاب الله تعالى في مادة (جزاء) مما نسب فيه الجزاء الى الله تعالى ، قد نسب فيه العمل الذي يكون عليه الجزاء ـ الحسن او السيء ـ الى الانسان . وهـذا يعني بوضوح ان الانسان هو الذي اراد وعمل ، إذ لا يكون الجزاء على عمل غير نابع من ارادة حرة :

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون [١] » .

« .. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون [٢] » .

« ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى [٣] » .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : ١٤ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٢١ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٣١ .

« ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون [1] » .

الى غير ذلك من الآيات التي تبلغ المئات ، والتي دلت على هذا المعنى بشتى الصيغ والاساليب .

ويذكر الله تعالى في الكتاب العزيز في جملة من الآيات الكريمة المبدأ العام في هذه المسألة ، المبدأ الذي تتدرج فيه سائر التفصيلات والمواقف البشرية في هذه الحياة :

« من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً [2] » .

« كل نفس بما كسبت رهينة [3] » .

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء . كل امرىء بما كسب رهين [4] » .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره [5] » .

* *

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٣ — ١٢٤ .

(٣) سورة المدثر ، الآية : ٣٨ .

(٤) سورة الطور ، الآية : ٢١ .

(٥) سورة الزلزلة ، الآية : ٧ — ٨ .

أضف الى هذا ان كل ما ورد في كتاب الله تعالى مما يدل بمنطوقه صراحة على نفي الظلم عن الله سبحانه وتعالى، وانه تعالى شأنه عادل في خلقه، رحيم بهم ـ وهو ما يوجبه العقل السليم ـ إن كل ما ورد في الكتاب العزيز في هذا الباب ـ وهو يعد بالمئات من الآيات ـ يدل بوضوح على ان الإسلام يعتبر الانسان حراً ـ بالمعنى الذي ذكرناه ـ وإلا فكيف يكون الله تعالى عادلاً وهو يؤاخذ الانسان بأعمال لم يكن حراً في اختيارها، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

* *

وثمة في كتاب الله سبحانه وتعالى ـ آيات تدل بوضوح على ان الله تعالى قد خلق الانسان حراً مسؤولاً . منها قوله تعالى :

« انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً [1] » .

« قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها [2] » .

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت [3] » .

« قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها [4] » .

---

(١) سورة الانسان ، الآية : ٣ .

(٢) سورة الانعام ، الآية : ١٠٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٦ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٠٨ .

« ألم نجعـــل له عينين . ولساناً وشفتين . وهدينـــاه النجدين [1] » .

* *

وفي السنة الشريفة من النصوص على حرية الانسان مـا لا يـكاد يقع تحت الحصر . نستغني عن اقتباس شيء منه إكتفاءاً بما ذكرنا من آيات كتاب الله تعالى .

وإذن ، فالإنسان في الإسلام كائن حر ، غير مقهور ولا مجبر .

ب – المسؤولية الشخصية :

وإذا كان الانسان في الإسلام حراً كما رأينـا ، فلا بد أن يكون مسؤولاً عن أعمـــاله ومواقفه التي يمارسها من خلال حريته ، لأن هذه هي النتيجة المنطقية للحرية .

والانسان في الإسلام مسؤول لأنه حر .

في الإسلام يعامل الإنسان وفقاً لمبـــدأ المسؤولية الشخصية عن مواقفه الايجابية والسلبية ، على مستوى العقيدة وعلى مستوى الشريعة .

ولا يتحمل الانسان مسؤولية مواقف غيره المبـاشرة إلا إذا كان شريكاً في هذه المواقف بصورة غير مباشرة ، وحينئذ فيتحمل من المسؤولية بقدر شراكته في اتخاذ الموقف .

إن هذا المبدأ لا يختص بنظام العدالة (القضاء) الإسلامي في الحياة على هذه الأرض ، بل يتعداه ليكون السمة البارزة لعدالة الله سبحانه وتعالى في

(١) سورة البلد ، الآية : ٨ – ١٠ .

الحياة الآخرة ، وفي الحياة على هذه الارض ايضاً حين تمس المواقف البشرية قوانين كونية للحياة والمجتمع ، فتؤثر في احداث ردود فعل تمارسها هذه القوانين الكونية على البشر الذين عارضوا أو انسجموا مع القوانين المذكورة للحياة والمجتمع .

وقد حرّر هذا المبدأ ، مبدأ المسؤولية الشخصية ، الانسان من أسْرٍ أليمٍ بشع كانت سلطات الجاهلية تخضعه له ، وتمارسه عليه ـ كلما خرج عن شريعة الله وتوجيه الله ، الى دوائر الوثنية والشرائع المحرفة .

كان الانسان يتحمل ـ الى آماد بعيدة في الزمان ـ مسؤولية ما يفعله مواطنه في الوطن، أو في المدينة ، أو في الحي . أو مسؤولية ما يفعله جاره أو قريبه .

وكان ـ نتيجة لذلك ـ يلاقي العقاب في كرامته الانسانية ، أو منزلته الاجتماعية ، أو ماله أو جسده ، وربما دفع حياته عقاباً على ذنب لم يرتكبه، ولم يشارك فيه .

على صعيد الأديان كان يسود ذلك ، وعلى مستوى الفلسفات والثقافات في حضارات ما قبل الإسلام [1] .

---

(١) فيما يتعلق بالشواهد التاريخية والقانونية ، يراجع : الدكتور علي عبد الواحد وافي ، (المسؤولية والجزاء) الطبعة الثانية ١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م ص ٥٣ — ٧٢ ، فقد ذكر شواهد تاريخية وقانونية عن الصينيين واليونان والرومان ، قبل المسيحية وبعدها ، والعرب الجاهليين ، والامم الاوروبية في العصور الوسطى الحديثة ، وعن الديانة اليهودية والديانة المسيحية .

ولا نريد ان نترك هذه العجالة قبل أن ننبه الى خطأ وقع فيه الدكتور وافي وغيره ، فانه ذهب في هذا الكتاب ص ٦٢ — ٦٣ الى ان الشريعة الاسلامية « أبقت على المسؤولية الجمعية =

إن هــذه المسؤولية الجمعية (مسؤولية الشخص المعنوي) كانت انعكاساً لذوبان الفرد في المجتمع العائلي أو العشائري أو الوطني أو القومي ، نتيجـة لعدم إدراك المشرعين وممارسي العـــدالة الجاهلية لحرمة الشخص الانساني ، واستقلاله المبدئي .

* *

إن مبدأ المسؤولية الشخصية قد ورد فيما أوحي من القرآن في مكة ـ قبل الهجرة الى المدينة ـ في سبع نصوص واضحـة الدلالة تمامـاً على ان الانسان وحده يتحمل مسؤولية عمله بمقدار ما له من صلة مباشرة بذلك العمل ، وان غيره من الناس ، ممن لا علاقة له بالعمل ، لا يتحمل من المسؤولية شيئاً .

وتكرار ذكر تشريع مبدأ المسؤولية الشخصية في الوحي المكي سبع مرات ربما تكون له عدة دلالات :

١ – إن التكرار يوحي بأهمية هذا المبدأ المطلقة في بناء شخصية الانسان المسلم والمجتمع الإسلامي ، وانه من الركائز التي لا غنى عنها في بناء الشخصية

= في مظهرها المالي» ومثل لذلك بما يجب فيه الدية من جرائم القتل، والارش من جرائم الجروح، حيث اوجبت الشريعة على العاقلة ان تتحمل الدية .

ان اعتبار تشريع العاقلة من نوع المسؤولية الجمعية في الشريعة الاسلامية خطأ كبير ، فان العاقلة تتحمل الدية ، لا عقوبة لها على فعل لم يقم به الا فرد واحد منها ، وإنما تتحملهـا معونة للجاني خطأ انطلاقاً من مبدأ التكافل العائلي والاجتماعي، لا انطلاقاً من مبدأ المسؤولية الجنائية، ولذا نرى ان العاقلة في قتل العمد لا تتحمل شيئاً ، وإنما تكون الدية – إذا لم يكن قصاص – في مال القاتل . كما انه في قتل الخطأ لو دفع القاتل الدية سقطت عن العاقلة ، لأنهـا ليست عقوبة لها . وهذا يدل بوضوح على ان تشريع العاقلة ليس عقوبة على جرم الغير كما يحدث في الشرائع الجاهلية .

الإسلامية ، لمـــا ينبثق عن هذا المبـــدأ من مبادىء ، الحرية ، والكرامة البشرية ، والعدالة .

ربما يكون الهدف من تكرار هذا المبدأ هو أن يرسخ في عقلية ونفسية كل مسلم يربى بالقرآن دائماً في كل يوم .

٢ — ان التكرار في الوحي المـــكي يهدف الى أن يرسي أساساً واسع المساحة ، عظيم الأهمية في التشريع الإسلامي العـام الذي سيوحي به الله في مرحلة تالية (وقد أوحى به الله في مرحلة ما بعد الهجرة من مكة الى المدينة) لتأتي الأحكام الشرعية منسجمة مع المبـــدأ الذي كان قد رسخ في النفوس والعقول .

٣ — إن التكرار — وكونه في العهد المكي — يهدف الى ان يطهر عقلية ونفسية الانسان المسلم في ذلـك العهد من جميع تصورات الجاهلية فيما يتعلق بالمسؤولية .

* *

وثمة مـــلامح في نصوص القرآن الكريم عن المسؤولية الشخصية تحدد الاطـار ، والمساحة ، والعمق التشريعي ، وخاصة الثبات المرن لهـذا المبدأ التشريعي العام .

— أ —

إن كل النصوص القرآنية تقريباً عن مبدأ المسؤولية الشخصية تختم بالتذكير بأن المرجع الأخير هو الله تعالى :

« .. ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون — والى الله المصير — ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بمـــا كنتم تعملون — وان الى ربك المنتهى » .

إن هذه الخواتم لمعظم آيات المسؤولية الشخصية تدل على الترابط الوثيق بين هذا المبدأ وبين عقيدة البعث في اليوم الآخر ، ومبدأ العـــدالة الإلهية المطلقة : وإن ما لا يتاح تطبيقه من مبدأ العدالة في هذه الحيـــاة ـ بعد بذل الجهود في سبيل ذلك ـ لن يمر في النهـــاية بلا تطبيق ، لأن الديّان هو الله تعالى وهو يطبقه في الحياة الدنيا عن طريق القوانين العامة للكون والحياة ، أو في اليوم الآخر .

كذلك تـــدل هذه الخواتم على الترابط الوثيق بين مبدأ المسؤولية ومبدأ استمرارية مبادىء الشريعة الإسلامية وأحكامها وعقائدها .

* *

أستطرد هنـــا لأشير الى أن مما يجب ان يكشف النقاب عنه هو البناء الهيكلي الكامل ـ بأقصى ما يستطاع من التفصيل ـ للدين الإسلامي في مبادئه العامة ، وعقيدته ، وشريعته ، واخلاقياته ، وتوضيح العلاقات المتفاعلة بين هذه المكونات للدين الإسلامي الحنيف . فان ذلك إذا تم فسينكشف للناس منه أمر عظيم عظيم من اعجاز الله سبحانه وتعالى في هذا الدين .

وما كتب حتى الآن في هذا الموضوع الشريف ـ في حدود مـــا اطلعت عليه ـ لا يتعدى الاشارات البسيطة السريعة .

أسأل الله تعالى أن يقيض لهذا الأمر من ينجزه ، وان يعطيني فسحة من العمر وتوفيقاً لانجازه .

ـ ب ـ

إن النصوص القرآنية عن مبدأ المسؤولية الشخصية مطلقة ، وليس فيها تحديد أو تقييد يقصر مبـــدأ المسؤولية الشخصية على قسم خاص من مواقف الانسان . إن مبدأ المسؤولية يشمل حياة الانسان كلها ، ويمتد نطاق تنفيذه

على مساحة حياة الفرد منذ سن التكليف الى الموت ، ويتعدى الحياة الى ما بعد الموت حيث يكون الديّان هو الله تعالى في يوم الجزاء .

— ج —

إن آيات سورة النجم (٣٣ — ٤٢) تدل على ان مبدأ المسؤولية الشخصية ليس من الخوص التشريعية للمرحلة الإسلامية الاخيرة الخاتمة ، وهي رسالة محمد ﷺ ، وإنما هو مبدأ عميق في تاريخ الدين الإلهي ، داخل في صميم الإسلام منذ بدأ بصيغته على لسان ابراهيم عليه السلام ، واستمر وجوده في الصيغ الاسلامية التالية التي بشر بها الأنبياء بعد ابراهيم حتى ظهر في صورته الكاملة الشاملة في الصيغة الأخيرة والخاتمة للدين الإسلامي على لسان رسول الله محمد ﷺ .

قوله تعالى :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً [1] » .

في الآية الخامسة عشرة من سورة الاسراء،نص على ان المسؤولية تنبع من التكليف السابق على اتخاذ الموقف ، ولا يمكن أن يتحمل الانسان مسؤولية عمل سابق على التكليف الإلهي ـ موضوعاً وحكماً ـ .

* *

لننتقل الآن الى عرض النصوص القرآنية الكريمة التي ذكرنا انها وردت في تقرير مبدأ المسؤولية الشخصية في الإسلام :

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ١٥ .

« ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون [١] » .

* *

« من إهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزد أخرى ، ومـــا كنا معذبين حتى نبعث رسولاً [٢] » .

* *

« ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يُحمَل منه شيء ولو كان ذا قربى ، إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه، والى الله المصير [٣] » .

* *

« ان تكفروا فان الله غني عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر . وان تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بمـــا كنتم تعملون ، انه عليم بذات الصدور [٤] » .

* *

« افرأيت الذي تولى . وأعطى قليـلا واكدى . أعنده عـلم

---

(١) سورة الانعام (مكية) ، الآية : ١٦٤ ،

(٢) سورة الاسراء (مكية) ، الآية : ١٥ .

(٣) سورة فاطر (مكية) ، الآية : ١٨ .

(٤) سورة الزمر (مكية) ، الآية : ٧ .

الغيب فهو يرى . أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وابراهيم الذي وفى : ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن الى ربك المنتهى [1] » .

* *

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم ومـــا ألتناهم من عملهم من شيء . كل امرىء بمـــا كسب رهين [2] » .

* *

« كل نفس بما كسبت رهينة [3] » .

---

(١) سورة النجم (مكية) الآيات : ٣٣ - ٤٢ .

(٢) سورة الطور (مكية) ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة المدثر (مكية) ، الآية : ٣٨ .



- ٥ -

في الاخلاق

في كل موقف يواجهه الانسان ، سواء في ذلك مـــا للنظام الذي يعيش الانسان في ظله الزام فيه ، أو ما ليس للنظام الزام فيه - في كل موقف يواجه الانسان فيه عملية الاختيار : يواجه نفسه بالسؤال التالي :

مـــاذا ينبغي أن أفعل ؟ أو : مـــاذا ينبغي أن أترك ؟ هل ينبغي أن أستجيب ؟ أو : هل ينبغي أن أرفض ؟ هل أنجز هذا الفعل أو أنجز ضده ؟

كلما واجهنا هذه الأسئلة في حياتنا اليومية الشخصية والعامة يكون أمام مسألة اخلاقية ، أمام عملية اختيار اخلاقي .

ويتعين علينا — في هذه الحالة — أن نعود الى مقياس نتبعه في الاختيار ، وإذن ، فلا بد من مقياس يتبـع ، وإلا انتهى بنا التساؤل الى الحيرة والضياع ، الى العدمية .

إن جوهر اخلاقيات أي نظـــام ينبـع من المقياس الذي يتبـع في تقييم المواقف ، والذي على ضوئه تتم عملية الاختيار .

* *

في ما يلي – في بحثنا عن الإسلام والمسألة الاخلاقية – سنوضح موقفه الإسلام في الأبحاث التالية :

أ – في الحرية والمسؤولية :

لا يمكننا أن نصف الانسان بأنه كائن اخلاقي ، ولا أن نطالبه بسلوك اخلاقي يرتفع به عن مستوى مصالحه القريبة ، ورغباته الملحة ، إلا إذا اعترفنا بأنه كائن حر ومسؤول ، والا فمع سلب حرية الاختيار من الانسان فانه – بالضرورة – لا يكون مسؤولاً عن طبيعة عمله ، ولا عن نتيجة ذلك العمل ، كما لا يمكن ان نصنف عمله بأنه خيّر أو شرّير وفقاً لأي مقياس يرضى به العقل – وبالنتيجة يكون الحديث عن اخلاقية الانسان – كالحديث عن اخلاقية الآلة – غير ذي مغزى .

إن هذه الحقيقة البديهية تكشف لنا عن ان الماركسية لا يمكن أن يكون فيها نهج اخلاقي مهما ادعى مفكروها ذلك ومهما تحدثوا عن الاخلاق الماركسية ، وذلك لأن الماركسية تصادر – في التطبيق – الحرية الفردية في مجال العمل والحركة ، ولأنها – في مستوى النظرية – تنكر الحرية الداخلية للانسان ، وتدعي ان حركة الانسان والمجتمع في الطبيعة والزمن نتيجة للضرورة ، وليس نتيجة لحرية الاختيار .

وهكذا الشأن في كل دعوة تلغي الحرية الانسانية بمصادرة الحرية الفردية في مجال العمل الحسي والحركة ، وانكار الحرية الداخلية في مجال الاختيار .

أما في الإسلام فالأمر على خلاف ذلك .

الحرية الداخلية (حرية الاختيار) ثابتة للذات الانسانية بشكل بديهي غير قابل للمماراة .

وحرية الحركة (تحويل الاختيار الى فعل) ثابتة لكل انسان ، ومن حق كل انسان بموجب القانون (الشريعة) [1] .

وإذا كان الانسان حراً فلا بد أن يكون مسؤولاً ـ إذ لا حرية بدون مسؤولية ـ وإذا كان مسؤولاً فهو كائن اخلاقي .

ب — معنى الحرية :

إسلامياً : الحرية لا تكون إلا في النظام ، وإلا فلا توجد حرية .

ليس ثمة في الواقع حرية مقيدة وحرية غير مقيدة ، وإنما توجد الحرية في داخل نظام معين للسلوك وإلا فلا توجد حرية على الاطلاق .

وذلك لأن الحرية ليست ممارسة عشوائية للنشاط وإعمالاً عشوائياً للامكانات، وإنما هي فعل عقلاني ، والفعل العقلاني لا بد أن يكون في نطاق قيم معينة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يوجد نظام للممارسة يشكل الاطار الذي تتم في داخله ممارسة الحرية .

فبدلاً من أن نفهم المسألة هكذا: يوجد نوعان من الحرية: مقيدة ومطلقة، نفهمها على الشكل التالي : يوجد نوعان من الأنظمة : نوع يوفر الحرية ، ونوع آخر يصادرها . ويوجد نوعان من العقائد والفلسفات : نوع يعترف للانسان بحرية الاختيار ، ونوع ينكرها عليه .

ان الحرية في النظام تجعل الانسان سيد نفسه ومصيره بالحرية .

أما ما يسمى « حرية مطلقة » فتجعل الانسان رهناً بقوى خارجة عنه.

مثلاً : انسان يتقن السباحة جيداً ، ويمارسها في الماء ملتزماً بكل

---

(١) لاحظ البحث السابق عن الحرية والمسؤولية الشخصية .

قواعدها وأصولها . انه اختار أن يسبح ، ونفذ اختياره خاضعــاً لقوانين المادة التي يتعامل معها ، والفعل الذي يمارسه فيها (الماء ـ العوم) إنه يمارس حريته ، وينفذ اختياره ، ولكنه لا ينفذ اختياره كيفما اتفق ، وإنما ينفذه وفقاً لنظام معين يؤمنه من أن تنقلب ممارسة الحرية الى كارثة عليه تؤدي به الى الغرق .

في مقابل هذا نضع انساناً لا يعرف عن السباحة شيئاً ، أو يعرف عنها شيئاً قليلاً . انه ـ بلا شك ـ قادر على أن يحرك أطرافه في الماء كيف يشاء. ولكن هذه الحركة ليست حرية ، انها فوضى قد تجعله يعوم قليلا ، ولكنه دائماً معرّض لأن يغرق لأنه لم يتعامل مع المــادة التي يتحرك فيها وفقاً لقوانينها ، ولقوانين حركته الخاصة فيها ، وإذن فلا بد في هذه الحــالة أن تعمل قوانين الثقل عملها الذي لن يكون في مصلحته أبداً .

* *

إن هذا المفهوم للحرية يضعنا في مواجهة مفهوم الحريــة لدى سارتر والوجودية الملحدة بوجه عام.

إن سارتر يرفض ـ انطلاقــاً من فهمه الخاص للوجودية ـ يرفض فكرة الحرية في النظام ، انه يرفض أي إشارات تنظم حركة الانسان تجاه الآخرين وتجــاه نفسه في الحياة ، يرفض أي قيم يمكن أن تستهدي في الاختيار ، انه يريد سباحة في المــاء بلا خضوع لأي قانون من قوانين الحركة في المــاء ، انه يقول :

« قال دوستويفسكي (لو كان الله غير موجود لكان كل شيء محللا) هذه هي نقطة انطلاق الوجودية. وبالفعل، فان كل شيء يكون محللا في حالة عدم وجود الله ، ويصبح الانسان عندئذ

مهجوراً، لأنه لا يجد في ذاته أو خارج ذاته إمكانية يتعلق بها، بل يجد اعذاراً مبررة ... ومن جهة أخرى اذا كان الله غير موجود فاننا لا نجد أمامنا سلسلة من القيم او من الأنظمة تستطيع تبرير سلوكنا ، وهكذا ليس أمامنا أو وراءنا في مجال القيم النيّر مبررات أو أعذار فنحن وحيدون، وبلا عذر[1]».

إن هذا الفهم الخاطيء للحرية لا يؤدي الى الحرية ولا الى أي اخلاقية جيدة ، وإنما يؤدي الى الضياع ، لأنه ـ في الحقيقة ـ فوضى وليس حرية .

يقول سارتر في كتابه (الوجود والعدم) :

« انهم يكتشفون في وقت واحد ان كل الافعال الانسانية سواء ... وهكذا يستوي آخر الأمر ان أثمل بالشراب في وحدتي او ان اقود الشعوب ، واذا كان لأحد هذين الهدفين ان يمتاز عن الآخر فلن يكون ذلك بفضل هدفه الواقعي ، بل بسبب درجة ما يملكه من وعي لهدفه المثالي » .

إن هذا هو ما يحمل رفيقة سارتر ، سيمون دوبو فوار ، تقول في معرض حديثها عن الاخلاق الوجودية :

« افعل ما ينبغي لك وليكن ما يكون » .

يقول روجيه غارودي في معرض نقده للاخلاق الوجودية :

« ان هذه الحرية المتحررة من كل جاذبية ارضية (ولنقل

(١) جان بول سارتر : الوجودية فلسفة انسانية ـ ترجمة حنا دميان ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٤ م ص ٢٥ .

من كل نظـــام) هذه الملائكية ، تحمل اغراء الطهر واغراء المغامرة على السواء [1] » .

أي انها الفوضى ، وليست الحرية .

ومن الواضح انه لا يمكن بناء أية اخلاق ـ بالمعنى المفهوم للاخلاق ـ على حرية كهذه ، لأن الأخلاق إذا أريد لها أن تكون فلا بد أن تقوم على حرية في ظل نظام للمارسة ، أما الفوضى فلا تنتج إلا الضياع .

ج ـ تجاوز الذات :

في نطاق هذه الحرية يمارس المسلم اخلاقيته .

وإذا أردنا أن نلتمس السمة العامة اللازمة للاخلاق الاسلامية بحيث تصلح أن تكون تعريفاً يحدد هوية الأخلاق الاسلامية ـ إذا أردنا ذلك أمكننا أن نعرف الأخلاق الاسلامية بأنها « **تجاوز الذات نحو الانسان الآخر ، ونحو الله في موقف إيجابي من الانسان والكون مبني على مبدأ الايمان بتقدم البشرية من خلال رسالات الله** » .

ان تجاوز الذات هو المسألة الكبرى في الاخلاق الاسلامية .

والتوجيه الاخلاقي الالهي في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة يؤكد تأكيداً مطلقاً على أن أي التزام حياتي لا يمكن ان يوصف بأنه أخلاقي إلا اذا كان فيه تجاوز للذات الفردية في سبيل الآخرين .

أما السلوك الذي يتجاهل فيه صاحبه الآخرين فانه لا يكون موصوفاً

---

(١) هـذا النص ، والنصان السابقـان لسارتر وسيمون دوبو فوار مقتبسان من روجيه غارودي : ماركسية القرن العشرين ـ ترجمة نزيه الحكيم ـ الطبعة الثالثة ـ دار الاداب ـ بيروت ١٩٧٢ م ص : ١٢٣ ـ ١٢٤ .

بالاخلاقية ، ولكنه ليس غير شرعي بالضرورة ، فكثيراً ما يكون السلوك المعين الذي تسيطر فيه « الانا » واقعاً في نطاق المشروعية ، لكنه في الوقت نفسه يكون خارجاً عن نطاق الاخلاقية .

قال الله تعالى :

« والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون [1] » .

فالايثار على النفس الذي تضمنت الآية مدح الانصار به لايثارهم المهاجرين على انفسهم ، والايثار مع الحاجة والخصاصة هو أعلى مستويات تجاوز الذات نحو الآخرين .

وقد اشتملت الآية على اروع تعبير يصور تجاوز « الانا » في السلوك مع الآخرين ، وذلك في قوله عز وجل :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وروى الامام جعفر الصادق عن رسول الله ﷺ قوله :

« من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم » .

« من اصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ، ومن سمع رجلا ينادي : يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم » .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ٩ .

« الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله، وادخل على اهل بيت سروراً [1] » .

وروي عن الامام علي بن الحسين (زين العابدين) انه قال :

« قال رسول الله ﷺ : ان احب الاعمال الى الله عز وجل ادخال السرور على المؤمنين [2] » .

وروي عن الامام جعفر الصادق انه قال :

« قال رسول الله ﷺ : احب الاعمال الى الله سرور تدخله على المؤمن : تطرد عنه جوعته ، او تكشف عنه كربته [3] » .

وقال الله عز وجل :

« وقولوا للناس حسناً [4] » .

ان المسلم الاخلاقي يتجاوز ذاته نحو المسلمين بوجه خاص، ونحو الانسانية كلها بوجه عام ، وبذلك يكون قد تجاوز ذاته نحو الله تعالى اذا التزم بالشريعة .

ان تكريس الذات في خدمة الغير على كل صعيد يجعل من الانسان الآخر ومن الجماعة الانسانية لدى الانسان المسلم الاخلاقي يجعلها غاية في حد ذاتها ،

---

(١) الكليني (محمد بن يعقوب) الكافي (الاصول) – الناشر مكتبة الصدوق – طهران – الطبعة الثانية – ١٣٨١ هـ ج ٢ ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٩١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .

وليس وسيلة لتحقيق الذات . وان اعظم مطامح الانسان في جميع العصور هو ان يكون غـاية للانسان الآخر تؤدي الى الالتحام في الهموم والآمـال ، وان أسوأ ما يحل بالناس في مجتمع ما ان يتخذ بعضهم بعضاً وسائل لتحقيق اهدافهم يعبرون عليها ولا يعنون بها ، وما اكثر ما حل بالانسانية من نكبات وآلام نتيجة جعل الضعفاء وسيلة يعبر الاقوياء عليها لتحقيق ذواتهم في عالم تسوده شريعة الغاب ، وعقلية الذئاب .

لقد جاء الاسلام بنظرته الاخلاقية الطاهرة المثـــلى التي تجعل الانسان يتجاوز ذاتـه نحو اخوانه الآخرين فيجعلهم غاية يصل اليهـا ، ويتحد بها ، لا وسيلة يعبر عليها الى غاياته الخاصة .

* *

ان الانسان في الاسلام مشروع قابل للنمو والازدياد باستمرار .

ولعل من افضل ما يصور هذه الحقيقة كلمة الامام علي عليه السلام التي تلخص هذا الموقف الاسلامي :

« من اعتدل يوماً ، فهو مغبون [1] » .

فهذا الغبن يأتي من أن المشروع الانساني بقي جامداً على حاله التي كان عليها في الماضي ، لم ينم ولم يغتن ، ولم يتسع .

والازدياد والنمو لا يكونان بتحقيق الذات وتأكيدها على حساب الآخرين ، وإنما بتجاوزها نحو الآخرين بالعطـاء والبذل (الايثار) في عملية انفتاح نحو الخارج ، لا باحتواء الآخرين في عملية جذب نحو الداخل (الشح).

---

(١) هادي كاشف الغطاء : مستدرك نهج البلاغة - مكتبة الاندلس بيروت - ص : ١٥٧ - ب الحكم نقلا عن ابي عثمان الجاحظ .

وهذا التجاوز نحو الغير يحقق التجاوز نحو الله .

ان القرب نحو الله تعالى لا يتحقق – بعد الالتزام بالشريعة – بمثل الممارسة اليومية للنشاط الذي يتميز بتجاوز الذات الفردية (الانا) نحو الآخرين .

ان القرب المعنوي من الله تعالى يتحقق بهذا الاسلوب .

روي عن الامام ابي عبدالله الصادق عليه السلام :

« قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله ، وادخل على اهل بيت سروراً » .

وحين نلاحظ ان (قصد القربة) الذي هو ملاك عبادية العمل يمكن ان يتحقق في صميم كل ممارسة عملية محبة لنشاط انساني يتعدى المصلحة الشخصية ويكون الآخرون غاية لها ، فيحولها من فعل « خام » الى عبادة صافية لله تعالى ، ندرك كم هي عظيمة وحيوية لتقدم البشرية هذه الاخلاق التي يبشر بها الاسلام .

* *

ان القرآن الكريم والسنة الصحيحة يُرسيان بقوة مبدأ عظيماً من مبادىء الاسلام ، وهو مبدأ تقدم البشرية بهدي رسالات الله سبحانه وتعالى الى الانسان على لسان انبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

فالبشرية بدأت تتلمس طريقها الى النور والحق مستهدية برسالة الله الاولى، وكلما غبر منها عصر جاء عصر آخر يتلقى رسالة أخرى تبشر بما مضى وبجديد فيه مزيد من النور والهدى يرفع البشرية درجة أخرى . واستمرت رسالات الله تربي البشرية وترقى بها صعداً الى اعلى حق جاءت الرسالة الخاتمة

من عند الله تعالى على لسان محمد رسول الله ﷺ ، فأعلنت الرشد الكامل بإكمال الدين وسيادة العقـــل في نطاق شريعة الله سبحانه وتعالى كما يقضي بذلك مبدأ ختم الرسالات .

ولقد وردت في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تبين هذه الحقيقة ، منها ما يقرر المبدأ العام لدور رسالات الله تعـــالى في تقدم البشرية ، ومنها ما يبين دور رسالات بعينها في هذا المجال .

فما ورد في القرآن الكريم مما يتناول بيان المبدأ العام قوله تعالى :

« لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط [1] » .

« وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم [2] » .

ومما ورد في القرآن الكريم في بيان دور رسالات بعينها قوله تعالى في شأن رسالة موسى عليه السلام :

« ولقد ارسلنا موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظلمات الى النور ، وذكّرهم بايام الله ... [3]» .

« وآتينا موسى الكتاب ، وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلا [4] » .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

(٢) سورة ابراهيم ، الآية : ٤ .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٥ .

(٤) سورة الاسراء ، الآية : ٢ .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقـــائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل [1] » .

« إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا [2] » .

وقوله تعالى في شأن رسالة عيسى عليه السلام :

« وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين [3] » .

وقوله تعالى في شأن الرسالة الخـاتمة رسالة الاسلام التي أرسل بهـــا محمداً صلى الله عليه وسلم :

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله [4] » .

« وأنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء . وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين [5] » .

« كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ :

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٤٦ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

(٥) سورة النحل ، الآية : ٨٩ ،

بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم [1] » .

« هو الذي ينزل على عبـــده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وان الله بكم لرؤوف رحيم [2] » .

« قد جـــاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم [3] » .

* *

ان حركة تقدم البشرية التي قادتها رسالات الله تعالى الى الناس على لسان انبيائه ورسله وما أنزل عليهم من وحي – هذه الحركة العظيمة العريقة في عمر الزمان والانسان لم تمر بدون معوّقات وحركات جاهلية ضالة تقودها في كل عصر ومكان جاهلية ذلـــك العصر ضد حركة التقدم المضيئة الخيرة الهادية التي تقودها النبوات .

وقد حفل القرآن الكريم بالحديث عن هـــذه الحركات الجاهلية المضادة واعطاها اسماً يتكرر في القرآن – عند الحديث عنهـــا – باستمرار ، وهو « الصد عن سبيل الله » فالصد عن سبيل الله تعـــالى هو الحركة الجاهلية المضادة لحركة الهدى التقدمية التي كانت تقودها كل نبوة في عصرها ومحيطها البشري الخاص .

في الآيات التالية يبين الله تعالى – في عرض عـام ومجمل – حركة التقدم

---

(١) سورة ابراهيم ، الآيتان : ١ ، ٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآيتان : ١٥ – ١٦ .

البشرية منذ نوح سلام الله عليه الى رسول الله محمد ﷺ ورسالته الخاتمة ، ثم يشير الى الكافرين بهــذه النبوات الذين يصدون الناس عن الالتزام بها والسير على هداها :

« إنا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينــا الى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وايوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتينا داود زبوراً . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا ليهديهم طريقاً [١] » .

وقد عرض الوحي القرآني لبيان حـالاتٍ كثيرٍ من الانبياء والرسل مع أعداء التقدم الذي تقوده النبوات :

« كذبت قوم نوح المرسلين [٢] » .

« والى عاد اخاهم هودا ... قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين [٣] » .

---

(١) سورة النساء ، الآيات : ١٦٣ – ١٦٨ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٠٥ .

(٣) سورة الاعراف ، الآيتان : ٦٥ – ٦٦ .

« والى عـاد أخاهم هودا ... قالوا يا هود مـا جئتنا ببيّنة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين [1] » .

« كذبت عاد المرسلين [2] » .

« كذبت ثمود المرسلين [3] » .

« كذبت قوم لوط المرسلين [4] » .

« وإن الياس لمن المرسلين ... فكذبوه فانهم لمحضرون [5] ».

« فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه [6] » .

« والى مدين اخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين [7] » .

« وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قـوم نوح وعـاد وثمود . وقوم ابراهيم وقوم لوط . واصحاب مـــدين وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، ثم أخذتهم فكيف كان نكير [8] » .

---

(١) سورة هود ، الآية : ٥٠ — ٥٣ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٢٣ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ١٤١ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ١٦٠ .

(٥) سورة الصافات ، الآية : ١٢٣ — ١٢٧ .

(٦) سورة النساء ، الآية : ٥٤ — ٥٥ .

(٧) سورة العنكبوت ، الآية : ٣٦ — ٣٧ .

(٨) سورة الحج ، الآية : ٤٢ — ٤٤ .

وقد اشتملت اغلب الآيات التي عرضت لظـاهرة الصد عن سبيل الله في تاريخ الرسالات الالهية الى الناس — اشتملت على الاشارة الى الصد عن سبيل الله في وجه الرسالة الإسلامية على لسان محمد ﷺ واكثر مـا ورد في هـذا الشأن إنما ورد لتسلية النبي ﷺ واحاطته علماً بأن ما يواجهه قد واجهه من قبل كل اخوانه من انبياء الله تعـالى ، وانه في هذا الشأن — ليس بدعاً من الرسل . وقد وردت — الى جانب هـذا آيات كثيرة عالجت الصد عن سبيل الله في الاسلام بوجه خاص منها قوله تعالى :

« اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله [1] » .

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ... ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط اعمالهم » .

« ان الذين كفروا وصدوا عن سبـل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم [2] » .

هذه نماذج من الآيات — وما لم نذكره أكثر — التي بيّن الله تعـالى فيها الحركة المضادة للنبوات ، والتي تريد ان تعوّق او تعطل عمل النبوات في نقل محيطها البشري الى مرحلة أكثر تقدماً وإنسانية .

ولا يستثني الوحي القرآني من هذه الظاهرة إلا النبي يونس عليه السلام ، فـلا يشير الى ان رسالته واجهت من قومه أية مقاومة ، بل يصرح الوحي بإيمانهم حين دعوا الى الإيمان ، وبأن إيمـانهم حقق لهم الخير والفلاح :

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ١ ، ٣٢ ، ٣٤ .

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين [1] » .

« وان يونس لمن المرسلين ... وأرسلناه الى مئة ألف او يزيدون . فآمنوا فمتعناهم الى حين [2] » .

* *

والصادون عن سبيل الله تتراوح مواقفهم بين حالتين :

الحالة الاولى : هي الرفض المطلق للرسالة ، والتمسك المطلق بالموقف الجاهلي الذي يريد النبي تغييره . وهؤلاء عبّر الله تعالى عنهم بأنهم يصدون عن سبيل الله ، وبانهم يكذبون المرسلين – وقد ورد استعمال مادتي « الصد » و « التكذيب » بالنسبة الى هذا الفريق من الناس في آيات كثيرة جداً وبصيغ وأساليب متنوعة ، مما يدعو الى الظن بان هذا الفريق يمثل الأكثرية الساحقة من معاندي رسالات الله تعالى . وقد وردت هذه الآيات في سور مكية ومدنية . وقد ذكرنا نموذجاً من هذه الآيات وهذا مثل آخر منها :

« ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً [3] » .

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون [4] » .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٨ .

(٢) سورة الصافات ، الآية : ١٣٩ – ١٤٧ – ١٤٨ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٦٧ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٨٨ .

« اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله [1] » .

« إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام [2] » .

الحالة الثانية : هي رفض الرسالة ، ولكن بغير الاسلوب الصدامي الذي يقضي باتخاذ مواقف مضادة صريحة من الرسالة ككل ، وانما باسلوب آخر ، هو — فيما يبدو لي والله تعالى اعلم بأسرار كلامه الشريف — بمحاولة تحريف بعض المبادىء او الاحكام الأساسية الكبرى في الرسالة ، ويتوسلون الى ذلك بجعل هذه المبادىء والاحكام موضعاً للشك أو موضعاً للرفض ، وهذا يؤدي بطبيعة الحال ، في النهاية ، الى تهديم الرسالة من الداخل .

وقد عبّر الله تعالى عن ذلك بابتغاء العوج في سبيل الله تعالى، فالمعاندون — في هذه الحالة — يحاولون أن يصرفوا الرسالة عن طريقها الحق ، أو يصرفوا اتباعها عن التمسك الصادق بها ، ويقذفون بهم في متاهات الشك والريب ، وبذلك يحققون غرضهم في الصد عن سبيل الله تعالى باسلوب اكثر مرونة يجعلهم — فيما يحسبون — في امان من تكشف محاولاتهم الشريرة، ولكن الله تعالى كشفهم .

واقد ورد الحديث عن هذه الحالة في كتاب الله تعالى في خمس موارد .

واحد منها يتعلق بجاهلية ما قبل الاسلام يحكي حواراً بين النبي شعيب عليه السلام وبين قومه :

« والى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من

---

(١) سورة المجادلة ، الآية : ١٦ وسورة المنافقون ، الآية : ٢

(٢) سورة الحج ، الآية : ٢٥ .

إله غيره . قد جاءتكم بينة من ربكم ، فاوفوا الكيل والميزان
ولا تبخسوا النـــاس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد
اصلاحها ذلكم خير لـــم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل
صراط توعِدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها
عوجا ... [1] » .

وواحد منها يحكي فيه الله تعالى حواراً بين اهل الجنة واهل النار تتمثل فيه النهاية المشؤومة لهذا الفريق الجاهلي من النـاس الذي جعل همه الصد عن سبيل الله تعالى :

« ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النـــار ان قد وجدنا ما
وعدنا ربّنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا : نعم ،
فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن
سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة كافرون [2] » .

في الموارد الثلاثة البـاقية يخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن محاولات من هذا القبيل استهدفت الرسالة الاسلامية . موردان ذكرا في سورتين مكيتين لم تذكر فيها الجهة التي كانت تحاول إدخـــال العوج على مبادىء وأحكام الشريعة الاسلامية ، وربما تكون هــــذه الجهة هي مشركي مكة . والمورد الثالث ورد في سورة آل عمران المدنية وصرح الله فيه بذكر الجهة المعـاندة الكافرة وهي اليهود .

والموردان المكيان هما :

---

(١) سورة الاعراف ، الآية : ٨٥ – ٨٦ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية : ٤٤ – ٤٥ .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً . أولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . الا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون [1] » .

« وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد [2] » .

والمورد المدني هو قوله تعالى في شأن اليهود :

« قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجاً ، وأنتم شهداء [3] » .

فاليهود كما تصورهم هذه الآية يحاولون ان يصرفوا المؤمنين عن الاستقامة على ايمانهم كما بلّغهم اياه رسول الله ، ليقذفوا بهم في متاهات الشك والحيرة .

وإذن ، فقد كان اليهود يقومون ضد الاسلام بمحاولتين متوازيتين : يصرفون المشركين عن الدخول في الاسلام من جهة ، ويزلزلون ايمان من دخل في الاسلام من جهة أخرى .

وتاريخ اليهود في مجال تحريف الدعوات الدينية والرسالات الالهية وتهديمها ، وصرفها عن وجهها الذي أراده الله تعالى لها ، تاريخهم في هذا المجال عريق عريق .

---

(١) سورة هود ، (مكية) الآية : ١٨ – ١٩ .

(٢) سورة ابراهيم ، (مكية) الآية : ٢ – ٣ .

(٣) سورة آل عمران (مدنية) ، الآية : ٩٩ .

وقد بـدأ تاريخهم الشائن في هذا المجال بتحريفهم رسالة موسى عليه السلام ، واستمروا على هذه المحاولات في كل رسالة تالية ، واذا كانوا قد أفلحوا قليلاً أو كثيراً فيما تلا رسالة موسى عليه السلام فانهم فشلوا فشلاً ذريعـاً في محاولاتهم ضد الاسلام الحنيف ، هذه المحـاولات التي بدأت منذ عهد الرسالة الاول في حياة رسول الله ﷺ ، ولا تزال مستمرة الى الآن :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون [1] » .

وحين تعـاظم عملهم التخريبي ضد الاسلام ، بعـد هجرة رسول الله ﷺ الى المدينة ، بعد ان رأوا الاسلام قـد كشف زيفهم وجردهم من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في المدينة (يثرب) وغيرهـا — حينئذ فضح الله تعالى اساليبهم في تحريف كلمـات الله ورسالاته وكيف انهم (يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً) :

« أفتطمعون ان يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون [2] » .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً . من الذين هـــادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا [3] » .

---

(١) سورة الصف ، الآية : ٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٧٥ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٤ — ٤٥ .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنـــا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه [1] » .

« يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ، لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه [2] » .

* *

تبقى حقيقة أساسية ثابتة في شأن حركة التقدم التي تقودهـــا النبوات والحركات المضادة لها التي تعمل للصد عن سبيل الله وتحريفها . هذه الحقيقة هي أن هذه الحركات المضادة كلهـا مقضي عليها بالفشل التام ، والنجاحات العارضة المحدودة التي تحرزها هذه الحركات في بعض الحالات سرعان مـــا تنتهي بالاخفاق ليظهر نور الله وهدى الله في نهاية المطاف .

ان معظم الآيات التي ذكر فيهـا الله تعـــالى المعاندين للرسالات بالصد والتحريف تنتهي ببيان ان محاولاتهم كلها مآلها الاخفاق .

من ذلك قوله تعالى :

« ... ألا لعنـة الله على الظـالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون. أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، ومـــا كان لهم من دون الله من أولياء ،

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٤١ .

يضاعف لهم العذاب ، مـــا كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [1] » .

« إن الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول من بعد مـــا تبين لهم الهدى ، لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم [2] » .

« إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً [3] » .

ولعل أجمع الآيات في هـــذا الشأن ، وأوسعها تفصيلاً ، وأظهرهـــا دلالة قوله تعالى :

« إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون [4] » .

* *

هذا عرض آمل أن يكون وافياً الى حد كبير – في حدود هذا الفصل – المبدأ الإسلامي العظيم «تقدم البشرية بهدى رسالات الله الى الانسان على لسان أنبيائـــه ورسله » .

---

(١) سورة هود ، الآية : ١٨ – ٢٠ .

(٢) سورة محمد ، الآية : ٣٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٦٨ .

(٤) سورة الانفال ، الآية : ٣٦ .

ان وعي المسلم لهذا المبدأ يجعل مواقفه والتزاماته إيجابية ومتفائلة ، ويطبع علاقاته مع الآخرين بالايجابية والتفاؤل .

ان الأمل بغد أكثر غنى وأبهج وأسعد وأطهر يعمر قلب المسلم الواعي الملتزم دائماً ، ولا يجد اليأس الى قلبه سبيلاً حتى في أحلك الساعات وأكثر المواقف صعوبة .

ان اليأس الذي يدفع الى الانكفاء على الذات يعتبر خطيئة عند المسلم الواعي . والموقف القرآني من اليأس موقف واضح وحاسم :

« ... ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون [1] » .

يقول العلامة محمد حسين الطباطبائي في تفسير هذه الآية :

« الرّوح – بالفتح ، فالسكون – النفس . أو النفس الطيب . ويكنى به عن الحالة التي هي ضد التعب ، وهي الراحة ، وذلك أن الشدة التي فيها انقطاع الأسباب ، وانسداد طرق النجاة تتصور اختناقاً وكظماً للانسان ، وبالمقابلة : الخروج إلى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفساً وروحاً ، لقولهم : يفرّج الهم وينفس الكرب . فالروح المنسوب اليه تعالى هو الفرج بعد الشدة باذن الله ومشيئته . وعلى من يؤمن بالله أن يعتقد ان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيئته ولا معقب لحكمه ، وليس له أن ييأس من روح الله ، ويقنط من رحمته ، فانه تحديد لقدرته ، وفي معنى الكفر باحاطته وسعة رحمته كما

---

(١) سورة يوسف (مكية) ، الآية ٨٧ .

قال تعالى حاكياً على لسان يعقوب عليه السلام : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وقال حاكياً على لسان ابراهيم عليه السلام : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » .

سورة الحجر ، الآية : ٥٦ « وقد عدّ اليأس من روح الله في الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة [١] » .

* *

إن هذا المبـدأ الاسلامي يجعـل المسلم الواعي الملتزم انساناً يتميز بروح التصدي والاقتحام ، انه لا يفر من مسؤولياته وإنما يتحملها بشجاعة ورضى.

وهذا مـا يجعل الاخلاق الاسلامية تتوحد مع ممارسة الحياة اليومية الخاصة والعامة بجميع جوانبها . انها ليست أخلاقاً وعظية وسلبية ، وإنمـا هي اخلاق فاعـلة تربط بين المسؤولية الشخصية ، وبين القواعد الاجتماعية للسلوك الاخلاقي وتتوحد مع السياسة .

وتوحد الاخـلاق مع السياسة يجعـل الاسلام دعوة فريدة في نظرها الى المسألة الاخلاقية حين تجعل من السياسة عملا اخلاقياً أيضاً بالاضافة الى جعلها علاقة الانسان بالآخر عملا اخلاقياً– فان كل ما نعرفه من الانظمة والفلسفات يجعل مبادىء التعامل السياسي شيئاً آخر غير مبادىء الاخلاق، أما الاسلام فقد جعل من الاخلاق ملح الحياة كلها .

وقد كان سلوك المسلمين السياسي مع خصومهم – حتى في أشد الساعات حرجاً عليهم – مطبوعاً غالباً بالاخلاقية العالية النادرة المثال .

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن (مطبعة الحيدري–طهران) سنة ١٣٨٤ هـ ج ١١ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— د —

مجـال العمل الاخلاقي

يمثل نظام الواجبات ونظام المحرمات في الشريعة الحد الادنى الذي يحفظ مصلحة البشرية ، ويضعها على طريق الفلاح ، بحيث لو ان المجتمع تخـلى عن اداء الواجبات وقارف المحرمات لفقد كل امكانية للنمو والتقدم في أي مجال من المجالات .

ولمـــا كان من المبادىء الاساسية في الشريعة الاسلامية ان التكليف لا يتجاوز حدود القدرة .

« لا يكلف الله نفساً الا وسعها [1] » .

فان الكمية التي يستهلكها امتثـال الواجب والحرام من القدرة كميـة محدودة ، يبقى بعدها مزيد يمكن صرفه في مجالات اخرى خـارج نطاق الواجبات والمحرمات .

ان الالزاميات في الشريعة (الواجبات والمحرمات) تقع خـارج مجال العمل الاخلاقي .

وذلك لان ارتباط دائرة المحرمات والواجبات بمبدأ الجزاء ، ولانه

---

(١) سورة البقرة (مدنية) الآية : ١٨٦ وهذا المبدأ (التكليف في حدود القدرة) من المبادىء الاساسية في التشريـع الاسلامي ، وهو في مصطلح الفقهاء من الشروط العامة لاي تكليف شرعي ، وقد ورد النص عليه مراراً في الوحي المكي والمدني :

« لا تكلف نفس الا وسعها » سورة البقرة (مدنية) الآية : ٢٣٣ .

« لا نكلف نفساً الا وسعها » سورة الانعام (مكية) الآيـة : ١٥٢ وسورة الاعراف (مكية) الآية : ٤١ ،

« ولا نكلف نفساً إلا وسعها » سورة المؤمنون (مكية) الآية : ٦٢ .

لا بد من امتثالها لان عصيانها يستلزم استحقاق المؤاخذة من الله تعالى للانسان – هذا الوضع التشريعي للواجبات والمحرمات يجعل ممارستها تتم تحت ضغط الشعور بالتكليف من أعلى ، وبذلك تكون ممارستها بروح الواجب القانوني الحكمي لا بروح العطاء السمح المجاني . وان كان الافذاذ من الناس يصلون – حتى في دائرة الواجبات – الى مستوى ممارسة الواجب بروح العطاء السمح المجاني ، كما نشاهد أروع مثال على ذلك بعد رسول الله ﷺ عند الامام علي بن ابي طالب عليه السلام . وقد عبر عن فهمه الخاص ، وممارسته الخاصة لعبادة الله سبحانه وتعالى في كلمات كثيرة منها قوله عليه السلام في بعض مناجاته لله تعالى :

« ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك »[١] .

ومنها قوله عليه السلام في تقسيمه الناس بحسب فهمهم لعبادة الله ودوافعهم لممارستها :

« ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار . وان قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد . وان قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار »[٢] .

هذا النموذج من الناس الذي يمارس التكليف الشرعي بروح العطاء السمح المجاني على الطريقة التي صورها الامام علي – هذا النموذج فذ نادر في الناس كما قلنا ، ولذلك فان هذا النموذج لا يصلح أن يكون مقياساً لسائر الناس ، والغالب في الناس انهم يمارسون التكليف بروح الواجب

---

(١) هادي كاشف الغطاء – مستدرك نهج البلاغة – باب الحكم – ص ١٦٥ .

(٢) نهج البلاغة – باب الحكم برقم : ٢٣٧

القانوني الحكمي رغبة في ثواب الله أو خوفاً من عقابه ، ولذلك فان هـذا النوع من العمل لا يدخل في دائرة الممارسة الاخلاقية .

* *

فاذا تجاوزنا دائرة الالزاميات (الواجبات والمحرمات) في الشريعة ، فسنقع على دائرة يمكن ان نقول عنها انها عديمة اللون : ليس فيها أمر ولا نهي وليس فيها رجحان ولا مرجوحية ، وليس عليها مدح ولا ذم ، انهـا ما يسمى في الشريعة المباحات .

انها الاستجابات الذاتية لرغبات الجسد وحاجاته في نطاق حدود الشريعة فلا تتعداها بترك واجب او فعل حرام ، وإلا فان هذه الاستجـابات اذا تعدت حدود المباح تدخل حينئذ في نطاق الالزام التحريمي .

ويدخل في هذه الدائرة كل فعل أو موقف في الحياة الشخصية والعامة لا تشمله دائرة الحرام والواجب ، ولا تحتويه دائرة المستحب والمكروه .

في الحياة الشخصية : ان تأ كل ما شئت مما احله الله ، وان تلبس مـا شئت مما احله الله ، وان تسكن حيث شئت فيما احله الله . ان تتعـلم أي شيء اهلتك له قدرتك ومواهبك ، ان تمارس اي عمل تكسب منه رزقك وتوسع به على نفسك واهلك، ان تمارس اي هواية بريئة تروح بها عن نفسك، ان تتخذ لنفسك من تشاء من الناس اصدقاء ، ان تتجنب من شئت من الناس — سوى الأرحام — دون أن تسيء اليهم أو تتخذهم اعداء ... الى غير ذلك من الأمثلة التي لا تكاد تدخل تحت حصر .

وفي الحياة العامة : لعل افضل مثال نقدمه يشرح الفكرة ويوضحها هو مسألة ممارسة العدل في التعامل مع الناس .

فحينما يكون لك حق على أحد من الناس فتأخذه منه كاملاً ، لا تسمح له

ببعضه ، ولا تدعي لنفسك اكثر مما لك عليه ، تكون قد اخذت بحقك ، وهذا من المباح الذي لا مدح عليه ولا ذم ، ولا ثواب عليه ولا عقاب .

وحين يكون لأحد من الناس حق عليك فيطالبك به فتعطيه اياه كاملاً لا تزيده على حقه شيئاً ، ولا تنقصه من حقه شيئاً ، كان هذا من المباح الذي لا مدح عليه ولا ثواب عليه ولا عقاب .
انه العدل لنفسك وللآخر .

أما اذا تجاوزت العدل الى الجور ، فأخذت اكثر من حقك دون ان يرضى صاحبك ، او اعطيته اقل من حقه ، فقد تجاوزت بذلك العدل المباح الى الظلم الحرام .

وأما اذا تجاوزت العدل الى الفضل ، فأخذت أقل من حقك طيبةً نفسُك ، واعطيت صاحبك اكثر من حقه طيبةً نفسُك ، فقد تعاليت وتسامحت ، وتجاوزت العدل الى الفضل ، ودخلت دائرة التعامل بالأخلاق .

ثمة في حياة الانسان ، اذن ، ثلاثة نماذج من السلوك فيما يرجع الى علاقته بالناس في حقوقه عليهم وحقوقهم عليه :

١ – السلوك العادل المستقيم .
٢ – السلوك العدواني الظالم .
٣ – والسلوك الأخلاقي الفاضل .

وقد بين الله سبحانه وتعالى هذه النماذج الثلاثة للسلوك اوضح بيان في جملة من الآيات ، وجمع بينها في البيان وفي الوضع التشريعي لكل منها في قوله تعالى :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من

سبيل. انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور » [1]

فالله تعالى قد بين الحكم في السيئة ، وان جزاء السيئة مثلها ، وان من أساء اليه احد فظلمه فانتصر لنفسه فلا سبيل عليه ، انه أخذ بحقه فلا سبيل عليه ، لانه لم يتجاوز الحق ، ولكنه تعالى لم يمدحه ولم يفضله .

انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، الذين يعتدون بغير حق أو يتجاوزون العدل في استيفاء ما لهم من حق على غيرهم فيأخذون اكثر مما يستحقون ، هؤلاء الظالمون . وقد ذمهم الله تعالى وتوعدهم بالعذاب الأليم .

اما السلوك الاخلاقي الفاضل السامي ، الذي تجاوز العدل الى الأعلى فهو سلوك اولئك الذين يصبرون ويغفرون ويعفون ويصلحون ، هؤلاء مدحهم الله ورفع شأنهم ، فاجرهم على الله ، وهو تعبير يوحي بعظيم ما يعطي الله لهؤلاء على سلوكهم هذا من الأجر والفضل ، وعملهم هذا الجليل الكريم « لمن عزم الأمور » .

* *

هذا الذي قلناه عن العدل ، وانه من المباحات انما هو حين تكون انت أحد الطرفين في مسألة العدل : بان تكون صاحب الحق أو يكون عليك الحق . فسلوكك يتراوح بين هذه المواقف الثلاثة : أن تكون عادلاً فيكون موقفك من العدل المباح الذي لا مدح فيه ولا ذم ، او تكون ظالماً فيكون موقفك من الظلم المذموم المعاقب عليه . او تكون فاضلاً اخلاقياً فيكون موقفك من مواقف الأخلاق التي تستحق عليها المدح والأجر من الله تعالى .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ – ٤٣ .

وأما حين تكون طرفاً ثالثاً في مسألة العدل ، حين تكون حكماً بين طرفين فليس أمامك ثلاثة مواقف : العدل ، أو الظلم ، أو الفضل ، وانما أمامك موقفان فقط : العدل والظلم ، والانحراف عن العدل في هذه الحالة لا يعني إلا شيئاً واحداً وهو انك أعطيت الحق أو بعضه لغير صاحبه . وهذا هو الظلم بعينه . وهو من أعظم المحرمات عند الله تعالى .

إذن ، العدل المباح هو حين تكون انت صاحب الحق وتريد أن تأخذه أو عليك الحق وتريد ان تعطيه ، وأما حين تكون حكماً بين اثنين فالعدل واجب لا محيد عنه ، وأي تعد عنه حرام وإجرام .

* *

فاذا تجاوزنا هذه الدائرة (دائرة المباحات) ندخل حينئذ في الدائرة الاخلاقية ، في دائرة المواقف الفاضلة الطوعية التي تتسم بالعطاء المجاني ، انها دائرة المستحبات والمكروهات .

والمستحب هو الموقف الذي لا يبلغ درجة أن يكون واجباً ، ولكنه يبلغ درجة من الفضل انه يحسن فعله .

والمكروه هو الفعل الذي لا يبلغ درجة ان يكون محرماً ، ولكنه يبلغ درجة من السوء أنه يحسن تركه .

— ١ —

مثلاً : القصاص للمجني عليه ، ورد العدوان للمعتدى عليه حق تضمنه الشريعة ، وتوفر وسائل تنفيذه .

ولكن ثمة موقفاً من الجاني أعلى درجة من اجراء العدالة ، وهو موقف العفو ، فالقصاص والعقوبة يمثلان موقفاً عادلاً ، ولكن العفو يمثل موقفاً اخلاقياً .

« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » [١] .

« .. انما يتذكر اولوا الألباب ... ويدرؤون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار » [٢] .

– ٢ –

ومثلاً : في المعاملات المالية ، الزكاة والخمس واجبان في المال اذا بلغ حداً معيناً في انواع من الطعام وفي النقود ، أو فضل منه شيء زاد على مؤونة السنة لمالك المال ومن يعوله وغير ذلك من الموارد المفصلة في كتب الفقه . فاذا ثبت في المال حق زكاة او خمس وجب دفعه الى مستحقه ، ولا عذر المكلف في مخالفة هذا التكليف .

ولكن ثمة موقفاً من المال ومن المجتمع اعلى درجة واسمى من الاقتصار على دفع الواجب الشرعي ، وهو اعطاء ما زاد على الحق الشرعي من المال .

« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ... وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ... » [٣] .

– ٣ –

ومثلاً : في المعاملات المالية ايضاً الدين . يمكن أن يتخذ الدائن من

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٦ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٩ ، ٢٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

المدين أحد مواقف ثلاثة : موقف العدل وموقف الظلم ، وموقف الفضل . والأول لا مدح فيه ولا ذم كما ذكرنا سابقاً ، للدائـن ان يطلب حقه وعلى المدين ان يؤدي مع القـدرة ، وعلى الدائن أن يُنظِر ويصبر مع إعسار المدين . والثاني ظلم كبير ، إنه الربا ، وقد نهى الله عنه ، وهدد من يعود الى ممارسته بالنار ، وبحرب الله ورسـوله ، والثـالث هو الأخلاق ، وهو موقف الفضل ، انه اعفاء المدين مما عليه من الحق ، والتصدق عليه .

« ... وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله مـا سلف ، وأمره الى الله ، ومن عـاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم ... يا ايهـا الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنـين . فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلـكم رؤوس اموالـكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لـكم ان كنتم تعلمون »[1] .

ونلاحظ ان الله تعـالى في الآية (٢٧٦) : « يمحـق الله الربا ، ويربي الصدقات » ذم الربا ، ومدح الصدقة كما مدحها في الآية الأخيرة ، « وان تصدقوا خير لـكم » وسكت عن موقف العدل فلم يمدحه ولم يذمه ، وهذا شاهد آخر يضاف إلى ما قلناه سابقاً عن موقف العدل بين من له الحق ومن عليه الحق .

- ٤ -

ومثلاً من حق ذوي الاعذار الا يشتركوا في الحرب ، لان الله اعفاهم من ذلك ، فقال تعالى في شأن اعفاء هؤلاء :

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٨ - ٢٨٠ .

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الاعرج حرج ، ولا على المريض حرج » [1] .

ليس على الضعفـــاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ... » [2]

هذا ، ولكن ثمة موقفاً اعلى من الانتفاع بالرخصة ، وهو الاشتراك في الحرب ، وتحمل اذاها على الرغم من انه لا وجوب يلزمهم بذلك ، فيكون موقفهم تطوعياً محضاً :

ولعل من الشواهد البارزة في هذا الشأن موقف عمرو بن الجموح في معركة أحد . ذكر ابن هشام في السيرة النبوية .

« ان عمرو بن الجموح كان رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الاسد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه ، وقالوا له : ان الله عز وجل قد عذرك ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فوالله إني لارجو ان أطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم الا تمنعوه ، لعل الله ان يرزقه الشهادة ، فخرج معه ، فقتل يوم احد » [3] .

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٩١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٠ – ٩١ .

ومثلاً : من واجب المسلم أن يغيث من أشرف على الهلاك والتلف ، فيبادر إلى انقاذه ، وهو مسؤول عن ذلك . وثمة موقف أعلى من هذا وهو أن يسعى في حاجة كل محتاج فيقضيها ، فيكون غوثاً وعوناً لكل ذي حاجة من الناس .

فما روي عن رسول الله ﷺ في شأن تعاون المؤمنين فيما بينهم .

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ومن الأمثال التي رويت عن رسول الله ﷺ في هذا الشأن :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم امسكه بفيه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : نعم ، في كل ذات كبد رطبة أجر » .

- ٦ -

ومثلاً : للانسان ان يتجر ، وان يربح ، وهذا حقه .

ولكن ثمة موقفاً من الكسب والربح أعلى من هذا الموقف ، وهو أن يسهل على الناس فيقنع بالربح القليل ، ويبيع باول ربح يحصل عليه .

روي عن الامام علي عليه السلام انه قال لرجل يوصيه ومعه سلعة يبيعها :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول السماح وجه من الرباح »[1].

وكان علي عليه السلام يوجه التجار بقوله : « تبركوا بالسهولة »[2] .

وروي عن رسول الله ﷺ انه قال :-

« ان الله تبارك وتعالى يحب العبد يكون سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل القضاء ، سهل الاقتضاء »[3] .

ومثلا : من المحرمات أن يبدأ الانسان انساناً آخر بالاساءة والعدوان . وهذا من الأمور المعلومة من الشريعة الغراء .

وأعظم حرمة من ذلك مقابلة الاحسان بالاساءة والظلم ، ان العدل يقضي بان يقابل الاحسان بالاحسان :

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان »[4] .

وأعلى من ذلك شأناً أن تقابل الحسنة باحسن منها :

« واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها »[5] .

أما مقابلة السيئة بالسيئة فهو العدل الذي تحدثنا عنه آنفاً .

---

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي : وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة — المطبعة الاسلامية — طهران — ١٣٨٢ هـ ج ١٢ كتاب التجارة — الباب ٤ الحديث ٤ ص ٢٨٨ .

(٢) المصدر السابق — كتاب التجارة — الباب ٢ الحديث ١ — ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

(٣) المصدر السابق — كتاب التجارة — الباب ٤٢ — الحديث ٢ — ص ٣٣٢ .

(٤) سورة الرحمان ، الآية : ٦٠

(٥) سورة النساء ، الآية : ٨٦ .

« وجزاء سيئة سيئة مثلها »[1] .

واعلى من هذا الموقف واكمل هو العفو عن السيئة ومقابلتها بالغفران :

« فمن عفا واصلح فاجره على الله »[2] .

— ٨ —

ومثلاً : فرض الله تعالى على الانسان عبادات معينة لهـا مقاديرها ، وحدودها ، واوقاتها ولم يلزمه بما زاد على ذلك ، ولكن ثمة موقفاً من عبادة الله تعالى اعلى من الاقتصار على ما اوجب من عبادتـه ، وهو أن يأتي بالنوافل وان يتطوع .

مما يروى في هذا الشأن ان زينباً بنت علي بن ابي طالب لما نظرت الى ما يفعله ابن أخيهـا علي بن الحسين (زين العـابدين) بنفسه من الدأب في العبادة اتت جابر بن عبدالله الانصاري فقالت له : يا صاحب رسول الله ﷺ ان لنا عليكم حقوقاً ، ومن حقنا عليـكم اذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهاداً ان تذكروه الله ، وتدعوه الى البقيـا على نفسه ، وهـذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين ، قد انخرم انفـه ، وثفنت جبهته وركبتاه وراحتاه ... فأتى جابر فكلم الامام زين العابدين في هذا الشأن ، فقال له زين العابدين عليه السلام :

« يا صاحب رسول الله اما علمت ان جدي رسول ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلم يدع الاجتهاد له ، وتعبد ، بأبي هو وامي ، حتى انتفخ الساق وورم القدم ،

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠ .

وقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك مـــا تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا اكون عبداً شكوراً » .

وما أكثر الأمثلة في شريعة الاسلام واخلاق الاسلام .

* *

وبعد ، فان الأخلاق الاسلامية ليست محصورة على مجال معين من مجالات الانسان ، بل هي شاملة لكل مجال ، فما يكاد يوجد مورد من الموارد واجه المسلم فيه الزام إلهي يحفظ مصلحة الفرد ، أو المجتمع ، أو النوع الانساني إلا ونجد أن ثمة ، في مجال ذلك الالزام ، دعوةً اخرى إلى مثل أعلى وموقف اكمل وأسمى يدعو المسلم إلى أن يتسامى في سلوكه الى درجة البذل المجاني والعطاء السمح . نجد ذلك في مجالات الاسرة ، والمجتمع ، وفي الحرب والسلم ، في الحكم على النـــاس وعلى الآخرين ، في القصاص والجنايات ... في كل ذلك وغيره رفع الاسلام للانسان مثلاً اعلى من التكليف ودعاه إلى التسامي نحوه في كل مجال .

هذه الاخلاق التي يمارسها المسلم عن طواعية وحب يتجاوز بهـا حدود التشريع الملزم إلى مـا هو أعلى من هذا التشريع في مواقف تجعله يمارس حياته بروحية الانسان المعطي ، لا بروحية المكلف الخاضع .

* *

وهذه الاخلاق لا تطلب من الانسان أن يكره نفسه على ما لا تطيق ، لأن الأخلاق التي يدعى الانسان إلى ممارستها لا بد ان تكون في حدود مـا يطيق في نفسه وجسده ، وإلا أدت بالانسان الى نكسة مروعة .

ان الوظيفة التي تؤديها الاخلاق عند الانسان هي انها مثل رفيعة تهيب به أن يرتفع دائماً الى اعلى ... ان يتسامى عن منطق الواقع والضرورة ، وان ينشد الرفعة والسمو . وتثير فيه روح التحدي ، حيث تقتضيه بذل جهد اضافي لتحقق لنفسه كمالاً جديداً .

واذن ، فلكي تؤدي الأخلاق وظيفتها هذه لا بد أن تكون منسجمة مع الواقع الانساني ، ولا بد أن يراعى فيها أنها صيغت ليمارسها انسان من هذا العالم ، لا كائن من عالم آخر .

وقد راعى الاسلام هذه الحقيقة أتم مراعاة ، فانه فيما يرسم للانسان المثل العليا ، ويهيب به أن يتسامى نحوها ، لم يغفل واقع هذا الانسان : واقع نفسه وجسده ، ولذلك فقد راعى الاسلام ان تكون المثل العليا بحيث يتمكن الانسان من تحقيقها في حياته اذا أراد ذلك ، دون ان يكون ثمة تناف بين ذلك وبين سعادته الدنيوية .

ولو ان الله تعالى جعل الاخلاق في الاسلام مثلاً عسيرة المنال إلاّ على الفذ النادر من الناس لكان في ذلك تنكر لواقع الطبيعة الانسانية ، ولكانت هذه المثل العليا العسيرة المنال سبباً لقذف الانسان في وهدة اليأس من القدرة على السمو ، ومن ثم ترك محاولة ذلك ، وسبباً في احداث مضاعفات خطيرة في الشخصية الانسانية ناشئة عن الشعور بالاثم للعجز عن تحقيق ما تدعو الشريعة اليه ، بدل ان يكون حافزاً دائماً على بلوغ ذرى جديدة .

وانطلاقاً من هذه النظرة نلاحظ انه لا يوجد في الاسلام أي تعارض بين بلوغ اقصى مراتب الكمال وبين أن يكون الانسان ذا مواقف ايجابية فعالة في الشؤون الدنيوية ما دام يمارس حياته وفقاً للشريعة بصورة صحيحة .

قال تعالى :

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل انما حرم ربي الفواحش ما

ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وان تقولوا على الله ما لا تعلمون»[1]

وقال تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض، ان الله لا يحب المفسدين [2] »

— هـ — المسلم في الأخلاق

ذات فاعلة لا موضوع

التكليف ارادة يفرضها الشارع على الانسان ، فتكون الذات موضوعاً للتكليف ، وتطلب منها الطاعة ، ولا تملك الذات — في مجال التكليف — ان تكون مستقيمة صالحة وأن ترفض الامتثال مع ذلك وان الرفض — في مجال التكليف — يعني الانحراف ، وموقف الرفض هو موقف المعصية ، لا معنى مع الانحراف والمعصية لكون الانسان مستقيماً .

إن التعبير القرآني في مجال التكليف هو « فَرَضَ » « كَتَبَ » «حرّم» « نهى » وما إلى ذلك .

في مجـــال التكليف « سلطة » من خارج الذات تمارس « سيادتها » على الذات ، والذات « موضوع » لهذه الممارسة .

---

(١) سورة الاعراف ، الاية : ٣١ — ٣٣ .

(٢) سورة القصص ، الاية : ٧٧ .

ولا نتصور في باب النظام الاجتماعي ، أي نظام اجتماعي كان ، غير هذه الصورة للتكليف .

ان مجرد اعطاء حرية الاختيار في باب التكليف ، مع الاعتراف من المصدر التشريعي « بحق » الاختيار ، الحق الذي يعني ان « المكلف» مستقيم حق في حالة الرفض — ان هذا يعني إلغاء النظام ، والقذف بالإنسان والمجتمع الى الفوضى .

إن التكليف لا يلغي حرية الاختيار الأساسية ولكنه لا يساوي بين المطيع والعاصي ، وذلك بأنه لا بد أن يحمل عقوبة ما أو حرماناً ما أثراً لرفض امتثال التكليف .

قال تعالى :

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة [1] ».

« قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور [2] » .

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة [3] » .

من هنا يتضمن التكليف عنصرَ إرغامٍ معنوي يدفع بالانسان إلى اتخاذ موقف إيجابي من طاعة التكليف وامتثاله .

---

(١) سورة النساء ، الاية : ٩٥ .

(٢) سورة الرعد ، الاية : ١٦ .

(٣) سورة فصلت ، الاية : ٣٤ .

هذا في نطاق التكليف .

أما في نطاق الاخلاق فالأمر يختلف تماماً .

إن الإنسان المسلم في مجال الأخلاق ليس موضوعاً خاضعاً لارادة ، وإنما هو ذات فاعلة مختارة تتمتع بحرية اختيارٍ خاليةٍ من أي ضغط معنوي أو خارجي .

إن السلوك الاخلاقي في الاسلام ينبع من الذات ولا يفرض من خارجها ، لأنه يتم نتيجة لوعي الذات المسلمة مستويات الانسانية العالية التي يمكن بلوغها نتيجة لتجاوز الذات نحو الله ونحو الآخرين بالبذل والعطاء المجاني .

وقد تقدم آنفاً شاهد على هذا الوعي فيما رواه الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله حين كلمه بعض أصحابه في شأن استغراقه في العبادة حتى انتفخ الساق وورم القدم ، وقيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

ان الاخلاق الاسلامية – كما ذكرنا – تنبع من ادراك العقل لمبدأ التحسين والتقبيح الذاتيين في المواقف والأشياء ، ونتيجة لهذا الادراك تستجيب الذات الانسانية لما يحقق لها التسامي ، وذلك بالسلوك الاخلاقي الذي هو أعلى من التكليف الشرعي .

وبذلك تكون الأخلاق الاسلامية بعيدة عن الغيبيات .

انها ليست وصايا حتمية مفروضة من خارج ، على الانسان ان يتمثلها دون ان يفهمها ويعيها . وانما هي امور تدخل في نطاق ادراك العقل ووعيه ، ويمارسها الانسان الفاضل بما هو واع لها ومدرك لحسنها أو قبحها الذاتيين .

وما ورد من وصايا في شأن الأخلاق في الكتاب والسنة لا يدخل في باب

الأمر والنهي اللذين يردان في شأن التكليف ، لتكون الأخلاق جزءاً من التكليف الالزامي ، وانما يدخل غالب هذه الوصايا الاخلاقية في باب الارشاد والتوجيه والتذكير ليس إلا [1] .

---

(١) من جملة التقسيمات التي ذكرها علماء اصول الفقه الامر والنهي الشرعيين تقسيمهما الى : المولوي ، والارشادي :

أ - الأمر او النهي (المولوي) نسبة الى المولى = الله تعالى .

ان هذه الاوامر والنواهي شرعها الله تعالى بما هو مولى يطاع .

ولذلك فالامر المولوي يقتضي بنفسه بعث المكلف نحو الفعل سواء علم المكلف بالمصلحة الموجودة في الفعل المأمور به ام لا .

والنهي المولوي يقتضي بنفسه زجر المكلف عن الفعل سواء علم المكلف بالمفسدة الموجودة في الفعل المنهي عنه ام لا .

ان الامر المولوى هو الامر الحقيقي الباعث بنفسه نحو الامتثال بفعل المأمور به ، والنهي المولوي هو النهي الحقيقي الباعث بنفسه نحو الامتثال بترك المنهي عنه .

والمكلف في هذين الموردين « موضوع » لتكليف ولتلقي ارادة الله سبحانه وتعالى ، ولا خيار له في ان يفعل أو يترك مع احتفاظه بصفة الاستقامة ، اذا اراد ان يكون مستقيماً فعليه ان يمتثل .

والاصل في الاوامر والنواهي انها مولوية ، اصدرها المولى سبحانه وتعالى لتطاع بنحو الوجوب في الأمر وبنحو التحريم في النهي ، إلا أن تقوم قرينة تدل على صرف الدلالة على الوجوب المولوي او التحريم المولوي الى الارشاد .

٢ - الامر او النهي الارشادي :

لا يتضمن الامر الارشادي بعثاً نحو الفعل ، كما لا يتضمن النهي زجراً عن الفعل ، ولذا فهما صوريان : امر صوري ، ونهي صوري . وقد وردت الاوامر والنواهي الارشادية في النصوص الشرعية على اقسام ، منها اكثر الاوامر والنواهي الواردة في باب المستحبات الاخلاقية. وحقيقة هذا القسم هي : اخبار بوجود مصلحة في الفعل في مورد الأمر ، ووجود مفسدة في الفعل في مورد النهي ، فكأن المولى سبحانه (في موضوع بحثنا : الاخلاق الاسلامية) اخبر

وقد اشتمل كتاب الله تعـــالى على الكثير الطيّب من هــذه الأوامر والنواهي في باب الأخلاق ، وكذلك السنة الشريفــة اشتملت على الكثير الطيب في هذا الباب .

وقد بث الله تعالى هذه الارشادات والتوجيهات في ثنــايا كتابه العزيز . فيجدها الانسان ترد خــلال التشريع ، والقصص ، والعقائد وغير ذلــك من مقاصد الكتاب العزيز ، وذلك لتجد سبيلها الى قلب المسلم وعقله حينما نظر أو تلا في كتاب الله ، وليرتبط التشريع بالاخـــلاق فيكون المسلم انساناً اخلاقياً في جميع شؤونه وحالاته .

وفيما يلي نماذج قرآنية لهذه التوجيهات الارشادية في باب الاخلاق :

قال الله تعالى :

« ويدرؤون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار [1] » .

« ادفع بالتي هي احسن السيئة [2] » .

عن وجود مصلحة في فعل كذا بصيغة الأمر ليرغب الانسان بممارسة ذلك الفعل ، وعبر عـن وجود مفسدة في فعل كذا بصيغة النهي ليرغب الانسان في ترك ذلك الفعل .

ان ممارسة الفعل والترك في موارد الارشاد تتم نتيجة لمعرفة المكلف للمصلحة في مورد الامر ، والمفسدة في مورد النهي ، فالمكلف يتصرف وفقا لوعيــه ، لحسن الفعل الذي يمارسه وقبـح الفعل الذي يتجنبه ، وذلك نتيجة ما قلناه من ان الأخلاق الاسلامية مرتبطـة ارتباطاً وثيقاً بمبدأ التحسين والتقبيح العقليين .

وهذا بخلاف موارد المولوية ، فان على المكلف ان يمتثل وان لم يدرك شيئاً من المصلحـــة او المفسدة في المأمور به والمنهي عنه . انه في الخطاب المولوي « موضوع » للتكليف ، وفي الخطاب الارشادي « ذات فاعلة » .

(١) سورة الرعد ، الاية : ٢٤ ،

(٢) سورة المؤمنون ، الاية : ٩٧ .

« وعبـــاد الرحمان الذين يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً [1] » .

ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » [2] .

ـ و ـ شواهد

فاذا اردنا ان نلتمس في حياة المسلمين ـ مـع رسول الله ﷺ وبعـده شواهد على نوعية سلوكهم الاخلاقي فسنجد اننا ينبغي ان نسمي المجتمـع الاسلامي ، بـ « المجتمع الاخلاقي » ، وذلك لان فكرة تجاوز الذات عنـد المسلم من العناصر الثابتة في تفكيره العملي ، فهو يتحرى ان يحققها كلمـا امكنه ذلك .

ان التربية التي تلقاها المسلمون بالقرآن وبسلوك رسول الله ﷺ جعلت الحس الاخلاقي عندهم مرهفاً إلى أبعد مدى .

ـ ١ ـ

في مكة عند ظهور الاسلام نجد اروع امثلة تجاوز الذات .

ان الرجال الذين ينتمون الى ارفع طبقات المجتمع المكي والذين اعتنقوا الاسلام حققوا بسلوكهم العملي المساواة التامة مع اخوانهم المسلمين من أدنى مستويات المجتمع المكي ؛ العبيد والمستضعفين الفقراء . ولم تكن هذه المساواة

---

(٣) سورة الفرقان ، الاية ٦٣ .

(٤) سورة فصلت ، الاية : ٣٤ ـ ٣٥ .

شعاراً خالياً من المضمون ، كلا ، لقد مارسوها في الحياة العامة في مجتمع يمارس التمييز الطبقي الصارم على اساس النسب والمال .

وان هؤلاء المسلمين الفقراء صمدوا لأقسى انواع التعذيب الجسدي والنفسي ، ولم يتمكن سادة المجتمع المكي من التأثير في تماسكهم ، وفي صلابتهم وفي ثباتهم على عقيدتهم ، في وقت لم يكن لهؤلاء المسلمين الضعفاء أي بارقة أمل ـ خارج ايمانهم ـ بانه سيُفرج عنهم .

وطيلة العهد المكي لم يستطع الملأ من قريش أن يحققوا ـ بما لديهم من اغراء المال وقوة السلطان ـ انتصاراً واحداً ولو في مسلم واحد يحولونه عن الاسلام ، او يجعلونه عميلاً لهم . الشيء الوحيد الذي استطاعوه هو انهم عندما تصاعدت موجة الاضطهاد ، جعلوا النبي ﷺ يتخذ قراراً بالهجرة الى الحبشة .

وما اكثر ما تقدم لنا السيرة في العهد المكي من قصص تصور نماذج من أرفع أمثلة تجاوز الذات نحو الآخرين ، ومن بينها سلوك عثمان بن مضعون الذي رفض أن يستمر في التمتع بامتياز يجنّبه طغيان قريش واضطهادها بينما لا يتمتع اخوانه بالحماية التي يتمتع بها .

فعندما عاد بعض المسلمين من الحبشة نتيجة لاشاعة سمعوها هناك : أن قريشاً قد أسلمت ، واكتشفوا حين وصلوا إلى مكة حقيقة الأمر وان قريشاً لا تزال على شركها ، وعلى سياسة الاضطهاد التي عهدوها منها ـ عندما حدث هذا ، فدخل بعضهم مكة مستخفياً عن أعين المشركين ، ودخل بعضهم في جوار بعض ذوي السلطان من المشركين ، وممن دخل من المسلمين بجوار عثمان بن مضعون ، فقد استجار بالوليد بن المغيرة ، ولكن :

« لما رأى عثمان بن مضعون ما فيه اصحاب رسول الله ﷺ من البلاء ، وهو يغدو ويروح في امان من الوليد بن المغيرة ،

قال : والله ان غدوي ورواحي آمنـا بجوار رجل من اهل الشرك ، واصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي . فمشى الى الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابا عبد شمس ، وفت ذمتك ، فقـد رددت اليك جوارك ، فقال له : لم يا ابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكني أرضى بجوار الله ، ولا أريـــد ان استجير بغيره ، قال : فانطلق الى المسجد ، فأردد عليّ جواري علانية كما اجرتك علانية . قال فانطلقا فخرجا حتى آتيا المسجـد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد على جواري ، قـــال : صدق ، قد وجدته وفياً كريم الجوار ، ولكني قـد احببت الا استجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره » .

« ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة ... في مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

« قال عثمان : صدقت ، قال لبيد :

« وكل نعيم لا محالة زائل » .

« قال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول

« قال لبيد بن ربيعة : يا معشر قريش، والله ما كان يؤذي جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟ فقال رجل من القوم : ان هذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله ، فرد عليه عثمان حتى شري (زاد وعظم) أمرهما ، فقـــام اليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ، والوليد بن

المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال . أما والله يابن اخي إن كانت عينك عما اصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة . قال : يقول عثمان : بل والله ان عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما اصاب اختها في الله ، واني لفي جوار من هو أعز منك واقدر يا ابا عبد شمس ، فقال له الوليد : هلم يا ابن اخي إن شئت فعد الى جوارك ، فقال : لا [1] .

فاذا تجاوزنا العهد المكي الى العهد المدني فسنجد الأمثلة الرائعة على السلوك الاخلاقي العالي لدى المجتمع الاسلامي ، والأمثلة هنا ـ كما في العهد المكي ـ ليست لسلوك افراد فقط ، وانما لسلوك المجتمع كله ايضاً .

لقد استقبل المسلمون في المدينة (الأنصار) اخوانهم مسلمي مكة وغيرها (المهاجرين) في بيوتهم ، وقاسموهم اموالهم ومنازلهم ، وبذلك تمت اعظم عملية دمج اجتماعي الى ذلك الحين بمقاييس اخلاقية لم تحدث خارج نطاق ثقافة الاسلام وحضارة الاسلام أبداً .

ومن مجموعات قبلية لا تعقل شيئاً من فكرة المجتمع والدولة تكون المجتمع الإسلامي الأول ، المجتمع المتكافل المتضامن ، ونمت فكرة المجتمع العقائدي الذي أغفلت فيه العلاقات الدموية ، والانتماءات العنصرية ، واستطاع النبي ﷺ بادنى قدر من الزجر والقوة ان يكوّن الدولة والمجتمع ، وغدا هؤلاء الأفراد القبليون يفكرون في الأمة والدولة والمجتمع ، ويتجاوزون تركيبهم القبلي في تصرفاتهم .

ومن الطبيعي ان عقلية القبيلة كانت تطغى في بعض الأحيان فتعبر عن نفسها في تصرف بعض الأفراد او الجماعات ، ولكنها سرعان ما كانت تنحسر لتخلي مكانها لفكرة الأمة والمجتمع العقائدي .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٤ – ٣٧١ .

ومن الأمثلة البارزة في السيرة على تفوق فكرة المجتمع والامة ما حدث في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة حين تنازع أجير لعمر بن الخطاب مع حليف لبني عوف بن الخزرج من الأنصار ، وبلغ رسول الله ﷺ ما حدث فقال (دعوها فانها منتنة) يعني انها كلمة خبيثة ، لأنها من دعوى الجاهلية . وأراد المنافق عبدالله بن ابي سلول ، وكان في قومه شريفاً عظيماً ، أن يستغل هذا الحادث لاثارة العصبية القبلية ، فتكلم في هذا الشأن مع بعض قومه ، ولكن روح الاسلام وحلم رسول الله ﷺ وحسن سياسته ، جعلت الأنصار يتجاوزون الدعوة الشريرة التي اطلقها ابن ابي سلول ، حتى ان ابنه عبدالله ــ وكان مؤمناً صادقاً ــ عرض على رسول الله أن يأذن له بقتل ابيه ، فقال له رسول الله ﷺ :

« بل نرفق به ، ونحسن صحبته ما بقي معنا . وجعل بعد ذلك اذا احدث (ابن سلول) الحدث ، كان قومه هم الذين يعاقبونه ويأخذونه ، ويعنفونه ويتوعدونه » [1] .

ولا شك في ان سلوك رسول الله ﷺ كان هو النموذج الأعلى والأكمل ، الذي كان يرسم للمسلمين طريقهم في سلوكهم الأخلاقي .

- ٣ -

فاذا تجاوزنا عهد النبوة الكريم المبارك تكشف لنا تاريخ المسلمين في كل مكان عن اخلاقية عالية تطبع سلوك الأفراد والجماعات والمجتمع .

ويكفي أن نذكر هنا ظاهرة الثورية في سلوك المجتمع الاسلامي .

---

(١) محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢ ج ٢ ص ٦٠٥ - ٦٠٩ ،

ان الثورة في حد ذاتها ظاهرة اخلاقية عالية المستوى ، لانها تعبير عن التوق إلى الأفضل والأكمل ، واحتجاج على الواقع الفاسد ، وادانة له ، ولأنها تعني تخلي الثائرين عن حياة سهلة في سبيل اتاحة الفرصة امام مجموع الناس للحصول على حياة أفضل . ان الثورة عطاء .

وسنجد ان المسلمين منذ تعلموا من أم الثورات في الإسلام، ثورة الحسين بن علي عليهما السلام ، لم ينفكوا ثائرين على جميع ألوان الطغيان والانحراف التي مارسها الحاكمون على مدى التاريخ .

واذا درسنا علاقات الثائرين في داخل ثورة الحسين (ع) لرأينا كيف ان كل واحد منهم كان يتجاوز ذاته نحو الآخرين ونحو الأمة كلها في عملية عطاء سخي مجاني لا يريد عوضاً إلا من الله .

من نماذج طبيعة العلاقات بين الثائرين في هذه الثورة العظيمة ان الحسين عرض على أصحابه أن يتخلصوا من القتل بان يتركوه ، لان السلطة لا تريده غيره ...

« ... الا واني أظن أن يومنا من هؤلاء الاعداء غداً ، واني قد اذنت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حل ، ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من اهل بيتي ، فجزاكم الله جميعاً خيراً ، وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، فان القوم انما يطلبوني ، ولو اصابوني لذهلوا عن طلب غيري » .

لقد أجابه زملاؤه الثائرون باجوبة رافضة مصممة على الاستمرار في الثورة حتى الموت ، تعطي صوراً رائعة من التصميم على الثبات في سبيل الحق . وخلاصتها :

« والله لا نفارقك ، ولكن انفسنا لك الفـــداء نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا ، فاذا نحن قتلنا كنا وفينا ، وقضينا ما علينا »[1] .

– ٤ –

وفي التشريع نجد ان الشريعة الإسلامية اتسعت لتشمل نظاماً خاصاً لنوع من الممارسة الاخلاقية ذات الطابع المالي ، وهو نظام الوقف .

ان الوقف عملية عطاء يقوم بها المسلم يريد بها وجه الله تعالى وتستمر اثارها الخيرة فيمن وقف عليهم : ذرية ، او فقراء ، أو طلبة علم ، أو أساتذة تعليم ، او مواد تعليمية (كتب وغيرها) ، او مسافرون او غير هؤلاء من كل ما قد يخطر في البال انه يكون مورداً للبر والإحسان ، من الناس والحيوان .

وقد انتشرت ظاهرة الوقف في جميع ارجاء العالم الاسلامي انتشاراً عجيباً ورائعاً ، وشملت الأراضي الزراعية ، والبساتين ، ومصادر المياه ، والحيوانات ، والكتب ، والمدارس ، والمنـــازل ، والثياب ، والآلات ، والخانات (فنادق ينزل بها المسافرون) ، والمستشفيات .

وقد وردت عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت نصوص كثيرة في شأن الوقف منها ما يحث عليه ، ويرغب فيه ، ومنها ما ينظمه من الناحية التشريعية .

فما روي عن النبي ﷺ في الحث على الوقف والترغيب فيه :

---

(١) تاريخ الطبري ٣١٧/٤ – ٣١٨ ، وللتوسع راجع للمؤلف « ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية واثارها الانسانية » ففيه دراسة شاملة لهذه الثورة وبعض الثورات التي نتجت عنها .

« إذا مات الانسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له[1] ».

ومما روي عن الامام أبي عبدالله الصادق في هذا الشأن :

« ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته ، وسنة هدى سنها فهي يعمل بها بعد موته ، أو ولد صالح يدعو له[2] » .

والآثار الواردة في هذا الشأن كثيرة ، وهي التي أطلقت في المسلمين هذه الحوافز من الخير فحولتها الى أعمال كبيرة في مجالات البر ، والتعليم ، والصحة العامة ، وسائر الخدمات ، وذلك منذ عهد رسول الله ﷺ الذي كان أول مسلم مارس الوقف وإلى زماننا هذا مروراً بجميع العصور الإسلامية في جميع أوطان المسلمين .

إن الواقف يقطع صلته بماله الموقوف في حياته ، فلا يعود ملكاً له ، بل يتخصص في جهة الخير التي وقف عليها ، ولا يمكن تحويله عنها ، كما لا يمكن أن يعود إلى ملك الواقف .

في الوقف تجاوز الذات وتعال على نوازعها بفك علاقة الملكية بين الواقف والموقوف فكاً أبدياً غير قابل للتغيير أبداً . وتجاوز للذات نحو جماعات من الناس إن كان يعرف المعاصرين له منهم ، أو بعضهم ، فهو لا يعرف الأجيال التي ستأتي من بعده من الناس وتنتفع بهذا المال الذي غدا مالاً عاماً بالوقف .

إن الهدية ، والصدقة الخاصة فيها فك لعلاقة الملكية بين المهدي أو

(١) صحيح مسلم ٥/٧٣ .

(٢) وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة ١٣/٢٩٢ .

المتصدق وبين عين الهـــدية او الصدقة ، ولكنها – اولا : مهما عظمتا – محدودتا القيمة ، وثانياً تنتقلان من كونها ملكاً شخصياً للمُهدي أو المتصدّق تنحصر دائرة نفعه بمالكه ، الى كونها ملكاً شخصياً للمهدَى اليه والمتصدّق عليه تنحصر دائرة نفعه بمالكه .

إن المعنى العميق للوقف يتجاوز فك الملك ، انـه طريقة لتحويل الثروة الشخصية التي لو لم توقف لبقيت جيلاً بعد جيل ثروة شخصية ينتفع بها فرد أو أفراد انتفاعاً شخصياً محدود الدائرة – إن الوقف يعني تحويل هذه الثروة الشخصية الى ثروة عامة للأمة كلها ، تتسع دائرة المنتفعين بهـــا باستمرار ، وتخرج عن نطاق الاملاك الشخصية الى الأبد .

إننا نكوّن فكرة ما عن عظمة الأثر الذي تركه نظام الوقف في الحياة الإسلامية حين نلاحظ انه مـــا كان من الممكن أن يحرز التعليم والتربية في العالم الإسلامي التقدم المذهل والانتشار الواسع النطاق لولا مـــا أثمره هذا الروح الاخلاقي الذي أطلقه نظـام الأوقاف فجعل عـدداً كبيراً من موسري المسلمين وفقرائهم في كل جيـــل يساهم – عن طريق الوقف في تمويل عملية التربية والتعليم على جميع المستويات .

وحين نلاحظ أن حركة بنـاء المستشفيات والإنفاق عليها كانت تقوم الى حدّ كبير على موارد الأوقاف .

وحين نلاحظ أن حركة السياحة والسفر بين أقطـــار العالم الإسلامي حصلت على تسهيلات عظيمة القيمة في العصور الماضية متمثلة في الفنادق التي كانت توقف على المسافرين ، وتجهز بمـــا يتاح من وسائل الراحة ، ومتمثلة في آبار المياه والبرك التي كانت تشيّد على طول الطرق الكبرى التي تربط بين أجزاء العالم الإسلامي .

وإننا لفي أمسّ الحاجة الى دراسة واسعة معمقة لأثر نظـــام الوقف في الحضارة الإسلامية على كل صعيد .

— ز —

وصايا

وبعد ، فإن الأخلاق الاسلامية ليست مقصورة على مجال معين من مجالات الحياة ، بل هي شاملة لكل مجال ، فما يكاد يوجد مورد من الموارد واجــه المسلم فيــه إلزام إلهي يحفظ مصلحة الفرد أو المجتمع أو النوع الانساني إلا ونجد في المجال نفسه ان الله تعـــالى قد رفع أمام المسلم مثلاً أعلى من الالزام يدعوه فيه الى التسامي الى درجة أعلى من التـكليف الشرعي .

نجد ذلك في مجالات الأسرة والمجتمع ، في الحرب والسلم ، في الحـكم على النفس وعلى الآخرين ، في القصاص والجنايات ... في كل ذاك وغيره لوح الاسلام للمسلم بمثل أعلى ، وحثه على التسامي نحوه .

* *

ولنتابع الآن — في نهـاية هذا الحديث — القرآن الكريم في عرضه لبعض ما حفل به من الدعوة الى المثل العليا النبيلة ، التي أدّب الله تعالى بها المؤمنين فبلغوا بتمسكهم بها ، وحفاظهم عليها أقصى الغايات وأرفعها في النبل والسمو .

قال الله تعالى :

« ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً ، ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك ، واغضض من

صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير [1] » .

* *

« يا أيها الذين آمنوا : لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم [2] » .

* *

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا إياه وبالوالدين إحساناً . إما يبلغَنّ عندك الكِبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً [3] » .

* *

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ،

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٨ – ١٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١١ – ١٢ ،

(٣) سورة الاسراء ، الآية : ٢٣ – ٢٤ .

والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين [1] ».

* *

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبـل المشرق والمغرب، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة والموفون بعدهم اذا عاهـدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا، وأولئـك هم المتقون [2] ».

* *

« يا أيها الذين آمنوا : كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنـكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، إعدلوا هو أقرب للتقوى [3] ».

* *

« وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون [4] ».

* *

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٣٣ — ١٣٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية : ١٧٧ .

(٣) سورة المائدة، الآية : ٨ .

(٤) سورة الانعام، الآية : ١٥٢ .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا [1] » .

* *

« إنما المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون [2] » .

* *

« وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً [3] » .

* *

« واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً [4] » .

* *

« إنما يتذكر اولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق [5] » .

* *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة الاسراء ، الآية: ٧١ .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٩١ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ١٩ — ٢٠ .

« قل ان كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، واموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يـــأتي الله بأمره ، والله لا يهـــدي القوم الفاسقين [1] » .

**

ولا يتسع المقام لذكر أكثر من هذا من نماذج وصايا الله تعـــالى في مجال السلوك والأخلاق في الإسلام .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٤ .

- ٦ -

في الاجتماع

في مجتمع قبلي متناحر ، تمثل فيه كل قبيلة عالماً مغلقاً على نفسه .

وفي عـــالم قامت مجتمعاته على أنظمة تصنف النـاس في طبقات تتناسب كرامة الانسان ومنزلته فيها بمدى قربه أو بعده عن قمـــة الهرم الطبقي ، حسب المقاييس التي تتبعهـا هذه المجتمعات في التقسيم الطبقي : من الثروة ، أو النسب ، أو المجد العسكري .

وفي وجه الأديان المحرفة ، والوثنيات المفننة التي تثبّت هذا التقسيم الطبقي المنحرف .

في محيط ثقافي محلي وعـــالمي هذا حـاله أطلق الاسلام صيحته ضد هذا الضلال والامتهـان لكرامة الانسان ، وأعطى مبدأ جديداً في التفاضل بين الناس هو التقوى والعلم والخدمة العامة، فلا المال ، ولا النسب ، ولا الأمجاد العسكرية ، ولا غير ذلك مما ابتدعه الناس من مقاييس خليق بأن يهب الانسان كرامة وفضلاً يجعله ممتازاً إذا كان عاري القلب من تقوى الله والعمل الصالح .

فالانسان ، بما هو إنسان ، مخلوق كرّمه الله ورفع شأنه :

« ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا [1] » .

فالإنسان – بمعنى الانسانية فيه – مخلوق مكرّم ، وأفراد الانسان جميعاً متساوون في الكرامة الانسانية لا فضل فيهم لأحد على أحد .

أما تفاضل بعض الناس على بعض فهو – في المعتقد الاسلامي – لا ينشأ عن عوامل خارجية ومنفصلة عن الانسان ، وإنما يجب أن يكون مبدأ التفاضل نابعاً من داخل الانسان ، ان امتياز انسان ما على غيره إنما يكون بإيمانه وعمله .

قال الله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم [2] » .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات [3] » .

وقال النبي ﷺ :

« إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالاباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٧٠ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٣) سورة المجادلة ، الآية : ١١ .

وقال الإمام علي عليه السلام :

« لا ترفعوا من رفعته الدنيا ، ولا تخفضوا من رفعته التقوى [1] » .

وبهذا المبدأ الذي أعلنه الإسلام أساساً لامتياز إنسان ما فصل فصلاً حاسماً ونهائياً بين الكرامة الإنسانية وبين النظرة الطبقية القائمة على تفاوت القدرة الاقتصادية ، أو المنبت العائلي ، أو ما إلى أمثالها من أسباب ابتدعها الفكر المنحرف ، وجعلها أساساً يقوم عليه امتياز فريق من الناس على فريق .

إن الثروة وحدها ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ لا تمنح صاحبها كرامة ما لم تستخدم استخداماً يعود بالمنفعة على المجتمع ، وما لم تقترن بتقوى الله في اكتسابها ، واستخدامها ، وإنفاقها .

وكذلك الشأن في غير الثروة .

فكل المقاييس التي ابتدعها الفكر المنحرف ، وجعلها أسساً للتفاضل بين الناس لا قيمة لها في الإسلام ، إذا كان صاحبها عارياً عن التقوى .

* *

وبهذا المبدأ في التفاضل بين الناس حوّل الإسلام إمكانية الصراع والتناحر بين فئات المجتمع إلى إمكانية قيام تعاون خيّر بينها في ظل الأخوة الإسلامية التي نادى بها الإسلام ، وفي نطاق المجتمع الإسلامي الذي بناه الإسلام .

لقد نادى الاسلام بأن المسلمين أخوة ، تجمع بينهم أخوة العقيدة ، ووحدة الهدف ، ووحدة المصير .

---

(١) نهج البلاغة ، رقم الخطبة : ١٨٩ .

« إنما المؤمنون اخوة [1] » .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً [2] » .

هؤلاء الأخوة تقوم العلاقات بينهم على أساس من الحب والنصيحة ، والشعور بالمسؤولية ، والتعاون على ما فيه رضا الله سبحانه وتعالى ، وتوطيد منهاجه في الأرض ، واعلاء كلمته ، وصلاح الانسانية بجميع فئاتها :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب [3] » .

* *

هذا في النظرية .

فإذا انتقلنا الى التطبيق ، ورجعنا الى الواقع التاريخي فسنجد أن المسلمين كانوا في حياتهم الاجتماعية مثالاً حياً لهذه النظرية حينما كان الإسلام قوة حية فاعلة في قلوبهم وعقولهم ، يستلهمونه في صياغة حياتهم . وفي إقامة العلاقات بينهم .

وكان هذا من أعظم أسباب قوتهم القاهرة التي تفوقوا بها على غيرهم بالرغم مما كان يملك من آلة الحرب الضخمة ، والثروة الوفيرة ، والخبرة العريقة التي كان المسلمون يفتقدونها .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٢ .

لقد كانوا كما وصفهم الله تعالى بنياناً مرصوصاً متلاحماً ليس فيه ثغرات ، بينما كان عدوهم بناء منهاراً تتخلله الثغرات الناجمة عن فساد تركيبه الاجتماعي الناشيء عن امتهان كرامة الانسان فيه ، نتيجة لاعتبار تلك الكرامة رهينة أمور غير إنسانية .

هكذا كانوا . ولكنهم حين تخلوا عن هدى الله ، ولم يعد الإسلام هو الذي يقرب بينهم تخلت عنهم قوتهم ، وغلبهم على أرضهم وأنفسهم غيرهم ، لأن سبب القوة فارقهم .

إن القوة شيء ينبع من داخل النفس الإنسانية ، وما الأموال ، والأسلحة ، والمؤسسات إلا وسائل تستخدم لتحويل تلك القوة إلى إنجازات عسكرية أو حضارية ، أما الوسائل نفسها فلا تعطي الإنسان قوة يفقدها في داخل نفسه . ان القفزات الحضارية التقدمية العظمى في تاريخ كل أمة ليست ناشئة من وجود قوة مادية طارئة كانت تفتقدها تلك الأمة ، وإنما هي ناشئة من روح تتفجر في أعماق الكثرة العظمى من أبناء تلك الأمة ، فتحولها من مجرد كمية بشرية مهملة الى قوة فاعلة في التاريخ .

وكان الإسلام هو الروح التي غيرت العرب وغيرهم من المسلمين تغييراً نوعياً ، فجعلت منهم ـ بعد أن كانوا كمية مهملة في تاريخ منطقتهم والعالم ـ قوة عالمية فريدة في تاريخ البشرية كله ، بانية ، هادية ، مشعة ، مصلحة .

وأعظم الأخطار التي تهدد أمة من الأمم هو خطر الإنقسام والتفرق ، ان الروح تتبخر ، وتبقى الأشكال وحدها ، ويتحول الاندفاع نحو خارج الذات ، نحو المجتمعات الأخرى والطبيعة ، الى انكفاء على الذات ، وعملية تمزيق لها ، وتكون الوحدة شكلية ظاهرية ليس لها واقع .

وهذا ما حدث لليهود في التاريخ ، وقد بيّن الله تعالى حالهم بقوله :

« .. بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [1] » .

وقد حذّر الله سبحانه وتعالى المسلمين من هذا المصير في عدة مواضع من الوحي القرآني :

« .. ولا تكونوا من المشركين ، الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون [2] » .

« .. وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون [3] ».

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم [4] » .

« واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين [5] » .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٤ .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٣١ – ٣٢ .

(٣) سورة الانعام ، الآية : ١٥٣ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٥ .

(٥) سورة الانفال ، الآية : ٤٦ .

- ٧ -

في السياسة والحكم

كان العرب قبل الإسلام قبائل متفرقة متناحرة ، لا يكاد يخبو أوار الحرب فيما بينها حتى يعود فيتأجج من جديد .

وكان قسم من شبه الجزيرة، وهو اليمن، مستعمرة فارسية ، بينما تأسست على حدود فارس ، وفي بلاد الشام ، وفي البحرين امارات عربية تابعة للفرس أو للبيزنطيين ، فلم يكن لها شأن مستقل ، أو كيان دولي معروف .

فلما منّ الله على البشرية بالإسلام، ودان به العرب واتبعوه، تغيّر حالهم.

لقد حدث تغيّر نوعي عظيم .

لقد غدا العرب « أمة » متلاحمة ، متراصة ، متماسكة ، بعد أن كانوا قبائل متفرقة متناحرة أو امارات تابعة للقوى الكبرى في ذلك الحين .

وغدوا ذوي « رسالة » إنسانية عالمية شاملة ، بعد أن كان همّ أحدهم أن يأكل ، وينسل ، ويعيش .

وقد تجلت هذه الوحدة السياسية النابعة من العقيدة الواحدة والشريعة الجامعة أول مرة في الميثاق الذي أبرمه النبي ﷺ بين المسلمين وبين اليهود،

وذلك حين تشكل المجتمع الإسلامي الأول في المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ فإن النبي لم يعبّر ـ كما سنرى ـ في هذا الميثاق عن المسلمين بأسماء قبائلهم ، وإنما عبّر عنهم باسم المسلمين ، مما يدل بوضوح على انه اعتبرهم وحدة سياسية مميزة في مقابل اليهود :

« هذا كتاب من محمد ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ... وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة ... وان سلم المؤمنين واحدة ... وان المؤمنين يبيىء بعضهم على بعض... وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ... وان لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ... [1] » .

هذه فقرات نقلناها من الميثاق المشار اليه .

وأنت ترى ان الرسول ﷺ قد عبّر فيه عن المسلمين بأنهم «أمة واحدة من دون الناس » ثم جرى في سائر الميثاق بعد ذلك على أساس هذا المبدأ .

وقد كان مفهوم الأمة هذا ينطبق أيام الرسول ﷺ في الغالب على العرب، لأن جمهور المسلمين كان من العرب،لا لأن الإسلام جاء بمفهوم الأمة العنصري، فقد كان واضحاً منذ البدء كما بيّنا في فصل الاجتماع الآنف ان الإسلام يدعو إلى تكوين أمة على أساس غير عنصري ، وإنما على أساس المعتقد وحده .

وقد حدث أنه حين توسع نطاق الإسلام ، واعتنقته جماعات أخرى غير العرب أن توسع مصداق الأمة ، فلم يعد قاصراً على العرب وحدهم ، وإنما

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠١ — ٥٠٤ .

شمل عناصر أخرى غيرهم تجمعها معهم دولة واحـدة هي الدولة الإسلامية ، يحكمها رئيس واحد هو الخليفة .

وقد أجمع المسلمون — إلا من لا يعتنى بخلافه — على أنه لا يجوز أن يتولى خليفتان في وقت واحد[1] وهذا دليل صريح الدلالة على أصالة وعمق الشعور بالوحدة السياسية بين المسلمين في العالم الإسلامي .

* *

ولم يحدث أن تكوّنت « دول إسلامية » إلا فيما بعد حين ضعف سلطان العقيدة على النفوس وبسبب من أخطاء السياسيين وظلمهم أيضاً .

فحين تراكمت أخطاء الحاكمين وتجاوزاتهم نشب في داخل الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية صراع بين عوامل الانفصال في داخل التكوين الاسلامي وبين عوامل الاندماج والاتحاد ..

فمن جهـة كانت عوامل التـلاحم والاندمـاج تؤدي عملهـا ، وعوامـل الاندماج هي :

١ — المعتقد الإسلامي الواحد .

٢ — الشريعة الإسلامية الواحدة .

٣ — الثقافة الإسلامية الواحدة .

لقد كان المسلم من أي عنصر وفي أي رقعـة من العـالم الإسلامي يشعر بسبب عاملي العقيدة والشريعة باتحاده الروحي والحقوقي مع أي مسلم آخر من أي عنصر آخر وفي أية رقعة جغرافية أخرى من العالم الإسلامي . وكان

---

(١) محمد مهدي شمس الدين : نظام الحكم والادارة في الاسلام — بيروت ١٩٥٤ م .

بمفهوم الأمة الواحدة عند أي مسلم تابعاً من الإنتماء الديني دون أي اعتبار آخر ، عنصري أو لغوي .

أما عامل الإندماج الثالث ، وهو الثقافة الإسلامية الواحدة في جميع المجالات : التطبيقي والفني والنظري ، فقد كان أثره عظيم الفاعلية .

لقد كان المسلمون في كل مكان – مع شعورهم العميق بالرباط الروحي والحقوقي نتيجة لاتحاد العقيدة والشريعة – يتنفسون، ويتقلبون ، ويزدهرون في مناخ ثقافي واحد متجانس إلى حد عجيب . وكانت اللغة العربية هي الرباط الثقافي والفكري الوثيق الذي كوّن المناخ الثقافي الواحد – بسبب هذا كان المسلم في أي بلد وإلى أي عنصر انتمى يشعر بالانتماء إلى عالم ثقافي واحد هو الإسلام ، ويشعر بالغربة حين ينفصل بسبب ما عن هذا العالم الثقافي .

وقد تولدت من هذه العوامل المعنوية عوامل مادية كانت تنمو باستمرار ، وتؤدي إلى مزيد من الدمج والتوحيد بين العناصر البشرية المكوّنة للأمة الإسلامية .

لقد نمت التجارة بين أجزاء الأمة الإسلامية نمواً رائعاً ، وغدا العالم الإسلامي في وقت ما وإلى أمد طويل سوقاً تجارية واقتصادية ومالية واحدة تتفاعل أجزاؤها وتتكامل .

ونمت حركة التزاوج بين شعوب العالم الإسلامي في حركة اندماج بشري سلميّة لم يسبق لها مثل في التاريخ ولم يحدث بعدها – خارج نطاق العالم الاسلامي – ما يماثلها .

وهكذا ، بسبب هذه العوامل ولدت في النظرية وفي الواقع أمة جديدة قائمة على أساس المعتقد ، كانت تسير بخطى حثيثة نحو تذويب كل الفروق

العنصرية والمشاعر الاقليمية والقبلية والتكوينات الثقافية الخاصة ، في وحدة بشرية إنسانية وعقيدية وحقوقية وثقافية واقتصادية واحدة.

أمـا عوامل الانفصال والتشتت فكانت بالدرجـة الأولى هي المشاعر القومية ـ العنصرية ، والمشاعر الاقليمية ، والمشاعر القبليـة ـ هذه المشاعر التي وجدت سبيلـّهـا إلى النور من جديـد بسبب تجاوزات الحكام المسلمين وظلمهم،وعدم كفاءة كثير من القيادات السياسية والثقافية في العالم الاسلامي، وعدم شعور بعضها بالمسؤولية .

إن الذين كانوا يغذون هذه العوامل الانفصالية ليستفيدوا منها هم المغامرون العنصريون والاقليميون والقبليون ، وكان يساعدهم في مغامراتهم الانفصالية انحطاط نوعية الحكام والقادة السياسيين ، والمثقفين الذين لم يقوموا بمسؤولياتهم على وجه صحيح ـ وسوء سلوك الجهاز الحاكم مع مجموع الأمة أو مع هذا الفريق أو ذاك منها .

لقد كانت هذه العوامل الانفصالية تزداد قوة وفعالية بسبب الأخطاء التي ترتكبها القيادات ويستغلها المغامرون ، وكلما ازدادت عوامل الانفصال قوة أثرت على كفاءة عوامل الاندماج في عملها .

لقد تكوّنت تدريجياً ، « دول إسلامية » ذات طابع قومي ، أو إقليمي نتيجة لهذا الصراع بين عوامل الاندماج وعوامل الانفصال . واكتساب هذه الأخيرة لانتصارات داخل أطرها القومية ، أو الإقليمية ، أو القبلية .

لكن انتصارات عوامـل الانفصال كانت ـ أولّ الأمر ـ انتصارات محدودة ، وليست حاسمة، فلم تستطع هذه العوامل أن تلغي التأثير السياسي لعوامل الإندماج، لقد تكوّنت الدول، ولكنها جميعاً كانت تلتمس شرعيتها من الخليفة ، وترتبط ارتباطاً واقعياً ـ قوياً أو ضعيفاً ـ أو شكلياً بمركز الخلافة في بغداد ، أو بمركزٍ للخلافة في بغداد أو الأندلس أو القاهرة .

إلا أن علينا أن نعترف بأن قيام هذه الدول على أساس قومي أو إقليمي أو قبلي أضاف عاملاً سلبياً ضد عوامل الاندماج ، بينما أعطى قوة لعوامل الانفصال . لقد أثر بطبيعة الحال ـ بنسب متفاوتة ـ على الصّلات المادية بين أجزاء الأمة الإسلامية ، كما أثر على وحدة المناخ الثقافي للأمة الإسلامية ، وذلك بسبب نمو العناصر الثقافية وازدهارها، ونمو اللغات واللهجات المحلية.

وهو وان لم يؤثر على روابط المعتقد والتشريع ، ولكنه أثر على فاعليتها حين جردها من جوها الثقافي وقاعدتها المادية المتمثلة في الوحدة الاقتصادية للعالم الإسلامي ، وفي حرية الاتصال والتمازج البشري التي تأثرت قليلاً أو كثيراً بنجاح عوامل الانفصال في تكوين مؤسسات سياسية مستقلة نسبياً أو كلياً عن المركز الأم .

لقد أتاح إنشاء هذه الكيانات السياسية المستقلة للقوى الأجنبية غير الإسلامية أن تتدخل في شؤون هذه الكيانات ثقافياً وتجارياً ، ثم أتيح لها أن تَبث تأثيرها الثقافي بصورة فعالة ، ورأت القوى الانفصالية في هذه الصلات دعماً لها فشجعتها في كثير من الأحيان ، ولم تتوقف هذه القوى عن العمل الحثيث لتعميق الخلافات ، ليزداد الانفصال حدة وفعالية .

إن عوامل الإندماج لم تهزم تماماً في الصراع بينها وبين عوامل الانفصال المنتصرة ، بل بقيت لها فاعلية محدودة كانت تنجح أحياناً في التعبير عن نفسها . وكانت آخر صيغ النجاح هي الخلافة العثمانية ، ولكن العوامل الثقافية للقوى غير الإسلامية ـ المحلية والأجنبية ـ كانت تعمل في صميم الكيان السياسي للخلافة العثمانية منذ بزوغها قوّة عظمى في العالم، وقد عملت بدهاء شيطاني وبصبر وأناة في قلب الخلافة وأطرافها حتى هدمتها في نهاية الحرب العالمية الأولى ، وثبّتت بصورة كاملة الكيانات الانفصالية في العالم الإسلامي ، هذه الكيانات القائمة على أساس قومي أو إقليمي أو عنصري ، والبعيدة عن أن يكون أساسها ـ بصورة واقعية وصادقة ـ إسلامياً ـ وهي ـ

مع ذلك ـ تواجه خطر التمزيق إلى كيانات إقليمية عنصرية صغيرة ، كما حدث في الباكستان ، ويخشى أن يحدث في مواقع أخرى .

والآن ، لا تزال عوامل الاندماج تكافح بحيوية بالرغم من قوة وعنفوان عوامل الانفصال .

ولكن عوامل الاندماج « المعتقد والشريعة » التي كانت لا تزال سليمة إلى وقت قريب ، تتعرض لعملية تغيير وتحريف خطيرة .

إن القوى الخارجية تدرك تماماً ـ وربما أكثر من كثير من القيادات الإسلامية نفسها ـ أهمية الفاعلية التي تتمتع بها عوامل الاندماج ، وانها تشكل رصيداً حياً دائم الفعالية للعالم الإسلامي يضفي عليه لوناً من الوحدة ـ بشكل أو بآخر ـ في الأزمات الكبرى ، وقد يؤدي إلى تغيير نوعي ما في طبيعة الكيانات السياسية المنفصلة للعالم الإسلامي .

ولذلك فقد بدأت منذ وقت ليس بالقصير بمحاولة تتعاظم باستمرار ، وتكسب مواقع جديدة باستمرار لتحوير عوامل الاندماج لنفسها : لتحوير المعتقد وتحريف دلالاته السياسية والوحدوية بشكل كبير، أو لإلغائه بصورة كاملة ، ولتحوير التشريع .

لقد حوّر التشريع حين عزل في أكثر مناطق العالم الإسلامي ان لم نقل كلها ـ عن الحياة العامة وحصر دوره فيما يسمى (الأحوال الشخصية) الزواج والطلاق والمواريث . وثمة الآن ـ هنا وهناك ـ محاولات جادة تقوم بها القوى الثقافية الأجنبية والمحلية المتأثرة بالقوى الأجنبية لإقصاء التشريع الإسلامي حتى عن دائرة الأحوال الشخصية (الزواج المدني ، قوانين الطلاق الغربية ، قوانين الإرث غير الإسلامية) .

والمعتقد نفسه يتعرّض لمحاولات التحوير أو الإلغاء بحركة الالحاد المعاصرة تحت ظل شتى الشعارات أو بإعطاء صور متنوعة للإسلام (الإسلام العربي ،

الإسلام الاسيوي ، الإسلام الافريقي ، الإسلام القديم ، الإسلام الحديث) .

إن واجب المفكرين المسلمين الشاعرين بالمسؤولية أن يقوموا بمهمتين في هذا المجال :

الأولى : هي حماية الشريعة والمعتقد من محاولات التحوير والتحريف والإلغاء ، لأن ذلك تكليف شرعي إلهي أولاً ، ولتبقى لهذين العاملين قوتها الفاعلة في الحفاظ على الحد الأدنى من الوحدة الاسلامية وهو الوحدة الشعورية والروحية للعالم الإسلامي .

والمهمة الثانية هي البحث عن صيغ مرحلية لاعطاء هذه الوحدة الشعورية مظهراً كيانياً ملموساً يتمثل في مؤسسات معينة في المجالات السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية والاجتماعية ، صيغ تنسجم مع المعطيات الدولية الراهنة .

إن رابطة العالم الإسلامي ، ومجمع البحوث الاسلامية نموذجان ينبغي أن يُطوّرا ، وتنشأ بالإضافة اليهما مؤسسات اخرى تعطي الوحدة الشعورية طابعاً مادياً ملموساً في شكل مؤسسات إسلامية دولية فاعلة ونشطة .

* *

هذا استطراد اقتضاه الحديث عن ولادة الأمة الاسلامية بالاسلام ، وكيف توزعت اشتاتاً بما أهملت من الاسلام ، وبما ارتكبه قادتها من اخطاء ومظالم ، وبما كاد لها الأجانب عنها حين واتتهم الفرص ، وسنحت لهم الظروف . نسأل الله ان يغير سوء حالنا الى احسن .

بعد هذا الاستطراد نعود الى حديثنا عن ملامح الحكم في الجاهلية وفي الإسلام .

* *

إن صيغة الحكم في الجاهلية كانت تتيح لحاملها ان يتحلل من جميع التبعات والمسؤوليات ولكن الأمر في الإسلام يختلف عن ذلك تماماً ، فقد جاء الإسلام بمفهوم ثوري في هذا الشأن جعل فيه مهمة الحكم مقترنة باضخم المسؤوليات وأثقلها .

روي عن النبي ﷺ قوله :

« كلكم راع كلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام راع ومسؤول عن رعيته » [1] .

وقال علي عليه السلام فيما روى عنه :

« ان الله جعلني اماماً لخلقه ، ففرض عليّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي كضعفاء الناس ، كي يقتدي الفقير بفقري ، ولا يطغي الغنيّ غناه » [2] .

والحاكمون عند الإمام علي :

« خزان الرعية ووكلاء الامة ، وسفراء الأئمة» [3] .

وكان علي يكتب الى عماله :

« وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في يدك أمانة ، وانت مسترعي لمن فوقك » [4] .

---

(١) البخاري ومسلم .
(٢) الكافي (الاصول) ١ / ٤١٠
(٣) نهج البلاغة – باب المختار من الكتب – رقم النص : ٥١ .
(٤) نهج البلاغة – باب المختار من الكتب – رقم النص : ٥ .

وفيما يلي نص ننقله عن الامام علي ، وهو جزء من كتاب ارسله الى عامله على البصرة يعاتبه فيه ، ويرشده ويوجهه ، وذلك حين بلغه عنه أنه دعي الى وليمة قوم من اهلها فأجابهم ومضى إلى الوليمة .

إن النص التالي يصور بدقة وروعة مدى الشعور بالمسؤولية ، الشعور الحاد الموجع الذي يدفع بصاحبه إلى ان يأخذ نفسه باقسى الحالات ، وأن يحرمها ابسط وسائل العيش لمجرد خشيته من ان يكون احسن حالاً من احد من رعيته :

« ولكن هيهات ان يغلبني هواي ، ويقودني جشعي الى تخير الأطعمة ، ولعل بالحجاز او اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع أوَ أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى [1] واكباد حرى ، او آكون كما قال القائل :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة
وحولك اكباد تحن الى القد [2]

أأقنع من نفسي بان يقال : هذا امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر او أكون لهم اسوة في جشوبة [3] العيش» [4] .

وبينما كانت مهمة الحكم في الجاهلية استرقاقاً واستغلالاً للمحكومين ، فقد غدا الحكم في الاسلام مؤسسة وظيفتها الكبرى ان تهيء للمحكومين اسباب

---

(١) غرثى : جائعة ، وأكباد حرى أي أكباد عطشى .

(٢) البطنة هنا الامتلاء من الطعام زيادة عن الحاجة ، والقد : سير من جلد غير مدبوغ .

(٣) الجشوبة ، الخشونة ، طعام خشن غليظ .

(٤) نهج البلاغة : باب الكتب – رقم النص ٤٥ .

السعادة والأمن والعيش الرغيد ، وان تعينهم على تنمية مواهبهم ، وان تتيح لهم فرص النجاح والتقدم .

وقد حدد الامام علي عليه السلام مهمات الحكم الكبرى في مقدمته للعهد الشهير الذي كتبه لمالك الاشتر حين ولاه مصر :

* *

« هذا ما أمر به عبدالله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح اهلها ، وعمارة بلادها » [1] .

وبينما كان الحكم في عالم الجاهلية خلواً من أي سلطة قضائية يحتكم اليها الناس ، مما جعل الحياة والأمن رهناً بشهوات الحاكم وظنونه فقد غدا الحاكم ... في الاسلام مقيداً بالشريعة التي أمنت لكل ذي حق حقه .

ونستقرىء الآن بعض ملامح الحكم في الاسلام ، معتمدين في ذلك على آراء الامام علي عليه السلام في هذا المجال ، لاعتقادنا العميق بانه أعظم حاكم اسلامي – بعد النبي صلى الله عليه وآله – مثّل روح الاسلام في حكمه ، وحددها في النصوص التي وصلت الينا من كتبه إلى عماله ، وخطبه في المسلمين ، وكلماته القصار .

* *

حق الرعية على الحاكم ان يكون عادلاً ، فالعدل في الاسلام أساس الحكم ، ولا يستقيم حكم بغير عدل ، ولا يرضى الاسلام عن حكم غير عادل ، بل يأمر بالثورة عليه والتخلص منه .

---

(١) نهج البلاغة : عهد الاشتر

قال الله تعالى :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعـدلوا هو اقرب للتقوى » [١] .

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » [٢] .

والعدل هنا يجب أن يفهم باوسع معانيه .

ونجد عند الامام علي عليه السلام تحديداً للحكم الاسلامي كما عرفه ، وكما مارسه ، وكما دعى اليه في جملة من اثاره التي وصلت الينا ، والتي منها :

« انه ليس على الامام الا ما حمل من امر ربه : الابــلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحـــة ، والاحياء للسنة ، واقامة الحدود على مستحقيها ، واصدار السهمان على اهلها» [٣]

ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتـأمن بـه السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر » [٤] .

« فأما حقكم علي فالنصيحة لكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيما تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا » [٥] .

* *

---

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٨ .

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٨ .

(٢) نهج البلاغة : رقم النص : ١٠٣ .

(٣) نهج البلاغة ، رقم النص : ٤٠

(٤) نهج البلاغة ، رقم النص : ٣٤ .

وحق الحاكم على المحكومين أن يطيعوا . فثمة تلازم دائم بين الحق والواجب . واذا كان من حق المحكومين العدل ، فان من واجبهم الطاعة :

« يا ايها الذين آمنوا، أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم . فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا »[1]

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »[2].

وقال الامام علي في احدى خطبه :

« ... وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحة في المشهد والمغيب ، والاجابة حين ادعوكم ، والطاعة حين آمركم » [3] .

وقال من خطبة اخرى :

« ... ولي عليكم حق الطاعة ، وألا تنكصوا عن دعوة ، ولا تفرطوا في صلاح ، وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق» [4]

والطاعة هنا في حدود الشريعة ، وذلك لأن الحكم في الاسلام لا يمنح

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٦٤ .

(٣) نهج البلاغة ، رقم النص : ٣٤ .

(٤) نهج البلاغة – رقم النص ٥٠ .

الحاكم أي امتياز شخصي على سائر الناس ، وها هو الامام علي يخاطب مالك بن الحارث الأشتر ، عامله على مصر بقوله :

« إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة »

ويخاطب المحكومين بقوله :

« أفلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل » [١] .

* *

والحكم في الاسلام لا يقف عند حدود مهماته البوليسية التي تتلخص في حفظ الأمن الداخلي والخارجي فحسب ، بل هو ذو مهمات تتجاوز هذا النطاق بكثير . ان مهمات الحكم في الإسلام هي رعاية الإنسان من جميع الوجوه .

ونفهم هذا الأمربو ضوح إذا لاحظنا أن الحكم في الإسلام هو المسؤول عن تنفيذ خطة الاسلام في المجتمع ، وليس منفصلاً عن العقيدة والشريعة الإسلامية .

والتشريع الإسلامي – كما ذكرنا مراراً قد نظم الحياة الانسانية في جميع المجالات :

ويستطيع الباحث أن يجد الشواهد التطبيقية الناصعة لهذه الحقيقة في ممارسة رسول الله ﷺ ومن بعده ، وبوجه خاص في حكم الإمام علي عليه السلام كما صورها النصوص التي وصلت الينا من خطبه ، وكتبه ، وعهوده إلى عماله وولاته على البلدان والأمصار .

* *

(١) نهج البلاغة – رقم النص ٢١٤ .

والتعاون بين الحاكم والمحكوم شرط أساس لنجاح الحكم في اصلاح مـا يفتقر الى الإصلاح وتقويم مـا يحتاج إلى التقويم من شؤون الناس وشؤون البـلاد .

ويتحقق التعاون بينهما بأن يقوم كل منهما بما عليه من واجبات بعد ان يتلقى ماله من حقوق

فعلى المحكومين أن يطيعوا الحاكم اذا أمر ، ويجيبـوه اذا دعا ، وعلى الحاكم اذا حصل على ذلك أن يستغله في اصلاح شؤون رعيته .

أما حين لا يطيع المحكومون ، أو يطيعون ولكن الحاكم يستغل ذلك في رعاية مصالح نفسه ، واسرته ، وبطانته ، ويهمل مصالح شعبه ، فان ذلك مؤذن بشيوع الظلم ، وسيطرة الظلمة ، وفساد الدولة .

قال الله تعالى :

« وتعـاونوا على البر والتقوى ، ولا تعـاونوا على الاثم والعدوان » [1] .

وجاء في خطبة للامام علي :

« وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي ؛ فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية ، فاذا أدت الرعية الى الوالي حقه وأدى الوالي اليها حقها عز الحق بينهم ، وقامت مناهج ألدين ، واعتدلت معـالم العـدل ، وجرت على أذلالهـا السنن . فصلح بذلـك الزمان ، وطمع

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ٣ .

في بناء الدولة ، ويئست مطامع الاعداء ، فاذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال في الدين ، وتركت محاج السنن فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس ..[1] .

(١) نهج البلاغة – رقم النص : ٢١٤ .

- ٨ -

الفقر والغنى

كان من الطبيعي جداً في عالم الجاهلية ـ حتى عند المفكرين والمصلحين ـ أن يوجد في المجتمع فقراء وجائعون، وأغنياء يحارون كيف ينفقون اموالهم.

فلم يكن الفقر بذاته مشكلة انسانية واجتماعية لا بد من حلها ، لأنها ـ من وجهة النظر الجاهلية ـ أمر طبيعي في الحياة لا بد منه ، ونتيجة لهذا فلم يكن الغنى الفاحش مشكلة اجتماعية لا بد من حلها ، لأنه إذا كان الفقر ووجود الفقراء في المجتمع أمراً طبيعياً ، فان وجود الأغنيـــاء أمر طبيعي بالضرورة .

كانت المشكلة في هذا المجال هي كالتالي : كيف السبيـل الى اسكات الفقراء ، وحماية الأغنياء .

وقد استخدمت الأنظمة عدة أساليب لهذه الغاية يجيء في مقدمتها القمع وتقييد حرية الشكوى والإحتجاج على واقع الفقر والمغبة .

وجاء الإسلام يكشف الزيف بالحقيقة ، ويجلو الظلام بالنور .

كشف الإسلام عن أن الفقر بذاته مشكلة اجتماعيـة وانسانية خطيرة ، ونظر اليها من زاوية انها مشكلة لها أفاعيلها الاجتماعية الخطرة .

فان الإنسان الجائع المستغل المحروم المصفّد بالاغلال لا يستطيع أن يكون فاضلاً ، وان من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب . وان انساناً كهذا ينقلب كافراً بالقيم والفضائل والإنسان . إن معدته الخاوية ، وجسده المعذب ، ومجتمعه الكافر بانسانيته ، وشعوره بأنه مستغل ، وميسم الضّعة الذي يلاحقه أنى كان ... هذه الأمور كلها تجعله لصاً وسفاحاً ؛ وعدواً للانسانية التي لم تعترف له بحقه في الحياة الكريمة .

وكشف الإسلام أيضاً عن أن الغنى الفاحش (الغنى الثرائي) مشكلة اجتماعية خطيرة ، إذا كان ـ من بعض الوجوه ـ شيئاً حسناً للغني ، فانه علامة سيئة في المجتمع .

ولذلك فلا بد من حل لمشكلة الغنى الفاحش ، كما لا بد من حل لمشكلة الفقر .

وقدم الاسلام لمشكلة الغنى والفقر أنجع علاج ، وأحاط بالمشكلة من جوانبها سواء في ذلك ما يتعلق بمفهوم الغنى والفقر ، أو ما يتعلق بمصادر الثروة ، أو بطرق ادارتها وانفاقها ، أو ما يتعلق بالضرائب وتوزيعها .

إن نظرة إلى موقف الاسلام من هذه المشكلة تبين لنا بوضوح انه ليس في مخطط الشارع أن توجد في أيدي الأفراد ثروات كبرى ، لأنه وضع المعوقات امام هذه الظاهرة ، واذا وجدت ثروات كبرى رغم كل المعوّقات فليس في مخطط الشارع أن تستمر هذه الثروات جيلاً بعد جيل في أسرة واحدة ، واذا استمرت رغم كل المعوقات فليس في مخطط الشارع أن يعطى الأثرياء امكانية التحكم في حياة الناس بما يملكون من ثروات .

في مقابل هذا الموقف السلبي من غنى ما فوق الكفاية ، يبدو من الجلي الواضح أن في مخطط الشارع تكوين مجتمع ليس فيه فقراء .

والآن إلى تفصيل هذا الأجمال :

– أ –

الفقر : معناه الشرعي يساوي معنـــاه العرفي ، والفقير في الشرع وفي العرف العام واحد .

ان الفقر هو العوز والحاجة ، والفقير هو الانسان الذي لا يجد الكفاية في العيش بحسب عصره وبيئته وحاجاته – لمدة سنة كاملة [1] .

وهذا على مستويات. فمن الفقر ما يكون مدقعاً ، ويكون الفقير معدماً فاقداً لكل شيء ، فيضطر إلى السؤال أو إلى الجريمة . ومن الفقر ما يكون أهون حالاً من هذا .

الغنى : معناه في الشرع يختلف عن معناه في العرف :

---

(١) هذا هو الرأي المشهور في معنى الفقير بين فقهاء الشيعة الامامية وفقهاء المالكيـــة وعليه العمل. ولعل هذا هو الظاهر من الحنابلة ، فانهم قالوا « الفقير هو من لم يجد شيئاً أو لم يجد نصف كفايته والمسكين هو من يجد نصفها أو أكثر ، فيعطى كل واحد منهما من الزكاة تمام كفايته مع عائلته سنة » .

وذهب الأحناف وبعض فقهاء الشيعة الامامية إلى ان الفقير هو الذي لا يملك نصاباً كاملاً من نصب الزكاة ، بأن لا يملك شيئاً أو يملك أقل من النصاب .

وذهب الشافعية في معنى الفقير الى انه « من لا مال له أصلاً ، ولا كسب من حـلال ، أو له مال أو كسب من حلال لا يكفيه ، بأن كان أقل من نصف الكفايـــة ، ولم يكن له منفق يعطيه ما يكفيه .. والكفاية تعتبر بالنسبة لعمره الغالب ، وهو اثنتان وستون سنة ، إلا اذا كان له مال يتجر فيه ، فيعتبر ربحه في كل يوم على حدة ، فان كان ربحه في كل يوم أقل من نصف الكفاية في ذلك اليوم فهو فقير والمسكين من قدر على مال أو كسب حلال يساوي نصف ما يكفيه في العمر الغالب المتقدم ، أو اكثر من النصف .

لاحظ : السيد محسن الحكيم: مستمسك العروة الوثقى (الطبعة الثالثة – النجف– ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م) ج ٩ ص ٢١١ ومابعدها ، وعبد الرحمن الجزيري الفقه على المذاهب الاربعـة (الطبعة الثانية – القاهرة) ج ١ ص ٦١٧ وما بعدها .

إن الغني في العرف هو ذاك الذي يملك الأموال الطائلة ، نقوداً أو بضاعة أو عقارات ، أو كل هذا .

وفي الشرع : الغني هو الذي يملك مؤونة سنة على نحو الكفاية لنفسه ولمن يعول . وملك المؤونة على نحو الكفاية إما أن يكون بالفعل كأن يكون عنده مال يكفيه ، أو بالقوة كأن يكون عنده عمل يدر عليه ما يكفيه .

ومن الغني: الإنسان القوي القادر على العمل الذي لا يعمل كسلاً وتراخياً. وقد وردت بذلك النصوص الصحيحة ، منها صحيح زرارة بن أعين الذي رواه عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام :

« قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مِرّة سوي [١] ، ولا لمحترف ، ولا لقوي، قلنا : ما معنى هذا ؟ قال عليه السلام : لا يحل له أن يأخذها وهو يقدر أن يكف نفسه عنها [٢] » .

ولعل التحديد بالسنة ناشيء من أن نفقة السنة أمر يمكن تقديره غالباً ، ويمكن الاحتياط لمجهولاته بدقة نسبية ، أما ما زاد عن السنة فالتحديد به يفتح الباب واسعاً أمام التقديرات غير الدقيقة . هذا بالاضافة إلى أن ذلك ينسجم مع الدورة المالية للدولة .

---

(١) ذومرة سوي : المرة – بالكسر – القوة والشدة ، وسوي : صحيح الأعضاء مستوفي الخلقة .

(٢) وسائل الشيعة لتحصيل مسائل الشريعة : كتاب الزكاة أبواب المستحقين للزكاة ، الباب : ٨ الحديث : ٨ .

مـا المعنى الذي يتضمنه تحديد الشارع لمفهوم الغنى على خـلاف العرف ، بهذا الحد ؟

إن الشعور السائد بين الناس هو أن المال يمثل قيمة في حد ذاته ، بينما هو في الحقيقة لا يمثل قيمة ذاتية ، وإنما يقوم بدورٍ وظيفي في الحياة الشخصية للفرد وفي الحياة العامة للأمة .

والإعتقاد الخاطىء بأن المال يمثل قيمة ذاتية ناشىء من الربط بين وجود وكمية المال من جهة وبين القيمة الإنسانية من جهة أخرى . إن هذا الربط يؤدي إلى تولـّـد قوة اجتماعية وسياسية لصاحب المـال تجعله يمثـل خطراً على الجماعة .

وكان من جملة ما احتاط به الإسلام لتفادي نموّ فكرة كهذه في ذهنية الأمة ، أولاً : بإيجاد المعوّقات دون نموّ الثروات بشكل كبير وواسع ليحول دون وجود أساس الفكرة . ثانياً : بفـك الإرتباط بين الثروة وبين القيمـة الإنسانية والاجتماعية ، وذلك بجعل القيمة الإنسانية والاجتماعية ناشئة من التقوى وليس من العوامل اللاإنسانية ، ومنها المال . وثالثاً : بإعطـاء المال دوره الحقيقي وهو الدور الوظيفي ، ويتولد عن ذلك كون الغنى هو وجدان الكفاية ، وليس ما فوق الكفاية .

ربما يكون هذا المعنى هو الذي يتضمنه التحديد الشرعي لمفهوم الغنى ، والله تعالى أعلم .

— ب —

وقـد وضع الإسلام قيوداً على مصادر الإثراء ، ووضع المعوقات أمـام تكوّن ثروات كبرى في أيدي الأفراد ، وذلك كي لا تنقلب الثروة في المجتمع إلى لعنة تجلب عليه شرور الاستغلال والطغيان والترف الذي أهلك المجتمعات القديمة ودمّرها .

لقد وضع الشارع قيوداً على مصادر الإثراء – تمارسها السلطة الشرعية القائمة على أساس الإسلام – لا تسلب العاملين في حقل الاقتصاد والمال قدرتهم على الحركة ، ولا تجردهم من حوافزهم الفردية الذاتية ، ولا تغلق أمامهم أبواب الطموح ، ولكنها تحول بينهم وبين أن ينطلقوا على هواهم فينشئون ثروات كبرى تؤثر على قدرة الدولة ، وتعطيهم إمكانات مالية كبرى يتحكمون من خلالها بالدولة وبالناس ، ويعوّقون الدورة المالية الصحيحة في جسم الأمة وبين أيدي الناس .

وإذا لاحظنا التشريعات الكبرى التي وردت في هذا المجال فسنجد أن ثمة قيوداً وضعت على التجارة والزراعة والصناعة باعتبارها مصادر للاثراء .

لقد حرّم الشارع الربا فوضع بذلك حدّاً لتفضيل المال على العمل الإنساني ، ووضع العمل في موضع القيمة الأكبر أهمية في المركّب الذي ينتج الثروة وهو مركب (العمل + الوقت + المال = الثروة) . نجد أن الأنظمة التي تجيز الربا وتتعامل به تضع المركّب هكذا (المال + الوقت + العمل = الثروة) .

وحرّم الاحتكار لئلا يعطي لأصحاب الثروات – وهم القادرون على الاحتكار – وضعاً حقوقياً يجعلهم قادرين على ممارسة سلطة على جمهور الأمة يستغلون بها حاجته في سبيل زيادة ثرواتهم .

وحرّم القمار لئلا يمكّن فريقاً من الناس من استغلال الضعف البشري الذي يدفع إلى مغامرات مالية تأمل الربح السهل فيستهلك أموالهم في المقامرة التي لا تعني لممارسها إلا الخسارة ولا تعود على المجتمع إلا بالويلات وتؤمن ربحاً سهلاً بدون عمل لمن يديرون مراكز القمار .

ودور هذه المعاملات والحالات المالية واضح معروف في فتح الآفاق الواسعة أمام الأفراد والمؤسسات لتكوين الثروات الكبرى على حساب مصلحة مجموع الأمة ، هذا إلى أمور أخرى حرمها الشارع في باب التجارات

والاجارات لأنها تؤدي إلى نشر الفساد في أخلاق الناس وعقائدهم ومعايشهم، وقد ذكرها الفقهاء بتفصيل كاف في أبواب المكاسب من كتب الفقه .

كما اعتبر الشارع أن الأراضي التي لم يسلم أهلها عليهـا في البلاد التي فتحها المسلمون ، ما كان منها عامراً أو غير عامر ما فتح منها بقتال أو ما فتح بغير قتال (وهذا القسم إنما هو فيما إذا لم تكن عليه يد ملكية لأحد) كذلك اعتبر الأراضي غير العامرة في دار الإسلام – اعتبر كل ذلك ملكاً عاماً للأمة على اختلاف في شكل الملكية بين قسم وآخر ، وأنهـا للمسلمين في بعض الحالات ، وللامام في حالات أخرى ، ولكنه خلاف لا يؤثر في جوهر مـا نحن في سبيل بيانه من أن الأرض – وهي مصدر عظيم للثروة – إن لم تكن في الغالب أعظم مصادر الثروة ، لها في التشريع الإسلامي هذه الأحكام التي تجعل معظم الأراضي الإسلامية ملكاً عاماً لا سلطان عليه للأفراد ولا يمكن أن يكون لهم عليه سلطان يؤثر على مصلحة مجموع الأمة .

كما اعتبر الشارع أن الأنهار والبحار وسواحلها ، والمناجم على اختلاف المعادن فيها ، والغابات وما اليها ملكاً عاماً للأمة .

ولا يمكن لأحد من الناس أو مؤسسة من المؤسسات أن يتصرف – لإنتاج الثروة – في شيء من هذه الأرضين أو مـا في بطنها أو مـا على سطحها من ثروات ومياه إلا بإذن من ولي الأمر أو عقد يضمن مصلحة الأمة بينه وبين الجهة الصالحة لذلك .

هـذا ، ولا بد أن ننبّه هنـا إلى أنه توجد خلافات فقهية فيما يتعلق بالتفاصيل الراجعة إلى هذه القيود على مصادر الإثراء ، ولكنها خلافات لا تمس جوهر الموضوع ، وتطلب من مضانهـا في كتب الفقـه في أبواب البيوع والمكاسب والزكاة والخمس .

هذه القيود تجعل فرص تكوين ثروات كبرى عائدة للأفراد والمؤسسات فرصاً ضئيلة جداً .

وإذا وجدت الثروة الكبرى فإن في التشريع الإسلامي نظامين من الأحكام، كفيلين بتفتيتها ، وإعادة توزيعها من جديد .

الأول نظام المواريث .

والثاني نظام الضرائب .

ففي نظام المواريث الإسلامي يستحيل على صاحب الثروة أن ينقلها إلى وارثٍ واحد . إن نظـام المواريث يفتتها إلى حصص متساوية أو متفاوتة بحسب ورثته من الطبقة الأولى (الآباء والأبناء) أو الطبقة الثانية (الأخوة والأجداد) أو الطبقة الثالثة (الأعمام والأخوال) وفي حالة عدم الوارث النسبي أو السببي ، يأتي الميراث بالولاء ، وفي حالة عدم وجود وارث بالولاء يرث ولي الأمر من لا وارث له .

إن هذا النظام يحول دون تكوّن ثروات كبرى تنتقل من جيل إلى جيل وتنمو خلال إنتقالها ، وإنما يفتتها في نهاية كل جيل إلى ثروات أقل حجماً تتوزع على أشخاص متعددين .

— ج —

وفي نظام الضرائب نلاحظ أن الضرائب في جاهلية ما قبل الإسلام كانت غالباً امتيازاً للحاكم يفرضها كما يشاء ، ويجبيها بأقسى الوسائل ، وينفق معظمها على لذاته وشهواته وأهله وبطانته .

أما في الإسلام فقد غدت الضريبة إحدى وسائل تحقيق المبدأ العام في التشريع المالي) .

إن المبدأ العام في التشريع المالي في الإسلام الذي نلاحظه في كل ما ورد من تشريعات مالية ضريبية وغيرها هو (توزيع الثروة العامة على أكبر عدد من أفراد الأمة مع الابقاء على الحوافز الفردية في مجال الإنتاج وتوفير الظروف

المناسبة لها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى الحيلولة دون تكوّن ثروات كبرى ، والحيلولة دون استمرارها وانتقالها من جيل إلى جيل .

ولعل الآية الكريمة التالية تشير إلى هذا المبدأ العام في التشريع المالي الإسلامي بشقيه : توزيع الثروة العامة والحيلولة دون تكوّن الثروات واستمرارها :

« مـــا أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب [1] » .

فقد اشتملت الآية على بيان مورد الانفاق ، وبيّنت علة التشريع وهي ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وهذه العلة تقضي بتوزيع الثروة العامة لتحقيق الهدفين معاً : عدم تراكم الثروة في أيدٍ قليلة من جهة ، وتوزيعها على أكبر عدد ممكن من جهة أخرى .

وإذن فالضريبة في الإسلام ليست امتيازاً للحاكم يفرضها كيف يشاء وينفقها كيف يشاء وإنما هي ذات وظيفة اجتماعية واقتصادية معينة . إنهـا إحدى وسائـل الإسلام إلى تكوين مجتمع ليس فيه أغنيـاء فاحشوا الغنى يتوارثون أموالهم جيلا بعد جيل ، وليس فيه فقراء .

— د —

قلنا آنفاً : « يبدو من الجلي الواضح أن في مخطط الشارع تكوين مجتمع ليس فيه فقراء » .

---

(١) سورة الحشر ، الاية : ٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يبدو هذا القول غلواً في الطموح والتفاؤل الكثيرين ، ولكن من يرجع إلى النصوص الأساسية في أبواب الخمس والزكاة يتجلى لديه تخطط الشارع سبحانه وتعالى لتكوين مجتمع ليس فيه فقراء في نصوص صريحة لا تقبل التأويل والتحوير .

ونثبت فيما يلي بعض ما ورد عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذا الشأن :

فقد روي عن الإمام أبي عبدالله جعفر الصادق عليه السلام قوله :

« إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم . إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل ، ولكن أوتوا من منع من منعهم حقهم ، لا مما فرض الله لهم، ولو أن الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير » .

« إن الله عز وجل فرض الزكاة كما فرض الصلاة ، فلو أن رجلاً حمل الزكاة فأعطاها علانية لم يكن عليه في ذلك عيب ، وذلك أن الله عز وجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء ما يكتفون به ، ولو علم أن الذي فرض لهم لا يكفيهم لزادهم ، وإنما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة » .

« إنما وضعت الزكاة اختباراً للاغنياء ومعونة للفقراء ، ولو أن الناس أدوا زكاة اموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ، ولاستغنى بما فرض الله له. وان الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلا بذنوب الأغنياء .. »

وفي حديث مروي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في شأن الخمس والزكاة :

« .. وليس في مال الخمس زكاة ، لأن فقراء الناس جعل ارزاقهم في أموال الناس على ثمانية أسهم فلم يبق منهم أحد ، وجعل للفقراء قرابة الرسول ﷺ نصف الخمس فأغنام به عن صدقات الناس ، وصدقات النبي ﷺ وولي الأمر ، فلم يبق فقير من فقراء الناس ، ولم يبق فقير من فقراء قرابة رسول الله ﷺ إلا وقد استغنى فلا فقير [1] » .

* *

هذه نظرة الإسلام إلى مسألة الفقر والغنى ، وهذا موقفه منها .

وقد وجد هذا التشريع سبيله إلى التحقيق والتطبيق بقدر ما سمحت به الظروف والموارد المالية في عهد الرسول ﷺ ومَن بعده قبل أن تحصل الانحرافات في سياسة المال وغير المال في عهد الأمويين .

ونثبت فيما يلي أقباساً من أقوال الإمام علي عليه السلام وأعماله لتكمل في أذهاننا صورة موقف الإسلام من مسألة الفقر والغنى :

لا يعالج الفقر عند الإمام علي عليه السلام بالمواعظ والخطب ، وإنما يعالج بحماية مال الأمة من اللصوص والمستغلين ، ثم بصرفه في موارده . وبهذا عالجه الإمام عليه السلام ؛ فكان عيناً لا تنام عن مراقبة ولاته على الأمصار ، وعن التعرف المستمر على وضعية أموال الأمة وطرق جبايتها وتوزيعها . وكم من والٍ عُزل لأنه خان ، أو ظلم أو استغل ، وكم كتاب كتب الإمام إلى ولاته يأمرهم فيه أن يلزموا جادة العدل فيمن وُلوا عليهم من الناس ، وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لأوامره .

---

(١) وسائل الشيعة ص ٣ وما بعدها ج ٦ باب وجوب الزكاة ، الأحاديث : ٢ ، ٣ ، ٦ ، وأبواب قسمة الخمس ص . ٣٥٨ — ٣٥٩ ، الحديث : ٨ .

ولقد كان يكتب إلى ولاته :

« إن أعظم الخيانة خيانة الأمة » .

وليس الولاة أعضاء في شركة هدفها أن تستغل الأمة ، وإنما يجب أن يكونوا كما كان يكتب الإمام إليهم :

« خزان الرعية ، ووكلاء الأمة ، وسفراء الأئمة » .

وكون الأموال العامة أموال الأمة مفهوم إسلامي في المال كان الإمام أعظم المعبرين عنه عملياً بعد رسول الله ﷺ .

لقد جاءه اخوه عقيل بن أبي طالب يطلب منه زيادة عن حقه فرده محتجاً بأن المال ليس له ، وإنما هو مال الأمة . وجاءه ثانٍ يطلب منه أن يعطيه مالاً متزلفاً إليه بما بينهما من الصداقة ، فردّه قائلاً :

« إن هذا المال ليس لي ولا لك ، وإنما هو فيء للمسلمين[1] » .

والنص التالي الذي اقتبسناه من عهد الإمام عليه السلام إلى مالك بن الحارث الأشتر ، حين ولاه على مصر ، هذا النص يمثل نظرة الإمام إلى واجب الدولة بالنسبة الى الفقراء :

« .. ثم الله ، الله في الطبقة السفلى[2] من الذين لا حيلة

---

(١) راجع المؤلف (دراسات في نهج البلاغة) الطبعة الثانية ، بيروت – ١٩٧٢ – فصل (المجتمع والطبقات الاجتماعية) .

(٢) هذا الوصف (السفلى) ناظر إلى القوة الاقتصادية ، لا إلى القيمة الاجتماعية ، فهم وإن كانوا ضعفاء اقتصادياً ، يمكن أن يكونوا في منزلة عالية اجتماعياً إذا كانوا واجدين لمؤهلات الرفعة الاجتماعية في الإسلام وهي التقوى والعلم والخدمة العامة .

لهم من المساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى [1] والزمنى [2] ، فان في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً [3] .

« واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي [4] الاسلام في كل بلد ، فان الذي للأقصى [5] منهم مثل الذي للأدنى ، وكل قد استرعيت حقه [6] » .

« ولا يشغلنك عنهم بطر [7] فانك لا تعذر بتضييعك التافه لأحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم [8] ولا تصعر [9] خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه [10] العيون ، وتحتقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فيرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم

---

(١) البؤسى : جمع بائس ، الذين يعانون من الفقر الشديد .

(٢) الزمنى : جمع زمين ، الزمانة العاهة .

(٣) القانع : السائل — المعتر : المتعرض لأخذ العطاء دون سؤال وطلب .

(٤) الغلات : المحاصيل الزراعية — الصوافي : الأرض المفتوحة عنوة (بالقوة) فانها ملك لجميع المسلمين ، ويعود ريعها الى بيت مال المسلمين .

(٥) الأقصى : الأبعد في القرابة أو في المكان ، والأدنى : الأقرب . أي أنه لا فرق في لزوم الرعاية لهؤلاء بين القريب والبعيد .

(٦) وجبت عليك رعاية حقه .

(٧) البطر : الطغيان بالنعمة .

(٨) لا تشخص همك : لا تصرف عنايتك عن هؤلاء الفقراء .

(٩) لا تتكبر عليهم .

(١٠) تقتحمه العيون : تحتقره ، فلا تنظر اليه .

بالاعذار الى الله سبحانه يوم تلقاه[1] فان هؤلاء من الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم . »

« وكل فأعذر الى الله في تأدية حقه اليه » .

« وتعهد أهل اليتم ، وذوي الرقة في السن[2] ممن لا حيلة له ولاينصب للمسألة نفسه » .

« وذلك على الولاة ثقيل ، والحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية ، فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعود والله لهم » .

(١) ليكن عملك بالنسبة الى هؤلاء الفقراء عذراً لك عند الله تعالى .
(٢) ذوي الرقة في السن : الذين بلغوا مرحلة الشيخوخة .

- ٩ -

دين عام وخالد

أ – دين عالمي :

الإسلام دين عالمي ، فهو رسالة الله إلى البشر كافة على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، وليس خاصاً ببلد من البلدان ، أو بشعب من الشعوب .

وكون الإسلام ديناً عالميـــاً فكرة أساسية في المعتقد الإسلامي كانت شديدة الوضوح عند الرسول ﷺ منذ بـــداية البعثة النبوية في مكة ؛ وقد نص الوحي القرآني في مكة على هـــذه الفكرة في آيات كثيرة ، ولم يكن ورود هذه الفكرة في الوحي القرآني في المدينة شيئاً طارئاً وإنما كان امتداداً في التعبير عن فكرة العالمية التي عبّر عنهـــا الوحي القرآني في مكة كما قلنا آنفاً .

ولم يكن العمل في سبيل نشر الإسلام خارج حدود شبه الجزيرة العربية شيئاً تم نتيجة لظروف حدثت بعد وفـــاة النبي ﷺ بقدر مـــا كان استجابة لفكرة أساسية في المعتقد الإسلامي ، وهي أن الإسلام دين عالمي وليس دين العرب وحدهم .

فيما يلي نثبت بعض الآيات المكية التي ورد فيها التعبير عن مبدأ عالمية الدعوة الإسلامية :

« إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين [١] » .

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً [٢] » .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون [٣] » .

« .. قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا .. [٤] »

« قل أي شيء اكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وانني بريء مما تشركون [٥] » .

---

(١) سورة ص (مكية) الآية : ٨٧ — ٨٨ .
(٢) سورة الفرقان (مكية) الآية : ١ .
(٣) سورة سبأ (مكية) الآية : ٢٨ .
(٤) سورة الأعراف (مكية) الآيات : ١٥٦ — ١٥٨ .
(٥) سورة الانعام (مكية) الآية : ١٩ .

هذا بعض مـــا أنزله الله على رسوله ﷺ في مكة في شأن مبدأ عالمية الدعوة الإسلامية .

وقد شهد شهر ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة عملاً من أعمال الرسالة قام به النبي ﷺ محققاً به مبدأ عـالمية الإسلام ، وذلك فيما أرسله من كتب إلى مـــلوك وأمراء عصره من العرب والفرس والروم والقبط والأحباش ، يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام .

فقد بعث دحية بن خليفة الكلبي الخزرجي الى هرقل امبراطور الروم . وعبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى امبراطور الفرس ، وعمرو بن أمية الغمري الى النجاشي ملـــك الحبشة ، وحاطب بن أبي بلتعة اللخمي الى المقوقس عامل هرقل على مصر ، وسليط بن عمرو العامري الى هوذة بن علي الحنفي أمير بـــلاد اليمامة ، وشجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة الى الحارث بن أبي شمر الغساني، والعلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص الى جيفر وعباد إبني الجلندي صاحبي عمان [1].
وروي عنه ﷺ أنه قال لأصحابه حين وجه هؤلاء الرسل :

« إني بعثت رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علي كاختلاف الحواريين على عيسى بن مريم [2] » .

ونستطيع أن نضيف الى هذا الشاهد التاريخي عشرات الشواهد الأخرى التي تدل دلالة صريحة على أن الرسول ﷺ كان منذ البداية واعيـــاً لمهمته المقدسة على أنها مهمة ذات اتساع وامتداد يشمل العـالم كله والزمان كله منذ بعث الى يوم القيامة .

---

(١) نصوص الكتب ، ومحاورات الرسل مع المرسل اليهم، وردود الفعل تجدها في : الطبري ٢/٦٤٤ - ٦٥٧ وسيرة ابن هشام ٢/٦٠٦ - ٦٠٧ واليعقوبي (ط - النجف) ٢/٦٦-٦٧ والبدء والتاريخ (ط - باريس) ج ٤ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٢) الطبري ٢/٦٤٥ ، وابن هشام ٢/٦٠٦ - ٦٠٧ .

نضيف إلى ما ذكرنا مـــا كان يبشر به أصحابه مراراً من أن الله تعالى سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر .

ونضيف قوله عن صهيب بن سنان الرومي : « صهيب سابق الروم [1] » وقوله عن بلال بن رباح الحبشي : « بلال سابق الحبشة[2] » وقوله عن سلمان الفارسي : « سلمان سابق الفرس [3] » .

إلى غير ذلك من شواهد سيرة الرسول ﷺ على هذه الحقيقة .

وإنما نضيف شواهد التاريخ مع أن الوحي القرآني يقطع كل جدل وينهي باليقين كل شك لنؤكد أن هذه الحقيقة كانت في وعي رسول الله، وفي منهاج عمله الذي باشره بنفسه وأعدّ نفوس أصحابه لمتابعة العمل فيه من بعده .

ذكرنا مبدأ عالمية الدين الإسلامي لندحض شك بعض المستشرقين ، بل ترجيحهم أن عالمية الدين الإسلامي ظاهرة متأخرة الحدوث عن حياة رسول الله ، وأنــه لم يفكر في حياته بغير بـلاد العرب ، ولذا فلم يرسم أي منهج للانتقال بالدعوة إلى خـارج بـلاد العرب ، ومن بين مَن يرون هـذا الرأي الايطالي « كيتاني » ، والانكليزي « وليم ميور » الذي قال في هذا الشأن :

« إن فكرة عموم الرسالة جاءت فيا بعد ، وان هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض أنه فكر فيها كان تفكيره غامضاً ، فان عالمه الذي كان يفكر فيه كان بلاد العرب ، كما ان هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها ، وان محمداً لم يوجه دعوته منذ بُعث الى

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى (طبعة ليون) ج ٣ قسم اول — ١٦١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٤ قسم اول — ٥٩ .

ان مات إلا للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى ان نواة عالمية الاسلام قد غرست ولكنها اذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك فانما يرجع هـذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه الى الخطط والمناهج » .

وقد عرفت خطأ هذه الدعوى مما قدمناه، فان مبدأ عموم الرسالة مبدأ كبير في صميم العقيدة الإسلامية منذ بداية العهد المكي أي منذ بداية البعثة النبوية . ومن هنا فان زعم أن النبي ﷺ لم يفكر في مسألة العالمية دعوى باطلة ، لأن الذي كان يوجه تفكير النبي ويقود خطاه هو الوحي ، ولذلك فلا بد أن هذا المبدأ كان يحظى بعناية كاملة من تفكير النبي ﷺ الواعي .

أما أن عـالمه الذي كان يفكر فيه هو بلاد العرب فقط ، فانهـا دعوى صحيحة من جهة وباطلة من جهة :

باطلة من جهة دعوى انحصار تفكير النبي ﷺ في العرب وبلادهم ، فان تفكيره وبعض عمله – كما رأينا – كان يتجاوز بـلاد العرب إلى العـالم كله انسجاماً مع توجيه الوحي في شأن مبدأ عالمية الرسالة .

وصحيحة من جهـة أن عمـله الحثيث الكثيف كان منصباً على العرب في بلادهم وذلك لأن المجال العربي هو المجـال الذي انطلقت فيه الرسالة فـلا بد أن يؤمّن النبي لرسالته قاعدة إيمـانية بين قومه قبل أن يتوجه بهـا الى الآخرين . بهذا تقضي طبيعة الأمور في كل رسالة . ولكن هذا لا يعني ولا يستلزم في حال من الأحوال أن النبي ﷺ لم يفكر في مسالة العالمية، بل إنه قد فكر في ذلـك مستهدياً بتوجيه الوحي ، بل عبّر عن تفكيره في أعمال وأقوال حفلت بها سيرته الشريفه نقلنا آنفاً طرفاً منها .

وأما ان الإسلام لم يهيأ إلا لبلاد العرب فهي دعوى لا نعرف أشد منهـا بطلاناً وتجنياً ، وهي دعوى أملتهـا نزعة تبشيرية واضحـة ، ولا نقول في

شأنها إلا أن الإسلام في غنى عن شهادة «ميور» له بالصلاحية لكل زمان ومكان، وإنسان بعد شهد الواقع له بذلك، وبعد اعتراف عظماء الغرب علماء وفلاسفة له بهذه المزية .

وهـذه الدعوى الباطلة لا تنهض لتبرير الدعوى الأساسية وهي أن مبدأ العالمية مبدأ طارىء ، وذلـك لأن الوحي – كما قلنـا – كان هو الذي يوجه تفكير الرسول ويقود خطاه ، وقد رأيت فيما سبق نماذج من نصوص الوحي القرآني في مكة المصرحه بأن الله أرسل محمداً إلى الناس كافة بالإسلام الذي هو هدى ونور للناس كافة ، هـذا بالاضافة إلى الكثير الكثير ممـا ورد في القرآن من التصريح على أن القرآن اشتمل على تبيان كل شيء :

« .. ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين [١] » .

« ما فرطنا في الكتاب من شيء [٢] » .

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنـه ويهديهم الى صراط مستقيم [٣] » .

هـذا الوحي كان يحمل النبي ﷺ يجزم بشكل قاطع لكل تساؤل أن

---

(١) سورة النحل (مكية) ، الآية : ٨٩ .

(٢) سورة الانعام (مكية) ، الآية : ٣٨ .

(٣) سورة المائدة (مدنية) ، الآية : ١٦ ،

الرسالة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان وإنسان كما هو واقع الأمر بالنسبة إلى الإسلام .

وإذا غضضنا النظر عن الوحي الذي كان يوجه تفكير النبي ﷺ ويقود خطاه ، فان ذالك لن يجعل من دعوى « ميور » شيئاً قابلاً للتصديق ، فقد كان النبي إنساناً من قريش ، وكانت حياة قريش الاقتصادية قائمة على الاتجار مع العالم الخارجي — الفرس والرومان والأحباش والمصريين — ومن الطبيعي جداً أن يستشرف النبي لهذا العالم وأن يفكر فيه بعد أن غدا صاحب رسالة ملأت عليه أقطار نفسه وآفاق عقله ، على أن النبي ﷺ نفسه لم يكن غريباً عن هذا العالم الخارجي ، فقد سافر أكثر من مرة إلى الشام للتجارة .

وخلاصة القول أن مبدأ عالمية الرسالة الإسلامية مبدأ أساس في صميم الرسالة الإسلامية منذ بعثة النبي ﷺ وانكار هذا المبدأ لا ينبعث إلا عن جهل أو عن سوء نية ، ولا نجد له وجهاً يبرره على الاطلاق .

* *

وقد يتساءل البعض عن الدافع الى التعرض لهذه المسألة وبحثها على هذا الشكل ؟ فنقول :

إن هذه الدعوى من المستشرقين الذين يروجونها ليست من العلم في شيء كما رأيت ، ولا نستطيع أن نظن بأصحاب هذه الدعوى أنهم لم يطلعوا على الوثائق القرآنية والتاريخية الخاصة بمبدأ عالمية الرسالة الإسلامية ، ولذلك فاننا نعتقد أن هذه الدعوى ذات أهداف أخرى غير البحث العلمي .

إن كثيراً من هؤلاء المستشرقين يعملون في الدوائر الحكوميــة لبلادهم (وزارة الخارجية ودوائر الاستخبارات بوجه خاص) ويكتبون بعض ابحاثهم أو كثيراً منها بوحي من عملهم الحكومي . ودعوى أن الأسلام ليس ديناً عالمياً ، وأن النبي محمداً ﷺ لم يفكر في العالمية ولم يخطط لها ، وأنها

شيء طارىء على الرسالة حدث متأخراً ، وان النبي محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب وحدهم دون غيرهم ، « وان هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا للعرب » — هذه الدعوى بكل تفصيلاتها لم يقصد بها العلم بقدر ما قصد بها مخاطبة المسلمين من غير العرب لسلخهم عن الاسلام ، أو لسلخهم عن حقيقة الاسلام وجوهره وان بقي لهم منه الاسم والشعارات ؛ وذلك ليشتتوا العالم الاسلامي ويمزقوه إلى وحدات منفصلة وذلك بإيهامهم أنهم يعتنقون ديناً لم يوجه إليهم ، ولم ينزله الله لهم ، دين جاء رسوله إلى أمة خاصة من بين الناس هي العرب دون غيرهم ، وان هذا الدين صيغ ليلائم العرب دون غيرهم من الشعوب . ولذا فان على هذه الشعوب أن تلتمس شخصيتها في غير الإسلام ، في تراثها القومي الخاص السابق على الاسلام ، في تراثها الجاهلي ، ومن هنا انبعثت في جميع انحاء العالم الاسلامي حركات البحث عن الآثار القديمة ، وإحياء الآداب والعادات القديمة ، وتكوين ما يسمى بـ « الفولكلور » وذلك لجعل الاسلام عقيدة وشريعة وثقافة شيئاً غريباً على هذه الشعوب ، ولتركيز الشعور بين ابنائها بأن الإسلام دخيل ، وأن عليهم في احسن الأحوال — إذا لم يرفضوه — أن يعدّلوه بحيث يأخذ سماتهم وشخصيتهم الخاصة ، وقد وجد في كل شعب إسلامي مرتدون في مراكز المسؤولية أو خارجها يتمتعون بنفوذ ثقافي تلقفوا هذه الاتجاهات وحولوها إلى واقع يضعون به أقوامهم ، وقد وجد ويا للأسف بين بعض العرب من عزز هذه الفرية حين أنكر المصدر الإلهي للاسلام وادعى أنه يمثل الروح العربية والعقلية العربية والعادات العربية والشخصية العربية . ورأينا كتاباً أمريكيين وأوروبيين يكتبون عن إسلام عربي واسلام افريقي واسلام آسيوي واسلام زنجي، وما إلى ذلك من ماركات إسلامية تطبخ في مراكز الاستعمار الجديد والقديم ، ومؤسسات التوجيه

وصياغة الرأي العام ، وتصدر إلى العالم الإسلامي عن طريق المؤتمرات ، والكتب ، والمراكز الجامعية .

إن على قادة الرأي المخلصين الصادقين في العالم الاسلامي أن يعوا هذه الحقيقة المرة ، وأن يعملوا لكفاحها ، من أجل حفظ الوحدة الثقافية والتشريعية والروحية للعالم الاسلامي .

ب — دين خالد

الإسلام — كما عرفت في فصل سابق — دين الله الذي هدى به الانسان منذ وجد هذا الانسان على الأرض ، وغدا الدين ضرورة من ضرورات حياته ، فلم يمض على الناس وقت وهم على غير دين .

فالإسلام — بصيغه التي أنزلها الله تعالى قبل محمد ﷺ — عريق في القدم عريق .

والاسلام بصيغته الكاملة كما جاء به رسول الله ﷺ خاتم النبيين وآخر المرسلين خالد في حياة الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهو ليس ديناً للبشرية خلال فترة تاريخية إنقضى دوره بانقضائها ، كما يزعم الزاعمون .

وهذه الحقيقة الاسلامية تضع أمامنا أسئلة لا بد من الإجابة عليها .

هل مضى على الناس في تاريخ البشرية الطويل زمان وهم على غير دين ؟

وهل الدين خالد باق ما بقي الناس على الأرض ؟

وهل الاسلام من بين الأديان كلها يحمل إمكانات البقاء ديناً حياً في الناس؟

— أ —

الانسان مفطور على التدين ، والتدين غريزة إنسانية من الغرائز الأساسية فيه ، ولا يمكن إلغاؤها من كيانه وتعطيلها في نفسه بضروب من التربية

والتوجيه « وغسل الدماغ » كما لا يمكن إلغاء غرائزه الأخرى ذات الطابع الحسي أو النفسي .

والميل الديني ــ على هذا ــ أمر فطري داخل في تكوين كل إنسان ، إلا أن هذا الميل قد يوجه توجيهاً خاطئاً فيعبر الإنسان عن فطرته الدينية بأساليب خاطئة ومنحرفة ، وهذا ما يفسر لنا انتشار الدعوات الدينية الضالة والمنحرفة بين اولئك الذين لم تصل اليهم كلمة الله الحقة بصورة صحيحة وسليمة أو وصلت إليهم وحرفتها الأهواء .

واذن ، فالدين ليس ظاهرة تاريخية ترتبط بظروف اجتماعية معيّنة ، وإنما هو خاصة إنسانية وجدت مع الانسان وستبقى خالدة وباقية ما بقي الانسان .

* *

وقد أثيرت بعض الشكوك حول أقدميـة الدين في المجتمع الانساني وأصالته في تكوين الإنسان ــ أثار هذه الشكوك بعض كتاب القرن الثامن عشر في فرنسا وغيرها ، منهم فولتير ، وجان جاك روسو وغيرهما .

« على أنه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم ، حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا ، واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم ، والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركات الهمجية . وهكذا ظهر انها أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس .

« وعلم أن عموم الأديان لجميع الأمم لا يعني عمومها لكل أفرادها ، فانه لا تخلو أمة من وجود « ذاهلين » قد غمرتهم تكاليف الحياة واعباؤها ، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت مـا يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر في تلك الحقائق العليا ، كما لا تخلو أمة من « منكرين ساخرين» يحسبون الحياة لهواً ولعباً، ويتخذون الدين وهماً وخرافة، لكن هؤلاء دائماً هم الأقلون في كل أمة... وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفي كون الغريزة الدينية بصفة عامة طبيعة النفس الانسانية ، كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون .

* *

« يقول « معجم لاروس » للقرن العشرين : (إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدهـا همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وان الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخـالدة للانسانية) ويقول : (إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي ، بل لا تضعف ولا تذبل، الا في فترات الاسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد) » وكتب بارتيلمي سانت هيلير · «هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم ؟ ما الانسان؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ مـا هدفهما ؟ كيف بدأ ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذي يجب ان يقود عقولنـا في اثناء عبورنا في هذه الدنيا ؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ..؟ هـذه الأسئلة

لا توجد أمة ، ولا شعب، ولا بجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة) .

« ويقول شاشاوان : ومهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر ... علمياً ، وصناعياً ، واقتصـــادياً ، وإجتماعياً ، ومهما يكن اندفاعنا في هذه الحركة العظيمة للحياة العمليـــة ، وللجهاد والتنافس في سبيـل معيشتنا ومعيشة ذوينـا ، فان عقلنا في اوقات السكون والهدوء – عظاماً كنا او متواضعين ، خياراً كنا أو اشراراً – يعود إلى التأمل فيهذه المسائلالأزلية: لم وكيفكانوجودنا ووجود هذا العالم؟وإلىالتفكير فيالعللالأولى والثانية ، وفي حقوقنا وواجباتنا) .

« ويقول هنري برجسون : (لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة)[1] .

هذه الشهـادات – ويوجد منهـا الكثير الكثير من علمـاء مختلفي الاختصاصات ، ومفكرين ، وفلاسفة ، وشعراء – هذه الشهادات تعبر عما يكتشفه كل واحد من الناس في أعماق نفسه حين يسبر غورها ، وهو أن في صميم كيانه المعنوي فطرة لا يستطيع أن يقاومها هي فطرة التدين .

إنه يكتشفها في حالات الوحدة والتأمل ، وتعبر عن نفسها في حالات الشدة والضيق والخطر الماحق على الذات حين لا يكون ثمة عون من أحد من الناس .

---

(١) هذه الشهادات نقلناها من كتاب : (الدين : بحوث ممهدة لدراسة الاديان) للدكتور محمد عبدالله دراز الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م ص ٨٠ – ٨٣ – وهو كتاب جيد في بابه وننصح بقراءته .

وإذا كانت فطرة في صميم كيان الانسان المعنوي فهي – تاريخياً – تعود إلى بداية وجود الإنسان ووعيه لذاته، وليست ظاهرة طارئة في التاريخ.

– ب –

وإذا كانت البشرية لم تعرف في تاريخها الطويل فترة مرت عليها من غير دين، فهل ستبقى في مستقبلها متدينة أو أن عصراً جديداً حل أو سيحل يستغني فيه الانسان عن الدين ؟

في القرن التاسع عشر ظهرت نظرية مضمونها أن الأديان وان كانت عريقة في القدم، لكن تقدمها في الزمان لا يعطيها صفة الخلود، بل يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم، ومن بعد ذلك الفناء.

هذه هي نظرية « أوجست كنت »، فقد ذهب إلى أن العقلية الانسانية مرت بأدوار ثلاثة : دور الفلسفة الدينية، ثم دور الفلسفة التجريدية، ثم دور الفلسفة الواقعية. وهذا الدور الثالث في نظره هو آخر الادوار وأسماها.

فقد كان الناس يعللون الظواهر الكونية بقوة أو قوى عاقلة إرادية أسمى من الطبيعة، وهذا هو دور الفلسفة الدينية. وقد تجاوز الانسان هذا الدور إلى دور الفلسفة التجريدية حين أخذ يفسر ظواهر الطبيعة بمعان عامة وخصائص طبيعية كامنة في الطبيعة نفسها كقوة النمو والحيوية وما إلى ذلك. وقد تجاوز الانسان هذا الدور في العصر الحديث إلى العلم التجريبي الذي هو الطريق السليم إلى معرفة الطبيعة والسيطرة عليها.

وعلى هذا فيكون التفكير الديني في مرحلة بدائية من نمو العقل البشري، تجاوزه إلى الفلسفة حين انتقل من الدور البدائي، ولما بلغ أشده وتمام نضجه تجاوز الفلسفة إلى العلم التجريبي، وبهذا يكون دور الدين قد انتهى وهو في سبيله إلى النسيان.

هذه خلاصة لنظرية أوجست كنت في هذه المسألة.

وهي نظرية مرفوضة لأنها مجردة عن البرهان ، بل ان البرهـان قائم على خلافها .

فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديساً للروحانيـات ، وشغفاً بالمعنويات والمعقولات الكلية عند فريق من الناس إلى جانب الكلف بالحوادث والحقائق الجزئية عند فريق آخر ، وليس الحد الذي يفصل بين المعسكرين هو جهل أحدهما بالتجارب العلمية وخبرة الآخر بها إذ كثيراً ما نجد من بين الجهلاء جاحدين متعصبين كما نجد من بين علماء المادة مؤمنـين متحمسين . وها نحن أولاء في القرن العشرين وفي قلب الحضارة الاوروبية نرى إلى جانب البحوث المادية المتشعبة دراسات روحية واسعة ، تقوم بها جماعات محترمة من كبار علماء الطب والفلسفة والطبيعة ، على منهاج علمي دقيق ، وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل والنقد الصارم .

فالواقع ان الحالات الثلاث التي يصورها لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب ، وليست كلها دائماً على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما ، بل هي تتفاوت في القوة والضعف بين شعب وآخر وفي داخل كل شعب على حدة .

بل نقول ان هذه النزعات متعـاصرة متجاورة في نفس كل فرد ، وان لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في اقامة الحياة الانسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها . ففي الوقت الذي نفسر فيه الحوادث المـادية بأسبابها المباشرة خارجية او داخلية ، فنقول : هلك فلان بضربة سيف ، أو بالشيخوخة أو المرض ، لا يزال كل واحـد منا يفسر الحـوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر او بسبب غيبي مجهول .

وإذن فهذه النزعات جميعاً داخلة في التكوين النفسي للانسان ومقومة له ، ولا يمكن أن يوجد تكوين نفسي سليم بدون تعاون هـذه النزعـات جميعاً والتقائها جميعاً .

فكما اننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية ، او النزعة التعليلية كذلك لا نجد امارة واحـدة تدل على ان فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الانسان .

يقول سالمون ريناك :

« ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ، بل لنا ان نكون على يقين من أنه سيبقى شيء منها ابداً ، ذلك لانه سيبقى في الكون دائماً اسرار ومجاهيل ، ولأن العلم لـن يحقق ابداً مهمته على وجه الكمال » .

ويقول الدكتور ماكس نوردوه عن الشعور الديني :

« هذا الاحساس أصيل يجده الانسان غير المتمدين ، كما يجده اعلى الناس تفكيراً ، واعظمهم حدساً ، وستبقى الديانات مـا بقيت الانسانية ، وستتطور بتطورها[1] وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة » .

ويقول ارنست رينان في تاريخ الأديان :

« ان من الممكن ان يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطـــل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيـل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقـة على بطلان المذهب المادي الذي يريد ان يحصر الفكر الانساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية »[2] .

---

(١) فكرة أن الدين يتطور (يتغير) بتغير الانسانية فكرة غير صحيحة من وجهة النظر الاسلامية . فالإسلام هو يغير حياة الناس نحو الأحسن ، لا أنه يتكيف مع حياة الناس كيفما تغيرت ، وإلا لكان مبرراً للحياة ولم يعد منظماً للحياة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٤ – ٨٧ .

هذا هو القول الفصل في هذه المسألة : إن الدين خالد باق ما بقي الانسان على وجه الأرض ، وما أفكار أوجست كنت وأمثالها إلا غرور دفع إليه نمو البحث العلمي والاكتشافات العلمية من جهة وموقف عقلي ونفسي اتخذه العلماء والمثقفون الأوروبيون من الكنيسة من جهة أخرى . ويشهد عصرنا هذا تصحيحاً لهذا الموقف على نطاق واسع في أوساط العلماء والمفكرين .

وفيما يتعلق بتصور « كنت » لموقف الانسان من عملية فهم الطبيعة نختم هذا الفصل بالقول : ان التفسير الديني لا يضاد التفسير العلمي ولا يناقضه ، وإنما يكمله ، فالتفسير العلمي يتناول الظواهر ، والتفسير الديني يتناول السبب الأعمق الذي يوجد وراء كل الظواهر ، ولذلك فاننا مهما تيسرت لنا أسباب التفسير العلمي لا تستغني عقولنا ونفوسنا عن التفسير الديني . إن سؤال « لماذا » يبقى قائماً بعد كل تفسير علمي لظاهرة من الظواهر ، وكلما تقدمنا في التفسير العلمي مرحلة ، فان ما بعدها يواجه عقولنا بنفس السؤال « لماذا ؟ » . ان التفسير العلمي والتفسير الديني متكاملان إذن ، ولن يأتي وقت على الانسان يلغي أحدهما فيه الآخر على الاطلاق ، ولذا فان الدين من زاوية النظر هذه خالداً أيضاً بقطع النظر عن كونه حاجة كيانية للانسان ، بعيداً عن موقف الانسان من الطبيعة ومحاولته المستمرة لتفسيرها ، كما سنرى في الفصل التالي :

— ج —

وإذا كان الدين قد وجد مع الانسان وسيبقى ما بقي الانسان ، ولن يأتي على الانسانية وقت تكون فيه بلا دين — إذا كان أمر الدين بهذه المثابة فمن أين يستمد هذه الاصالة والثبات ؟.

في الجواب عن هذا السؤال نعيد هنا ما قدمناه في بعض فقرات هذا الفصل حين قلنا ان الانسان مفطور على التدين ، والتدين غريزة انسانية من الغرائز الأساسية فيه ، ولا يمكن الغاؤها من كيانه ، وتعطيلها في نفسه

بضروب من التربية والتوجيه و « غسل الدماغ » كما لا يمكن الغاء غرائزه الأخرى ذات الطابع الحسي أو النفسي .

والميل الديني – على هذا – أمر فطري ، داخل في تكوين كل انسان ، إلا أن هذا الميل قد يوجه توجيهاً خاطئاً ، فيعبر الانسان عن فطرته الدينية بأساليب خاطئة ومنحرفة ، وهذا ما يفسر لنا انتشار الدعوات الدينية الضالة والمنحرفة بين اولئك الذين لم تصل اليهم كلمة الله الحقة بصورة صحيحة وسليمة ، أو وصلت اليهم وحرفتها الأهواء .

« واذن فالدين ليس ظاهرة تاريخية ترتبط بظروف اجتماعية معينة ، وانما هو خاصة انسانية وجدت مع الانسان ، وستبقى خالدة وباقية ما بقي الانسان » .

وهذه الفطرة يجدها الانسان في كيانه ، كلما تجرد من ملابسات حياته اليومية ومشاغلها العابرة ، وخلا إلى نفسه وحدها ، إنها حينئذ تظهر جلية قوية غلابة كلما واجه الانسان سؤالاً من هذه الاسئلة الكبرى التي تحيط بالحياة كلها وبالوجود والأحياء : عن مبدأ الكون ونهايته والغاية منه ، عن سر الحياة والموت ، عن النظام الكوني ، عن الانسان وملكاته ومواهبه ونظام جسده ، وعقله ، ومن مصدر هذا كله ومدبر هذا كله .

واذا كان التدين فطرة ملابسة للانسان على هذا النحو فان محاولة الغائها من كيانه هي محاولة لمسخ الانسان وتشويهه ، على انها محاولة فاشلة لا تقضي على الفطرة وإنما تنحرف بها عن مسارها الصحيح وصراطها المستقيم لتعبر عن نفسها باساليب ملتوية شاذة تتجه إلى الأشخاص والافكار ومظاهر الطبيعة .

وهل أفلحت حركة الالحاد في التاريخ في أن تكون الانسان الملحد الحقيقي ؟ انها لم تفلح في ذلك أبداً لأنه لا يمكن أن يوجد إلحاد حقيقي أبداً ، لأن ذلك كما قلنا يتعارض مع الكيان الانساني. الذي وجد في التاريخ

من حركات الالحاد أفلح في أن يحمل فريقاً من الناس على أن يتنكروا للدين في صيغه السائدة ، وان ينكروا هذه الصيغ بألسنتهم ، ثم يلتمسوا غذاء فطرتهم في صيغ أخرى ليس لها اسم الدين ، ولكنها دين بما تؤديـــه من وظيفة وبما تقابل به من تقديس ديني لها مهما أسبغ عليها منصفات أخرى ، ويكفي أن نلاحظ كيف تركز مجتمعات الالحاد القــديم والمعاصر على رموز تتعلق بالأشخاص ، والتماثيــل ، والأرض ، والأفكار ، والنصب التذكارية لنرى ان قيادات هذه المجتمعات قد استبدلت آلهة بآلهة ، وطقوساً بعبادات ، وبالنهاية استبدلت ديناً بدين . ولنر مثلاً من عصرنا الحاضر في ركيزة الالحاد في العالم المعاصر ، في الاتحاد السوفياتي كيف يأتي الألوف من الناس لزيارة قبر لينين وكيف يتقدمون نحوه في خشوع ، وكيف يقفون عنده في خشوع ، فاننا سنقتنع بان القوم يعبدون هذا الرجل ، وانهم يشبعون غريزتهم الدينية أو جانباً منها عن هذا الطريق .

— د —

وقد حقق الله تعالى بحكمته ورحمته اشباع هذه الغريزة عن طريق الدعوات الدينية التي أرسل بها أنبياءه ورسله صلواته عليهم أجمعين ، هــذه الدعوات التي روعي فيها نمو الانسان العقلي والعاطفي ، فكانت هذه الدعوات تنقــل الانسان من مرحلة إلى مرحلة أخرى أفضل منها تتزكى فيها نفسه ، ويزداد معرفة ورشداً .

وكانت خاتمة هذه الدعوات هي دعوة الاسلام التي اكمل الله بهــا كلمته وأتم بها حجته على الخلق كلهم ، وأخرجهم بها من الظلمات كلها إلى النور كله . وقد كان النبي محمد ﷺ خاتم النبيين وكان الاسلام خاتمة الدعوات التي انزلها الله الى الناس .

وإذ كان الاسلام آخر ما شرعه الله تعالى للناس فقد جعل الله تعالى فيه

الصلاح والخير لجميع الناس لأنه دين عالمي ، وفي جميع ما يستقبل الناس من الأزمات لانه دين خالد .

* *

والإسلام دين الفطرة السليمة المستقيمة ، فلا غموض فيه ولا أسرار ، وحق ما لا يدركه العقل البشري من اسرار تعاليمه وعلل أحكامه قائم في النهاية على أساس عقلي واضح منير ، بحيث يعي العقل بوضوح عجزه عن ادراك ذلك ، لأنه خارج عن دائرة عمله وادراكه .

قال الله تعالى :

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون »[1] .

وللعلامة المحقق السيد محمد حسين الطباطبائي كلام جيد في تفسير هذه الآية المباركة رأينا أن نثبته هنا ، يقول :

« إقامة الوجه للدين الاقبال عليه بالتوجه إليه من غير غفلة عنه ، والمراد بالدين هنا الاسلام .. وهذا الدين هو الذي تستجيب له الخلقة وتهدي اليه الفطرة الالهية التي لا تبديل لها.

« وذلك انه ليس الدين إلا سنة الحياة ، والسبيل التي يجب على الانسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للانسان يتبعها إلا السعادة ؛ وقد هدى الله كل نوع من انواع الخليقة الى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته ونوع خلقته ، وجهز كيانه بما يساعده على بلوغ تلك البغية . قال تعالى : « ربنا

---

(١) سورة الروم (مكية) الآية : ٣٠ .

الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[1] وقال : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى »[2] .

« فالانسان كسائر الأنواع مفطور على فطرة تهديه الى بلوغ الكمال وتمكنه من إدراك ما ينفعه وما يضره في حياته ، قال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »[3] وقد اودع الله تعالى في كيانه ما يمكنه من انجاز مقاصده التي تحقق له الكمال والسعادة ، قال تعالى : ثم السبيل يسره »[4] .

فللانسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة وسبيل معينة ذات غاية محددة ليس له اذا أراد الكمال والسعادة ان يسلك غيرها ، والى ذلك يشير قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وليس الانسان في الدنيا إلا نوعاً واحداً لا يختلف ما يضره وما ينفعه بالنظر الى كيانه المؤلف من روح وجسد ، فثمة سعادة واحدة للنوع الانساني كله ، ولذا فان ما يؤدي إلى هذه السعادة هو طريق واحد ، تهدي اليه الفطرة الواحدة في الناس جميعاً وهي لا تختلف باختلاف الأوطان والازمان ولذا قال الله تعالى بعد ذكر الفطرة : « لا تبديل لخلق الله » .

« فلو اختلفت سعادة الانسان باختلاف أفراده لم يكن من الممكن وجود مجتمع واحد تتوفر لجميع افراده السعادة المطلوبة

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥ .

(٢) سورة الاعلى ، الآية : ٣ .

(٣) سورة الشمس ، الآية : ٨ .

(٤) سورة عبس ، الآية : ٢٠ .

ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة لكان الانسان انواعاً مختلفة باختلاف المناطق الجغرافية، ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة لاختلفت نوعية كل جيل عمن تقدمه وعمن يخلفه ، ولما كان من الممكن تصور أن المجتمع الانساني يتجه نحو التكامل ، إذ لا بد من أساس ثابت مشترك بين الأجيال كلها ينسب اليه النقص والكمال، وليس هو الا الفطرة الواحدة في الناس جميعاً .

« وليس المراد بهذا انكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأزمنة أو الأمكنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة . بل المراد اثبات أن الأساس للسنة الدينية هو الفطرة الانسانية التي هي حقيقة واحـــدة ثابتة مشتركة بين افراد الانسان في جميع الاوطان والأزمات، وهي التي توجه الانسانية آخذة بنظر الآعتبار القوانين التي تختلف باختلاف الافراد او الأزمنة او الأمكنة » .

وهذا هو الذي يشير اليه قوله تعالى : « ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون »[1]

واذن فالاسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً هو الدين الذي يستجيب لهذه الفطرة الواحدة الثابتة في الناس جميعاً مهما اختلفت اوطانهم وأزمانهم ومناشئهم .

ولأن الاسلام دين الفطرة ، فان النظم التي اشتملت عليها شريعة الاسلام

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن ط دار الكتب الاسلامية — طهران ج ١٦ ص ١٨٦ — ١٨٨ / بتصرف في بعض الجمل لايضاح الفكرة .

خالدة لا يمكن أن تتبدل أو تتغير أو تلغى ، لأنها شريعة الله تعـالى العالم بخلقه وبما يصلحهم ، ولذا فان ما شرعه لهم هو المحقق لسعادتهم ، لانسجامه مع فطرتهم الثابتة فلا معنى لأن يتبدل بتبدل الأحوال والظروف مـا دام أساس النوع الانساني ، وهو الفطرة ، ثابتاً لا يتغير ولا يزول .

ومن هنا فلا يمكن مقارنة الاسلام بالقوانين والنظم الوضعية التي يغيرها الناس في كل حين ، ذلك لأن المشرعين من البشر ليس لديهم من الاحاطـــة والمعرفة ما يتيح لهم الاطلاع على حاجات الانسان الروحية والعقلية والجسمية والنفسية في اطواره المختلفة ، وحالاته المتنوعــة ، وما يصلحه وما يفسده في خاصة نفسه ، وفي نطاق أسرته ، وفي نطاق مجتمعه الانساني ، لأن هؤلاء المشرعين ليسوا إلا بشراً كسائر الناس ، محدودي القدرة والمعرفة ، متغيري الأمزجة والعواطف ، يعرض لهم الزلل باستمـــرار ، وتتوارد عليهـم علل العقول والنفوس . والأجسام دائماً ، وما أكثر ما يقعون في الاخطـاء حين يقدرون ويدبرون لخاصة انفسهم ولمن عظم حبهم له وحرصهم على خيره وبره ، فكيف وهذه حالهم يسعهم أن يشرعوا قانوناً يصلح للناس في جميع شؤونهم وأحوالهم ، وآية عجزهم عن ذلك هــذا الفساد الذي ينتشر في ظل قوانين الاصلاح ، وهذا الشر الكثير الذي ينتشر في ظل قوانين الخير ، مما يحمل على القول بأن القوانين الوضعية تنظم الفساد القائم ومــا يتجدد منه نتيجة لجهالات الانسان وضلالاته حين يدع جانباً توجيه الله له ، ان هــذه القوانين تنظم الفساد بدل أن تقتلعه من جذوره وتقضي على اسبابه .

وها هو الانسان المعاصر — والانسان الغربي منه بوجه خاص — يفقـد في ظل القوانين الوضعية انسانيته باستمرار نتيجة للظروف الاجتماعية والنفسية التي تنشئها هذه القوانين أو تعترف بهـــا وتنظمها . ونحن نلاحظ أن العالم الغربي كان ينحدر نحو الهاوية في اخلاقه نتيجــة للفساد الذي ينمو والذي لا تصنع القوانين شيئاً في دفعه وانما تجعل كل فساد جديد بعد ان ينتشر ويعم شيئاً قانونياً يتسم بالشرعية ، ويحتمي ممارسوه بالقانون .

أما الإسلام فشيء آخر . إنه شريعة الله تعالى العالم بما يصلح الانسان ويفسده ، انه الشريعة التي تحول بين الفساد وبين أن يولد ، وتجتث جذوره من داخل النفس ، وتقضي على ما تسرب منه الى واقع الحياة فلا تبقي له اثراً، أو تضطره إلى ان يقل ويذل ، فلا يشكل خطراً على المجتمع ، ان الاسلام دين الفطرة فكل دعوة الى تجاوز الاسلام في التشريع والتنظيم دعوة ضالة لانها ناشئة إما عن جهل بحقيقة الاسلام باعتباره ديناً منزلاً من عند الله فلا يقاس بالقوانين الوضعية المنشأة من قبل البشر ، وإما عن عداء للاسلام يراد منه اضعاف تأثير الدعوة إلى انبعاث اسلامي فعال في العصر الحديث يهدد مشاريع الاستعمار الجديد في السيطرة الفكرية والاقتصادية على العالم الاسلامي .

إن خلود الاسلام أمر نابع من طبيعة الاسلام ، من كونه دين الفطرة الإنسانية ، إنه يمثل العنصر الثابت في الإنسان ، واذا شاء المسلمون أن تستقيم حياتهم بعد ان تآكلها الفساد من كل جانب فليس أمامهم إلا أن يقيموا حياتهم على الإسلام ، وان يأخذوا بتنظيم حياتهم كلها على هداه . ولن يجد المسلمون بديلاً لهذا الدين تستقيم عليه حياتهم كاحسن ما تكون الاستقامة ، وتصلح عليه امورهم كاحسن ما يكون الصلاح ، ولم يدخل الفساد والوهن على حياة المسلمين ، ولم يتسرب الشر الى جماعتهم إلا حين تخلوا عن روح الإسلام وتمسكوا باشكاله ، ثم عظم الخطب ، وشمل الفساد حين تخلوا عن شكله وروحه جميعاً ، وعلى الواعين في القيادات الدينية والفكرية والسياسية أن يقوموا بواجبهم في الدعوة إلى الله تعالى ، وإلى التمسك بشريعته قبل أن تأخذ الجاهلية الحديثة علينا كل سبيل .

« فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم في شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون » [1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٧ – ١٣٨ .

هذه طائفة من المبادىء العامة في الاسلام أردنا من بيانها أن توضح ما لهذا الدين السامي من فضل على البشرية في اخراجها من ظلمات الجاهلية التي كانت سائدة فيهـــا الى نور الهداية والايمان ، وإلى مستوى الإنسانيــة الراشدة المستقيمة ومـــا نتطلع اليه من دور حاسم لهذا الدين في خـلاص البشرية من جاهليتها الحديثة التي توشك أن تقوّض كل معالم الخير والحق فيها .

الجاهلية الحديثة



الجاهلية

هذا اللفظ من الألفاظ التي أدخلها الاسلام في اللغة العربية وضمنها مفهوماً إسلامياً . وقد وردت في الكتاب والسنة .

وقد أطلق هذا اللفظ صفة للعرب الذين عاشوا قبل ظهور الاسلام ، أو عاصروا ظهور الاسلام ولم يسلموا ، ومن هنا ارتبط معناه الى حد كبير في كتب الأدب والتفسير بفترة ما قبل الاسلام .

وقد اضطربت الآراء في المعنى الذي أريد من هذا اللفظ .

فقد فهم كثير من الباحثين ، ومنهم طائفة من المستشرقين، ان هذا اللفظ مشتق من الجهل ضد العلم والمعرفة . ولما كان العرب قبل الاسلام جاهلين بالعلوم والمعارف فقد وسمهم الله تعالى بهذه الصفة .

وهذا المعنى هو ما يوحي به لفظ « الجاهلية » لأول وهلة .

ورأى آخرون أن اللفظ ليس مأخوذاً من مطلق الجهل ، وإنما هو مأخوذ من جهل خاص هو الجهل بالله ورسوله ، وشرائع الدين . ومن هؤلاء الدكتور فيليب حتي ، قال : « إنها – الجاهلية – الفترة التي خلت فيها الجزيرة من أي قانون ، أو نبي موحى اليه ، أو كتاب منزل [1] » .

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) ج ١ .

ويرى المستشرق كولد تسيهر أن المقصود من كلمـة جاهلية هو السفه — الذي هو ضد الحلم — والانفة ، والخفة ، والغضب ، وما الى ذلك من معان. وقد يستشهد لذلك بقول الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا(١)

وثمـــة رأي يستند إلى فهم ماركسي للتاريخ ، يعتبر ان الجاهلية هي « البربرية » في علم الاجتماع ففي طور البربرية « يبدأ الانسان باستخدام الحديد لصنع آلاته وأدواته ثم ينتقل بعـــده الى طور الحضارة نتيجة لاكتشافه الكتابة بحروف هجائية» — على حد تعريف انجلز لطور البربرية الذي ينتقل الانسان منه الى طور الحضارة — « فقبـل الجاهلية كان عرب الجزيرة قـد بلغوا المرحلة التي تم فيها توزيـع العمل ، أي انقسام الناس هناك الى اهل فلاحة وزراعة ، وأهل وبر — أي تربية الانعام — أما في الجاهلية فقد بلغوا المرحلة التالية ، وهي انقسام المجتمع الى أهـل الصنائع والزراع ... والواقع ان عرب الجزيرة في القرنين الخامس والسادس كانوا يمرون في مرحلة انتقالية من الجاهلية الجهلاء الى الحضارة والتمدن (٢) » .

فالجاهلية — وفقاً لهذا الرأي — اسم لمرحلة اجتماعية (البربرية) تقابل مرحلة الحضارة .

* *

هذه هي الآراء التي رفعت الينا في معنى هذا اللفظ في الكتاب والسنة .

---

(١) لاحظ ، أحمد أمين ، فجر الاسلام — الطبعة السابعة ، .

(٢) ي . أ . بلياييف : العرب والاسلام والخلافة العربية — تعريب : الدكتور انيس فريحة ، مراجعة وتقـــديم الدكتور محمود زايـــد (الدار المتحدة للنشر — بيروت ١٩٧٣) ص ١١٢ — ١١٣ .

ولكن التحقيق في موارد استعمال مادة (ج . هـ . ل) ومشتقاتها – وعلى الخصوص كلمة (جاهلية) – في كتاب الله تعالى يكشف عن ان هذا اللفظ يراد منه ما يقابل كلمة إسلام تماماً . وبذا يكون المراد من (جاهلية) : « منهج في الحياة مقابل ومضاد لمنهج الاسلام » .

فقد وردت مادة (ج . هـ . ل) في القرآن الكريم في الصيغ التالية (تجهلون – يجهلون – الجاهل – جاهلون – الجاهلون – جاهلين – جهولا – بجهالة – الجاهلية) .

والمعاني التي عبر عنها بهذه الصيغ ثلاثة :

١ – الخلو من المعرفة .

٢ – الطيش والسفه .

٣ – المذهب والطريقة (ما يقابل الاسلام من مناهج الحياة) .

فمن الآيات التي وردت فيها هذه المادة بمعنى عدم العلم قوله تعالى :

« للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً [1] » .

فان الجاهل هنا هو الذي لا يعرف حالهم ، ويؤخذ بظاهرهم فيحسبهم اغنياء وهم في الواقع فقراء .

* *

ومن الآيات التي وردت فيها هذه المادة بمعنى الطيش والسفه قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٣ والآية : ٧٢ من سورة الاحقاف .

« إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً[1] ».

فان الجهالة هنا هي السفه والطيش وما إلى ذلك من الميول التي تنشأ عن ضعف الانسان أمام الرغبة والرهبة فتدفعه الى عمل السوء وهو عالم به ، ولكنه يستجيب لنداء نوازعه النفسية فيعمل السوء ثم يثوب الى الله فيتوب.

ونلاحظ أن الآيات التي وردت فيها هذه المادة بمعنى الطيش والسفه كثيراً ما يرد فيها هذا المعنى ملابساً للمعنى الثالث ، وهو النهج المقابل للاسلام .

ومعظم ما ورد من صيغ هذه المادة في كتاب الله تعالى ورد بمعنى المذهب والطريقة ، والمراد به ما يقابل الاسلام من مناهج الحياة . وهذه الآيات ليست مقصورة على الاشارة الى النهج المقابل للاسلام في صيغته الاخيرة كما بيّنها الله تعالى على لسان محمد ﷺ أو على القوم المقابلين المسلمين من اتباع الرسالة المحمدية ، بل وردت في كتاب الله تعالى صفة للمناهج المقابلة للاسلام وللأقوام غير المسلمين على عهد جميع الأنبياء سلام الله عليهم الى عهد محمد ﷺ.

ونلاحظ أن في القرآن الكريم ، حيث وردت هذه المادة بهذا المعنى ، سياقين : أحدهما يقابل بين النبوات واتباعها وبين الجاهلين . وثانيهما وردت فيه المادة بصيغة (الجاهلية) ويتناول مواقف معينة ، وترد فيه المادة بصيغ الفعل المضارع ، واسم الفاعل .

وفيما يلي نستعرض بعض الآيات التي وردت في السياق الأول . ونلاحظ أن هذه الآيات تناولت مظاهر معينة من المواقف الجاهلية المقابلة للاسلام .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٧ ، ولاحظ الآية : ٥٤ من سورة الانعام ، والآية : ١١٩ من سورة النحل .

منها قوله تعالى حكاية عما دار بين نوح وقومه :

« ..ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ... ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجري إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ، ولكني أراكم قوماً تجهلون [1] » .

فانهم في حوارهم مع نوح كشفوا عن تصورين جاهليين عندهم . أحدهما تصورهم للنبوة ، وانها لا تكون لبشر مثلهم . وثانيهما تصورهم لقيمة الانسان التي يرونها رهينة بما يملكه الانسان من ثروة ، أو بما ينتسب اليه من سلالة وعشيرة . وقد أدى بهم هذان التصوران الجاهليان الى السخرية من نوح واتباعه ورميه ورميهم بالكذب في دعوى الرسالة الإلهية التي أعلنها نوح عليه السلام ورفضهم لها .

**

ومنها قوله تعالى في شأن موسى وبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر :

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال : انكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون [2] » .

فإن تصور بني إسرائيل للاله سبحانه وتعالى على أنه ينبغي أن يكون

---

(١) سورة هود (مكية) ، الآية : ٢٥ — ٣٤ .
(٢) سورة الاعراف (مكية) ، الآية : ١٣٨ — ١٣٩ .

مجسداً في جسم مادي تدركه حواسهم ، أو أن يرمز اليه بجسم مادي — هذا التصور تصور جاهلي للألوهة كان لا يزال قاراً في عقليتهم ، ولم يكونوا قد وعوا بعد معنى الألوهة الحقيقي كما جاء به موسى عليه السلام .

* *

ومنها قوله تعالى حكاية عما جرى بين هود عليه السلام وبين قومه عاد :

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ، ألا تعبدوا إلا الله ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا : أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما العلم عند الله ، وأبلغكم ما أرسلت به ، ولكني أراكم قوماً تجهلون [1] » .

ومن الواضح أنهم وصفوا بهذا الوصف لموقفهم الذي أعلنوه ضد رسالة الله تعالى كما بلغهم إياها هود عليه السلام ، وتمسكهم بما هم عليه من منهج في الدين والحياة توارثوه خلفاً عن سلف .

* *

ومنها قوله تعالى حكاية عما دار بين نبي الله لوط عليه السلام وبين قومه :

« .. ولوطاً إذ قال لقومه:أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه الا أن قالوا : أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون [2] » .

---

(١) سورة الاحقاف (مكية) ، الآية : ٢١ — ٢٣ .

(٢) سورة النمل (مكية) ، الآية : ٥٤ — ٥٦ .

فان وصفهم هذا جاء من طريقتهم في الحياة الشهوانية الفاقدة لأي محتوى أخلاقي ، ورفضهم لمنهاج الله تعالى كما جاءهم لوط عليه السلام .

* *

ومنها ما جاء من قوله تعالى في شأن محمد رسول الله ﷺ والمشركين من قومه :

« وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون . خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين [1] » .

فان الآية الأولى وما قبلها تصفهم بالاصرار على مواقفهم ضد رسالة الله تعالى ، ومحاربتهم للهدى الذي جاء به رسول الله ﷺ ، ومن هنا وصفوا بـ « الجاهلين » الذين ينهجون في حياتهم طريقاً غير طريق الله تعالى .

* *

ومنها قوله تعالى في بيان حال قوم من المسلمين في مقابل غيرهم :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً [2] » .

فان الظاهر من لفظ الجاهلين هنا وإن كان هو: السفهاء . إلا أننا نلاحظ أنهم قد وضعوا في مقابل المسلمين المستنيرين بالإسلام « عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ... » هؤلاء الذين عددت الآيات التالية صفاتهم

---

(١) سورة الاعراف (مكية) ، الاية : ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) سورة الفرقان (مكية) ، الآية : ٦٣ .

الإسلامية ، ومن هنا فان معنى السفه والطيش يلابس معنى المنهاج والطريقة الفاسدة التي كان هؤلاء الجاهلون يلتزمون سلوكها في حياتهم .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

« .. الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به ، إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون . واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا : لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين [1] » .

فان هذه الآيات تحكي موقفين لفريقين من الناس: موقف المسلمين، وموقف الجاهلين الذي يتبرأ منه المسلمون فيقولون : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » .

* *

هذه الآيات الكريمة التي وردت في السياق الأول ، وكانت المقابلة فيه بين المسلمين وأتباع غير الإسلام ، وبين طريق الله تعالى وطريق الضلالة . وقد جاءت الآيات التي تحتوي صيغ هذه المادة في هذا السياق لتضيء سلوكاً معيناً ، أو رؤية خاصة ، كما جاءت في بعض الآيات وصفاً للأشخاص . فهي تدل على أن الموقف المعين موقف غير إسلامي وعلى أن أصحاب هذا الموقف لا ينطلقون فيه من قاعدة إسلامية .

والآيات في هذا السياق كلها مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ الى المدينة .

* *

---

(١) سورة القصص (مكية) ، الآية : ٥٣ – ٥٥ .

السياق الثاني هو ما وردت فيه مادة (ج . ه . ل) بصيغة « الجاهلية » ، وهو أربع آيات هي قوله تعالى في سورة آل عمران في شأن ما جرى على المسلمين في معركة أحد :

« .. ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد اهمتهم انفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الامر من شيء ؟ قل ان الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك . يقولون : لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور [1] » .

وقوله تعالى في سورة المائدة في شأن الحكم بين الناس :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون [2] » .

وقوله تعالى في سورة الاحزاب في شأن نساء النبي ﷺ :

« وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ،

---

(١) سورة آل عمران (مدنية) ، الاية : ١٥٤ .

(٢) سورة المائدة (مدنية) ، الاية : ٤٩ – ٥٠ .

وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً [١] ».

وقوله تعالى في سورة الفتح في شأن صلح الحديبية :

« هم الذين كفروا . وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً ان يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تزيّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، والزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها واهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً [٢] » .

---

(١) سورة الاحزاب (مدنية)، الاية : ٣٣ – (الجاهلية الأولى) المفسرون على أن المراد بالأولى هنا القديمة من قبيل (القرون الاولى) وعلى هذا فالمراد بـ (الجاهلية الاولى) جاهلية الكفر قبل الاسلام، وتكون الجاهلية الاخرى هي جاهلية الفسوق والفجور في الاسلام، فكان المعنى: لا تحدثن بالتبرج جاهلية في الاسلام تتشبهن فيها بأهـل جاهلية الكفر ، وعلى هـذا فلا تكون الاية مشيرة الى وجود جاهليتين.ويرى بعض الباحثين ان ثمة جاهليتين: جاهلية الفطرة ، وجاهلية الفترة . والاولى هي الجاهلية غير المسبوقة بحضارة ولا دين ، والثانية هي ان يكون للأمة حضارة فقدتها وتدهورت حياتها بعدها. وجاهلية العرب جاهلية فترة موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة او حضارات سابقة ، والقرآن الكريم يشهد للعرب بحضارات سابقة ، فهم على دين ابراهيم ، وكان فيهم انبياء الله : هود ، وصالح ، وشعيب ، ولكل رسالة دين ولكل دين حضارة .

إذا صح هذا فيمكن ان يكون قوله تعالى (الجاهلية الاولى) اشارة الى عرف قديم في تبرج النساء سابق على جاهلية الفترة ويرجع في تاريخه الى جاهلية الفطرة ، والله تعالى أعلم .

(٢) سورة الفتح (مدنية) ، الاية : ٢٥ – ٢٦ .

هذه هي الآيات المبـاركة التي وردت في هذا السياق ، ونأخذ الآن في بيان المراد منها لنخلص من ذلـــك الى معرفة الحقيقة الواحدة التي تسري فيها جميعاً .

* *

قال الزمخشري :

« (غير الحق) في حكم المصدر ، ومعناه : يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب ان يظن به و (ظن الجاهلية) بدل منه ... وظن الجاهلية ، كقولك: حاتم الجود ، ورجل صدق : يريد الظن المختص بالملة الجاهلية [1] » .

ونلاحظ أن الاستعمال في بقية الآيات في هـــذا السياق جرى على هذا النسق : (ظن الجاهلية – حكم الجاهلية – تبرج الجاهلية – حمية الجاهلية). فكما أن ثمة ظناً بالله مختصاً بالملة الجاهلية ، كذلك يوجد حكم مختص بالملة الجاهلية ، وتبرج مختص بالملة الجاهلية ، وحمية مختصة بالملة الجاهلية .

ومن هذا يتبين أن الجاهلية في هذه الموارد كلهـا لم تكن صفة للأشياء ، وإنما جاءت مرجعاً تقاس عليه الأشياء . ثمة ظن بالله معين له آثار سلوكيـة معينة ، مختص بالملة الجاهلية يباين مباينة كاملة . ظناً آخر ، له آثار سلوكية أخرى مختص بما يقابل الجاهلية وينفيها ، وهو الإسلام ، وهكذا الحال في سائر الأشياء : إذا نسبتها الى الجاهلية كان لهـا معنى وآثار سلوكية تختلف عن معناها وآثارها السلوكية إذا نسبتها الى الاسلام ، التبرج وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع ، الحكم بين النـــاس وطبيعة المركز الحقوقي

---

(١) محمود بن عمر الزمخشري (الكشاف عن حقـــائق غوامض التنزيل) الناشر : (دار الكتاب العربي) – بيروت – لبنان – ج ١ ص ٤٢٨ .

للانسان في المجتمع ، النزعة الذاتية وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين الناس ، وغير ذلك .

وإذن « الجاهلية » طريقة ومنهاج في الحياة يقضي على ملتزمه بألوان معينة من السلوك والمواقف والعواطف والعلاقات الانسانية . إن الجاهلية ليست صفة لهذه المواقف والعواطف والعلاقات ، وإنما هي منبع لها وقاعدة تنطلق منها .

ولم ترد « الجاهلية » في هذه الآيات منسوبة الى قوم بعينهم ، وإنما وردت مطلقة مجردة عن النسبة ، لأنها منسوب اليها وليست منسوبة إلى شيء ، إنها النظام من حيث هو طريقة حياة .

أي نظام ؟

إنها النظام المقابل للاسلام .

وسنرى أن الله تعالى وضع النهج الجاهلي في مقابل النهج الاسلامي في هذه الآيات .

كما سنرى أن المواقف المعروضة في هذه الآيات ، والتي أدت اليها طريقة الحياة الجاهلية ليست مواقف نظرية لا تعني أحداً من الناس غير أصحابها ، وإنما هي مواقف عملية في الحياة العامة تمس حياة الكثير من الناس الذين يتعامل معهم هؤلاء الجاهليون . كما ان المواقف الإسلامية المقابلة لها ليست مواقف نظرية ، وإنما هي مواقف عملية في الحياة العامة . إن هذه الملاحظة في هذا الباب تكشف لنا عن موقف إسلامي عام – ولا ننسى أن الاسلام هو الذي يعرض مشكلة التنافي والتعارض بينه وبين النهج الجاهلي – هذا الموقف نجده في كل صغيرة وكبيرة من أحكام الاسلام وتوجيهاته وهو العلاقة التفاعلية بين النظرية وبين التطبيق، بين الفكر وبين العمل ، فالنظرية مجردة عن تطبيقاتها العملية لا قيمة لها ، ولا تستدعي لصاحبها وضعاً حقوقياً

وموجبات قانونية ، والتطبيق مجرداً عن خلفية نظرية يدخل في باب الأفعال العشوائية التي لا تستدعي لصاحبها وضعاً حقوقياً وموجبات قانونية ، اللهم إلا إذا مست حياة ، أو سلامة ، أو ممتلكات إنسان ، فانها في هذه الحالة تستدعي وضعاً قانونياً في الضمان المالي لا يتعداه الى مس الشخص الانساني .

سنرى أن آية آل عمران تناولت بالبيان ظن الجاهلية بالله تعالى من حيث انه موقف نظري أدى الى مواقف عملية في المجتمع الاسلامي ، وان آية المائدة تناولت بالبيان النظرة الجاهلية الى قيمة الانسان ومركزه وكرامته من حيث تطبيق هذه النظرة على ممارسة العدالة وتطبيقها بين الناس في المجتمع. وأن آية الأحزاب أشارت الى النظرة الجاهلية الى المرأة وعلاقتها مع الرجل في المجتمع من حيث هي ممارسة يومية. وان آية الفتح تناولت العقلية العاطفية الانفعالية لدى الجاهلي من حيث هي سلوك لا من حيث هي حالة نفسية فحسب .

إن الآيات المباركة المتقدمة قد تناولت كليات الوضع الانساني ، فبينت الموقف الجاهلي وضده الاسلامي في هذه الكليات :

١ ــ علاقة الانسان بالله وعلاقة الله بالأحداث من خلال العمل البشري .

٢ ــ المركز القانوني للانسان بالنسبة الى انسان آخر .

٣ ــ علاقة الرجل والمرأة في المجتمع .

٤ ــ أسلوب التعامل بين الناس : قيادات وأتباعاً ، في القضايا العامة .

* *

ظن الجاهلية في آية آل عمران التي تضمنت مع غيرها من الآيات في السورة ما جرى على المسلمين في معركة أحد ، ومواقفهم النفسية ، واستجاباتهم

وردود فعلهم أمـــام الأحداث ـ ظن الجاهلية هو تصورهم المنحرف لحقيقة علاقة الله بالانسان وعلاقة الله بالأحداث من خلال العمل البشري .

فقـد كانت الطائفة الذين « أهمتهم أنفسهم » يعتقدون أن كون الإسلام حقاً من عند الله تعالى يقضي بألا يغلب على الاطلاق ، وأن على الله أن ينصره على كل حال ، وان كانت قوانين الأسباب والمسببات تقضي بالهزيمة في موقع من المواقع ، ولما كان النبي ﷺ مرسلاً من عند الله تعالى بهذا الدين الحق فلا بد أن ينتصر ، فلمـا هزموا في أحد بحكم قـانون الأسباب والمسببات جعلوا هزيمتهم بابـاً من أبواب الشك في إيمـانهم : « هل لنا من الأمر من شيء ؟ » والأمر الذي يتساءلون عما إذا كان لهم منـــه شيء هو النصر على مشركي مكة ، لماذا لم ننتصر ؟ أليس الإسلام الذي حارب المشركين في أحد حقاً ؟ فلماذا لم ننتصر ؟ لقد تصاعد الشك في أنفسهم فتحول إلى ردة : « لو كان لنا من الأمر شيء مـا قتلنا هاهنا .. » لقد اتخذوا قتل من قتل منهم دليلاً على أن ليس لهم من الأمر شيء ، ولما كان افتراض أن الحق لا بد ان ينتصر ، فما هم عليه ، إذن ، ليس بحق . ونلاحظ أنهم استخدموا كلمـــة « لو » الامتناعية ، التي تعني أنهم جزموا بأنهم ليس لهم من الأمر شيء ، وإذن فهم ليسوا على حق .

لقد بيّن الله لهم أن هذا التصور هو الذي جعلهم « يظنون بالله غـير الحق ، ظن الجاهلية » ، بيّن الله تعـالى لهم ان فكرة حتمية انتصار الحق بمعزل عن نوعية العمل البشري الذي يحتضنه هي فكرة جاهلية ، لأن علاقة الله بالأحداث ليست علاقة سحرية يتم فيها الإنجاز من خلال المعجزات ، وإنما هي علاقة يتم فيها الانجاز بتوجيه الله تعـــالى من خلال القانون الكوني العام الذي وضعه الله للاسباب والمسببات . وإذن ، فليس لأحد متوهم أو حقيقي حق ولو كان نبياً تأثير مستقل عن إرادة الله تعالى في أي شيء من الاشياء . وقد بيّن الله تعالى في مقطع سابق من سورة آل عمران أنه ليس للنبي ﷺ

من الأمر شيء : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين — ليس لك من الأمر شيء — أو يتوب عليهم ، او يعذبهم فانهم ظالمون — آل عمران ، ١٢٧ — ١٢٨ » .

فالآية الكريمة واردة لبيان الحقيقة الاسلاميـــة بالنسبة الى علاقة الله بالانسان والأحداث ، في مقابل الوهم الجاهلي بالنسبة الى هذه العلاقة .

* *

حكم الجاهلية في آية المائدة هو تنويع المركز القانوني بالنسبة إلى الناس حسب طبقاتهم في الغنى والفقر ، أو حسب سلالتهـم ، أو حسب مركزهم في المجتمع من حيث كونهم في قمة الهرم الاجتماعي أو في قاعدته ، فللاشخاص الممتـــازين بحسب انتمائهم الطبقي مركز قانوني ممتاز يعفيهم من كثير من المسؤوليات والواجبات التي تفرض على من لا يتمتعون بمركز طبقي ممتـاز ومن ثم فان مركزهم القانوني يكون أدنى من مركز أولئك .

هذا التنويع في المركز القانوني هو ما روي في سبب نزول هذه الآيات من سورة المائدة في اليهود الذين كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم الزموهم إياه ، وإذا وجب على أقويائهم بالغنى والشرف في الدنيا لم يأخذوهم بـه . ولكن مورد النزول لا يخصص إطـلاق الآيات ، فهي تتضمن حكماً عامـاً شاملاً لليهود ولغيرهم من الناس . فقد أدان الله تعالى في هذا المقطع من السورة المباركة من لم يحكم بما أنزل الله : « .. ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئـك هم الكافرون ، — ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون — ومن لم يحـكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون — المائدة ، الآيات : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ » .

وإذن فكل موقف حكم لا يراعى فيه العدل المطلق كما هو في منهاج الله تعالى فهو من حكم الجاهلية .

فحكم الجاهلية منهاجها في الحياة ونظامها المقابل للنظام الإلهي الحق الذي

هو الاسلام ، وقد بين الله تعالى هذه المقابلة بين حكم الجاهلية وحكم الاسلام فيما ورد قبل هذه الآية بقوله تعالى :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون . وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون »[1] .

فهذه الآيات تبين أن ثمة نظامين ، ومنهاجين في الحكم والحياة ، هما المنهاج الاسلامي والمنهاج الجاهلي ، وتجعل احدهما مقابلاً الآخر ومضاداً له ، فلا يمكن أن يجتمعا ويتآخيا في نظام واحد ومنهاج واحد .

* *

تبرج الجاهلية في آية الأحزاب هو أن تكون المرأة أنثى لجميع الذكور في المجتمع يستمتعون بأنوثتها بالنظر واللمس وغيرهما من صنوف الاستمتاع حين تستطاع . فعلاقة المرأة بالرجل وفقاً للنهج الجاهلي هي علاقة الانثى بالذكر زوجاً كان هذا الذكر أو أجنبياً وعلاقة الرجل بالمرأة في النهج الجاهلي هي علاقة الذكر بالانثى زوجة كانت هذه الانثى أو اجنبية .

---

(١) سورة المائدة (مدنية) الايات : ٤٨ — ٥٠ .

هذا في النهج الجاهلي .

أما في الاسلام فالأمر يختلف عن ذلك اختلافاً أساسياً .

ان المرأة انسان والرجل انسان . وعلاقة كل منهما بالآخر في المجتمع هي علاقة الانسانية وحدها ، علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع كعلاقة الرجل بالرجل وكعلاقة المرأة بالمرأة ، ليست علاقة الانوثة والذكورة ، ليست علاقة المتعة الجنسية بالنظر كانت او باللمس أو بغيرهما من صنوف الاستمتاع حين تستطاع ، أما المرأة من حيث هي أنثى ومصدر للاستمتاع الجنسي - باي لون كان - فانما تكون كذلك لزوجها فقط . وأما الرجل من حيث هو ذكر ومصدر للاستمتاع الجنسي - باي لون كان - فانما يكون كذلك بالنسبة لزوجته فقط . بالنسبة إلى غير الزوج المرأة انسان، والرجل انسان.

فاذا تبرجت المرأة خارج بيتها ، وإذا دخلت الحياة الاجتماعية متبرجة فقد تحولت إلى انثى ليس لزوجها فقط وانما انثى لكل رجل يراها فيستمتع بما يراه منها أو يلمسه ، ولا تكون علاقتها بالرجال الأجانب علاقة الانسان بالانسان،وإنما تكون علاقة الانثى بالذكر او علاقة الذكر بالانثى حسب ما يكون أحد الطرفين مركز جذب والطرف الآخر مركز استجابة .

وحينئذ تكون العلاقة بين الرجال والنساء في المجتمع علاقة جاهلية .

* *

وحمية الجاهلية في آية الفتح هي العقلية العاطفية الانفعالية التي تستحكم في نفس الانسان فتشعل أعصابه ، وتدفعه إلى أن يعامل الناس بروح العدوان فيحرمهم حقوقهم الطبيعية لمجرد انه يختلف معهم في الرأي والهوى، دون أن ينظر إلى موقفه نظرة موضوعية ليكتشف أنه محق أو مبطل ، على صواب في موقفه أو على خطأ .

لقد كان من حق رسول الله ﷺ أن يدخل وطنه مكة ، وكان من حق المهاجرين من اصحابه أن يدخلوا وطنهم مكة .

وقد كان من حقه وحق أصحابه جميعاً أن يدخلوا مكة يحجون إلى الله تعالى في بيته الحرام الذي يعظمه المسلمون أكثر من تعظيم قريش ، والذي لم تمنع قريش منه أحداً يريد تعظيمه .

ولكن قريشاً الجاهلية جعلت في قلوبها حمية الجاهلية فمنعت محمداً ﷺ من دخول مكة وهي وطـن فريق كبير منهم ، وبيت الله فيهـا مسجـدهم ومحجهم جميعاً . وبذلك تصرفت قريش بعقلية عاطفية انفعالية ، تصرفت بروح جاهلية .

ماذا كان رد الفعل عند رسول الله ﷺ والمسلمين ؟

لم يكن انفعالياً عاطفياً وإنما كان موضوعيـاً « أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنـين » فتلقـوا الأمر بهدوء ورصانة — بعد تذمر خفيف وغضب عارض . ومن حقهم أن يتذمروا ومن حقهم أن يغضبوا ، فقد حيل بينهم وبين حق لهم تعترف به قريش نفسها ، ولكنهم لم يسترسلوا في غضبهم وتذمرهم . فقد قبل رسول الله ﷺ مبدأ التفاوض ، ثم قبل مبدأ التعاهد ، ثم انتهت المفاوضة إلى أن تكتب المعاهدة .

ومحمد ﷺ رسول الله . الحاكم والقائد والمعلم لهذه الجماعة المسلمـة التي تتبعه على أنه رسول الله ومن شأن العهود دائماً أن تشتمل على القاب المتعاهدين المميزة . وقد دأبت قريش في عهودها أن تكتب « باسمـك اللهم » وهـي استعانة بالله ، و « بسم الله الرحمـن الرحيم » استعانـة بالله أجمل وأكمـل وأوفى .

ولكن قريشاً تأخذها الحمية الجاهلية وتأبى أن تستهل وثيقـة العهـد بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وتأبى ان تضيف إلى اسم الرسول ﷺ لقبه الشريف (رسول الله) .

فماذا كان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ؟

انه لم يكن انفعالياً عاطفياً ، وإنما كان موضوعياً « .. انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » واستجاب رسول الله لاعتراضات قريش ، وكتب العهد وفقاً للصيغة التي اقترحتها .

آية الفتح جعلت حمية الجاهلية التي هي عنوان الأخلاق الجاهلية في التعامل مع الناس خصوماً واصدقاء ، مقابل التقوى التي هي روح وعنوان الأخلاق الاسلامية في التعامل مع الناس خصوماً واصدقاء .

« ... إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، والزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها واهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً ».

وإذن فهما طريقان ومنهاجان : منهاج الجاهلية في الأخلاق ومنهاج الاسلام ، ولا يلتقيان .

* *

بقيت علينا ملاحظة أخيرة في هذه الآيات على جانب كبير من الأهمية :

إن هذه الآيات كلها مدنية نزلت بعد هجرة رسول الله ﷺ من مكة ، بينما كانت آيات السياق الأول كلها مكية . ولهذا فيما نرى دلالة عظمى .

وهذه الدلالة هي أن النهج الاسلامي قد بلوره الوحي بصورة كاملة بعد الهجرة وتأسيس المجتمع وقيام الدولة ، وبذلك فقد انفصل هذا النهج انفصالاً كاملاً ونهائياً عن النهج الجاهلي ، ولم تعد بينهما أية ملابسة أو التقاء في أي مفهوم من المفاهيم أو موقف من المواقف .

أما في العهد المكي فلم يكن معظم المسلمين قد وعي الإسلام كمذهب كلي شامل منفصل عما عداه لأن الوحي كان لا يزال ينزل بالمفاهيم الكلية للاسلام من جهة ، ولأن معظم المسلمين كان يحتاج إلى مضي وقت كاف لاستيعاب

الرؤية الجديدة للحقيقة المتجلية في الإسلام وكان يحتاج إلى معاناة لهذه المفاهيم في تطبيقات حية تجعل الأفكار جزءاً من مكوّنات الشخصية الانسانية ، وكانت في حياة معظم المسلمين – في العهد المكي – ملابسات من مفاهيم الجاهلية وأساليبها . ولذا فانهم لم يعوا بوضوح تام ان حياتهم منفصلة عن النهج الجاهلي انفصالاً كاملاً .

ولكن هذه الحالة تغيرت في العهد المدني بجميع ابعادها . لقد انفصل المجتمع الاسلامي انفصالاً كاملاً عن المجتمع الجاهلي، وبعد عن مؤثراته ولذلك فقد تحقق الفصل الكامل والنهائي بين الجاهلية والاسلام في المفاهيم والسلوك ، وطلب إلى المسلمين أن يتصرفوا مع الآخرين منذ ذلك على أساس أنهم أمة تتميز وتمتاز بكل شيء ، ووضعت أمام المسلمين أمثولة ابراهيم عليه السلام والمسلمين في عهده :

« قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله . كفرنا بكم . وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » (١) .

* *

وقد استعمل رسول الله ﷺ هذا المصطلح القرآني في هذا المعنى ، معنى النهج والنظام .

فقد قال لأبي ذر رحمه الله وقد عيّر رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » يريد بذلك أن يعرف ان ذلك لا يتصل بنهج الاسلام وانما يتصل بنظام الجاهلية في العلاقة مع الناس .

---

(١) سورة الممتحنة (مدنية) الآية : ٤ .

وقال للمسلمين حين عودته بهم من غزاة بني المصطلق : « ادعوى الجاهلية وانا فيكم[1] يريد بذلك أن ما جرى بينهم من هتاف كل فريق منهم بقبيلته ، وتشاجرهم خلق يتصل بنظام الجاهلية الذي ألغاه الاسلام جملة وتفصيلاً .

* *

وقد فهم المسلمون الأولون من الجاهلية معنى النهج الذي يقابل الاسلام ، كما فهم منها ذلك غير المسلمين ايضاً .

يدل على ذلك الحوار الذي جرى بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) وبين الهرمزان ملك الأهواز حين أتى به أسيراً الى المدينة .

« .. فقال عمر : هيه ياهرمزان . كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة امر الله . فقال : يا عمر ، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر : إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا » [2] .

ويطلق ابو الحسن البلاذري اسم « الجاهلية » على العهد السابق على الاسلام في ايران ، فيقول في كتابه : (فتوح البلدان) عن مدينة الري : « وكانت مدينة الري تدعى في الجاهلية : أرازي » [3] .

وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي في الحديث عن الشعوبية ، واحتجاج الشعوبيين لدعواهم قوله : « .. فهذا كان شأن العرب والعجم في

---

(١)

(٢) الطبري : ج ٤ ص ٨٧ – ٨٨ .

(٣) ابو الحسن البلاذري : فتوح البلدان – مطبعة السعادة بمصر ١٩٥١ ص ٣١٦ .

جاهليتها » [1] .

* *

هذه المقابلة بين الاسلام والجاهلية ، وبين ما هو اسلامي وما هو جاهلي في القرآن الكريم ، والسنة ، والتاريخ ، تكشف بوضوح تام عن ان المراد بالجاهلية ليس عدم العلم ، أو عدم القانون والنظام ، أو السفه الذي هو ضد العلم ، أو البربرية التي تسبق الحضارة – ليس المراد بالجاهلية شيئاً من ذلك وإنما يراد بها النهج المقابل للاسلام بما يتسم به هذا النهج الحياتي من إلحاد ، ومادية ، واغراق في الشهوات ، واهتمام بالمحسوسات اكثر من المعنويات ، وعبادة للعمال ، وشيوع روح التعصب والعدوان بين أتباعه ، وما إلى ذلك .

وإذن ، فليست الجاهلية – كما جرت العادة على استعمالها في كتب الأدب والتفسير – صفة تختص بالعرب قبل الاسلام لا يشترك فيها معهم أحد غيرهم قبل الاسلام ولا بعده كما لا يصح اطلاقها عليهم بعد الاسلام – وانما هي سمة كل مجتمع غير مسلم ، سواء في ذلك الشعوب التي عاصرت ظهور الاسلام او تأخرت عنه .

وإذن ، فهم الجاهليــة على أنها فترة تاريخيــة سابقة تخص العرب فهم خاطيء ، وانما هي نظام ومنهاج يمكن أن يوجد في كل وقت ، ويمكن أن يمثله كل شعب .

وعلى هذا فلا تكون سمة خاصة للحياة العربية قبل الاسلام وانما هي اسم للحياة غير الاسلامية ، سواء في ذلك تلك التي سبقت الاسلام أو عــاصرت ظهوره ، أو تأخرت عن مبدأ ظهوره وخالفته في نظامه ونهجه ، ونظرتـه الكلية إلى الكون والحياة والانسان .

ومن هنا فمن الطبيعي اذن أن نتحدث عن الجاهلية الحديثة .

---

(١) ابن عبد ربـه الاندلسي : العقد الفريد – تحقيق محمد سعيد العريان – الطبعة الثانية (١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م) ج ٣ ص ٣٢ .

الجاهلية الحديثة

الجاهلية الحديثة هي الحضارة التي أبدعهـــا الانسان الأوروبي منذ عهد النهضة الى يومنا هذا ، مستفيداً في هذا الانجاز الضخم من كل إبداعات العقل البشري على مدى التاريخ (وفي طليعة ذلك الأعمال والأفكار العظيمة التي أبدعها المسلمون) ، نقول الحضارة التي أبدعهـــا الانسان الاوروبي ووسمها بميسمه الخاص : ميسم شخصيته ، وعقليته ، وتطلعـاته ، ونظرته الى الحياة .

ومن هنا – من أنها موسومة بميسم الانسان الأوروبي – فهي ليست عالمية من حيث المنبع والمحتوى ، وإن كانت عالمية من حيث الانتشار .

كانت – حين ولدت – حضارة إنسان أوروبا ، ولا تزال حضارة إنسان أوروبا ، وستبقى كذلك ما لم يتغير محتواها الداخلي ، ما لم يتغير معناها . إنها بوضعها الحاضر لم تمثل الإنسان، ولذا فهي ليست عالمية، إنها تمثل إنسانها الذي ابدعها ، وسيطر بها على الآخرين ، واستخدمهم بهـا لمصلحته ، فهي ، إذن ، حضارته هو وليست حضارة الآخرين: حضارته هو؛ لأنه هو أعطاها وأبدعها وازدهر بها ونما من خلالها ، وليست حضارة الآخرين ؛ لأنها فرضت عليهم ، وسحقتهم انيابها الفولاذية ، وذوب شخصياتهم وهجها الشهواني .

حضارة الانسان الأوروبي = الحضارة الأوروبية = الحضارة الغربية = الحضارة الحديثة اكتسبت صفة العالمية ، لا بسبب انها عالمية حقيقة ، وإنما بسبب التفوق المادي الذي يتمتع به مبدعوها من جهة ، والضعف الفكري والعقيدي اللذين يعاني منهما اولئك الذين استطاعت هذه الحضارة أن تضمهم في مركز جاذبيتها ، فاجتذبهم بريقها الساطع ، وسرابها الخادع .

هذه الحضارة هي الجاهلية الحديثة .

وحين نسمي هذه الحضارة « الجاهلية الحديثة » فلا نريد أن نقلل من أهمية ما أنجزته من تقدم مادي يسرت به الحياة تيسيراً لم يكن ليتصوره قبل هذا العصر إنسان . فهذه الانجازات المادية العظيمة هي فضيلة هذه الحضارة ، ولذا فان إدانتنا لها لا تعني – كما سنرى – أننا نريد أن نبرأ من كل تقدم مادي ، وإنما نطمح الى أن يكون هذا التقدم المادي متمماً لسعادة الانسان ، ولا يبقى عاملاً يستلب انسانيته في مقابل أن يعطيه وهم السعادة ؛ فان التقدم المادي العظيم الذي انجزته هذه الحضارة وهو فضيلتها الكبرى قد تحول إلى عامل مدمر في الانسان حين كيّف الانسان ظاهر حياته وفقاً له دون أن يرافق ذلك نمو في المعنى الإنساني عنده، بل حق دون ان يحافظ على فضائله النفسية التي كان يتمتع بها في الماضي . ان الحضارة الحديثة قد اعطت الانسان القوة وسلبته الفضيلة ، وأعطته الراحة ، وسلبته السعادة .

إن الحضارة الأوروبية التي احرزت أعظم ما يمكن ان يتاح من نجاح على صعيد الانجاز المادي والسيطرة على الطبيعة قد منيت بأخطر ما يمكن أن يحصل من إخفاق على صعيد بناء الانسان ، ففي حقل الانجاز المادي نجاح خارق وفي حقل بناء الإنسان إخفاق مأساوي .

إن مبدعي الحضارة الحديثة قد تعاملوا مع الانسان كما يتعاملون مع

« الأشياء » ، والأشياء دائماً تخضع – في التعامل معها – لعامل « الكم » و « الفائدة » و « سد الحاجة » إن التعامل مع الأشياء يخضع دائماً لنظرة غائية مصلحية ، فاذا خضع التعامل مع الانسان أيضاً لهذه النظرة تحدث الكارثة ، وقد حدث ذلك في نطاق الحضارة الاوروبية ، فأخضعت التعامل مع الإنسان لقانون التعامل مع الأشياء ، فحدثت الكارثة إذ لم يعد الإنسان يمثل قيمة مقدسة في حد نفسه ، وإنما غدا يمثل قيمة « كمية » و « نفعية » لقد خضع العنصر الإنساني – كما هو الحال في خامات الحديد والقطن وما إلى ذلك – لحاجات الاقتصاد ، والحركة الصناعية . وهكذا تحطم الانسان المتكامل في داخل الأوروبي فوجد الانسان « المادي » الذي بسط نظرته هذه الى الانسان الى خارج أوروبا فعامل الانسان غير الأوروبي كانه « شيء » يقدم إمكانية كبرى للاستثمار وللاستمتاع ، ولم يعامله « كانسان مماثل له في الانسانية » يدخل معه في شراكة حضارية .

لقد حدث هذا الشذوذ الخطير في الحضارة الأوروبية لأنها منذ بدايات تكوينها قامت على فكرة إحراز التقدم المادي و «تسخير الطبيعة = السيطرة على الطبيعة » فكانت النتيجة أنها سخرت الإنسان أيضاً لانجازاتها في حقل الطبيعة ، سخرته للآلة .

وما نريده هو أن تقوم حضارة تستمد عظمتها من المعنى الإنساني لا من التقدم المادي وحده . ان كل نظام حضاري يمكن أن يقدم للناس كل ما يتيح عصره من رخاء ، ولكن قيمته كحضارة تبقى رهينة نظرته الى الانسان وتعامله مع الانسان .

وضمانة تقدم الإنسان وازدهاره لا توجد في ما يتمتع به من رخاء ، وانما في ما يتمتع به من معنى،ان الكوارث العظمى يمكن ان تسحق مجتمعاً برمته لا يتمتع بالمعنى الانساني المتكامل ، وان كان يتمتع بأعلى درجات الرخاء ،

ولكن المجتمع الذي يتمتع بالمعنى الانساني يمكن ان ينهض من ركام الكارثة فيعيد بناء نفسه ومستقبله من جديد ، وذلك لأنه يملك القوة الداخلية التي تمكنه من البناء .

من زاوية موقفها من الانسان وتعاملها مع الانسان ، إذن ، ننظر الى الحضارة الغربية ، ونقومها على هذا الأساس لنرى فيها سمة الجاهلية الكبرى وهي المادية ، وما تستتبع من سمات تنتج عنها ، وتنبع منها .

المادية

تقوم الحضارة الغربية على أساس مادي خالص لا يعترف بقيمة حقيقية لغير المظاهر المادية للحياة . ومن المؤكد أن هذا القول يبدو غريباً أمام أولئك الذين يرون ان الحضارة الحديثة تقوم على أساس مسيحي . والمسيحية دين لا يمكن أن يوصف بالمادية على أي حال .

ولكن ليس ثمة خطأ تاريخي أفدح من اعتقاد كهذا، فالحضارة الأوروبية في أساسها الذي قامت عليه منذ البداية ، وفي روحها المحركة لها بعيدة عن المسيحية كثيراً. وتاريخ هذه الحضارة — في بعض جوانبه — هو تاريخ الصراع مع المسيحية للتملص من قيودها وتعاليمها ، حدث ذلك منذ البداية ، ولا يزال هذا الصراع مستمراً حتى الآن .

إن المسيحية في الحضارة الأوروبية لا تعدو ان تكون غشاء ظاهرياً فقط ، إذا تجاوزه الباحث الى العمق وقف على أساس آخر لهذه الحضارة، هو الحضارة الرومانية الوثنية .

لقد استطاعت المسيحية في العصور الوسطى أن تصبغ مظاهر الحياة الأوروبية بصبغتها بسبب ما أوتيت الكنيسة من سلطان سياسي مكنها من أن تؤمن لنفسها وأفكارها حضوراً مستمراً في وجدان الانسان البسيط .

ولكن كل شيء تبـدل منـذ بداية مـا يسمى بالنهضة الحديثة في القرن الخامس عشر الميلادي .

لقد ابتدأ العصر الحديث بردة عن الكنيسة ، وانعتاق من المثل والقيم المسيحية تمثل في الأدب والفلسفة ، ونظم الاجتماع والقوانين يقابله رجوع الى القيم والأفكار وأنماط الحياة الرومانية الوثنية ، ومن ذلك – ولعله أخطر ما حدث – النظرة الى الانسان غير الأوروبي ، لقد ولد عصر الاستعمار منذ ذلك الحين ، فقد استعاد الانسان الأوروبي روحية وعقلية سلفه القديم حين نظر الى العالم كفريسة دسمة لا بد له منها لاشباع نهمته – وليس جوعته – الى حياة اكثر رخاءً وأحفل بضروب المتاع . إن عصر الاستعمار لم يولد بعد ظهور « الرأسمالية » وإنما ولد حين صرف الأوروبي عينيه عن الانجيـل الى أدبيات وأفكار روما ما قبل الامبراطور قسطنطين .

لقد ولدت الحضارة الأوروبية على أنقاض المسيحية ، وليس بتوجيهها ، ومن ثمة فان القيم التي تشتمل عليها هذه الحضارة ، والروح التي تحركها ، قيم مادية وليست قيماً مسيحية بحال من الأحوال ، لقد كانت القيم دائماً ضحية هذه الحضارة ، لا قائداً لها .

في ما يلي نثبت شهادة إنسان مفكر من داخل الحضارة الأوروبية اكتشف أساسها الذي قامت عليه، والروح الذي يحركها، إنه » ليوبولد فايس = محمد أسد » المستشرق النمساوي الذي اكتشف الإسلام واعتنقه ، وكتب عنه ، قال :

« .. إن كل مـــا هو اليوم حقيقي في الاستشراف الغربي للحياة والأخلاق يرجع الى المدنية الرومانية . وكما أن الجو الفكري والاجتماعي في رومة القديمة كان نفعياً بحتاً ، ولا دينياً – لا على الافتراض ، بـل على الحقيقة – فكذلـك هو الجو في الغرب الحديث ، ومن غير أن يكون لدى الأوروبي برهان على

بطلان الدين المطلق ، ومن غير أن يسلم بالحاجة الى مثل هذا البرهان، ترى التفكير الأوروبي الحديث- بينا يتسامح في الدين، وأحياناً يؤكد أنه عرف اجتماعي، يترك ، على العموم الاخلاق المطلقة خارج نطاق الاعتبارات العملية . إن المدنية الغربية لا تجحد الله البتة ، ولكنها لا ترى مجالاً ولا فائدة لله في نظامها الفكري الحالي ... وهكذا يميل الأوروبي الحديث الى أن ينسب الأهمية العملية فقط ألى تلك الأفكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التي ينتظر منها على الأقل أن تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة،ربما أن قضية وجود الله لا تقع تحت هذا الوجه ولا تحت ذاك فان العقل الأوروبي يميل بداءة الى إسقاط الله من دائرة الاعتبارات العملية .

« وهنا يعرض سؤال : كيف يمكن لهذا الاتجاه أن يتفق وطريقة التفكير المسيحي؟ أليست النصرانية – المفروض فيها ان تكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية – عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة كما هي الحال في الاسلام ؟ لا شك في أنها كذلك. ولكن حينئذ لا يمكن أن يخطأ خطأ افـــدح من أن نعتقد أن المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية ، ان الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب ان تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على أنها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ، ويمكن التعبير عنها كما يلي : بما أننا لا نعرف شيئاً معيناً – من طرق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب – لا عن اصل الحياة الانسانية ، ولا عن مصيرها بعد موت الجسد – فان من الخير لنا أن نحصر قوانا في وجوه إمكاننا المادي والفكري من غير أن نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالأخلاق المطلقة والقضايا الأدبية

المبنية على دعاوى تتحدى الأدلة العلمية . فلا ريب اذن في أن هذا الاتجاه ، الذي تتميز به المدنية الغربية الحديثة لا يجد قبولاً في التفكير الديني المسيحي كما لا يجد قبولاً في الاسلام أو في أي دين آخر ، وذلك لأنه لا ديني في جوهره .

« وخلاصة القول إن المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية ، وهي لم تأخذ من النصرانية سوى الطلاء الخارجي فحسب . ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة [1] » .

إن الحقيقة التي ذكرناها «الحضارة الأوروبية مادية في أساسها وفي روحها المحركة » والتي قدمنا هذه الشهادة بشأنها ، هذه الحقيقة ثابتة بالنسبة إلى هذه الحضارة في مظهريها المعاصرين : مظهرها الرأسمالي ، ومظهرها الاشتراكي . فكل واحد منهما مادي في أساسه وفي قوته المحركة ، وكل ما بينهما من فرق — من هذه الجهة — هو أن مادية الرأسمالية مادية عملية لا تأبه لأن تفلسف سلوكها،ولا تأبه لوجود الشكلية الدينية في المجتمع متمثلة في مؤسسات لم يبق لها أي دور تمارسه في شأن الحياة العامة ، وممارسات دينية شخصية الى أبعد الحدود وفي نطاق دور العبادة ، بحيث لا تمس الشأن العام من قريب ولا بعيد ، وان مادية الاشتراكية « المسماة علمية » هي مادية مفلسفة، قاومت الدين حين كان ينازعها السلطان مع الجماهير ، وهي الآن لا تزال تقاومه بشكل أو بآخر وان كانت أميل الى ان تهادن الشكلية الدينية في أبهت صورها .

* *

(١) ليوبولد فايس (محمد أسد) : الإسلام على مفترق الطرق نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ — الطبعة الرابعة — ١٩٦٢ ، دار العلم للملايين — بيروت — ص ٣٩ — ٤١ .

إن المادية الأوروبية = الحضارة الأوروبية ، تقوم على ركيزتين : النزعة العلمية التجريبية ، والنزعة الاستعمارية .

ونعني بالنزعة العلمية التعامل مع الطبيعة وقضايا الحياة والانسان على أنها جميعاً ينبغي أن تخضع للقياس الذي يمكن أن تخضع له المادة ، ونتيجة لذلك فكل ما لا يمكن قياسه بالحساب والتجربة يخرج عن دائرة الاعتبارات العملية التي تقوم عليها الحياة ، ويغدو شأناً شخصياً لمن يهمه أمر ذلك من الأشخاص، على ألا يعتبر قيمة حياتية تدخل في الاعتبار العام. إن « العلمي » وفقاً لهذه النزعة هو « الحقيقي ، العملي ، التقدمي » وهو خصوص ما خضع للحساب والتجربة. أما ما لا يخضع لهذا القياس فهو غير علمي، إنه « خيالي، اسطوري ، مثالي ، خرافي ، رجعي » ومن ثم فانه لا يتمتع بأي احترام ، ولا يمكن أبداً أن يدخل في شأن الحياة العامة ، والسياسات القومية .

ومنذ البداية حدث هذا الانحراف في تصور دائرة العلم التجريبي، القياسي القائم على دراسة نسب الأشياء وعلاقاتها المنظورة والمحصاة ولم يحدث- كما قد يتصور البعض - في عهد متأخر . فمنذ بدايات النهضة الأوروبية ، بدأ هذا التصور يتكوّن تدريجياً في الذهنية الأوروبية ، وراح يستولي بالتدريج على الإنسان الأوروبي الذي أصيبت رؤيته الدينيـة بزلزال ماحق . وقـد توالت الكشوف العلمية العظمى فيما بعد في كل مجال ، فأصيب الإنسان الأوروبي بالانبهار ، لقد استلبت لبه انتصارات علمية واعدة بامكانات لا حد لهـا في السيطرة على الطبيعة .

ولقد كانت الكارثة في أن هذا الاتجاه العلمي الذي أنجز هذه الفتوحات العلمية تم في فترة بلغ فيهـا الصراع ذروته بين رواد النهضة الجديدة وبين المؤسسات التقليدية في المجتمعات الأوروبية : الحكم الاقطاعي ، والكنيسة ، وهذا ما دفع برواد النهضة الى ان يضعوا هذه المؤسسات ، وما تقوم عليه . وتمثله من افكار وقيم موضع التساؤل .

ولقد ظل هذا التساؤل ينمو ويزداد حدة وتتراكم أسبابه الحقيقية والمفتعلة حتى انتهى اخيراً الى اتخاذ موقف رافض لهذه الأفكار والقيم تحت شعار الإله الجديد (العلم) الذي أصدر حكمه عليها بالبطلان لأنها لم تثبت لوسائله التجريبية والاحصائية التي يعتمدها . إنها ، إذن ، لا علمية . إنها ، إذن : مثالية = خرافة = رجعية .

وإذا كانت النزعة العلمية تمثل مادية الحضارة الأوروبية بالنسبة الى الطبيعة،فان الروح الاستعمارية تمثل مادية هذه الحضارة بالنسبة إلى الإنسان. لقد تكوّن ونما في أعماق الإنسان الأوروبي وحش التسلط النفعي على الإنسان الآخر ، هذا الوحش الذي كان يقود خطى الانسان الروماني الوثني في تعامله مع غير الرومانيين .

لقد قادت الروح الاستعمارية خطى الإنسان الأوروبي ، منذ اكتشاف امريكا ، نحو أسلوب جديد تماماً في التعامل مع الآخرين،انه أسلوب الاستعمار الذي يتعامل مع الإنسان الآخر مجرداً من صفته الإنسانية ، يتعامل معه على انه « شيء منتج » ، ومع ان الأوروبي يتعامل مع الطبيعة أو الحيوان على أنها مجموعة « أشياء منتجة » إلا أن (الإنسان الآخر = الشيء المنتج » يخضع لمبدأ في التعامل يختلف اختلافاً أساسياً عن المبدأ الذي يتم وفقاً له التعامل مع الطبيعة والحيوان غير الإنسان — فبينما يقضي مبدأ التعامل مع الطبيعة بأن يحسّن المستغلّ مصادر إنتاجه في الطبيعة والحيوان — نجد أن المستعمِر يفرض على مصادر إنتاجه من الإنسان المستعمَر واقع الانحطاط والدونية ، وذلك ليبني «شيئاً» يصلح أن يكون مصدراً للانتاج الذي يستلبه الأوروبي، وخشية أن يزدهر فيه الإنسان المكتمل فيحرم الأوروبي من مصدر مجاني لرخائه وسعادته .

إن هذه النظرة الى الانسان الآخر قد بلغت من الأصالة في الشخصية

الأوروبية بحيث دفعت عالماً كبيراً هو (أرنست رينان) إلى أن يعبّر عنها كأي سياسي استعماري محترف :

« جنس واحد يلد السادة والابطال هو الجنس الأوروبي ، فاذا ما نزلت بهذا الجنس النبيل الى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فانه يثور ، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له ، وهو إنسان ينشد حياة البطولة فاذا هو مكلف باعمال لا تتفق وخصائص جنسه . إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني او فلاح أو كائن لم يخلق لحياة الحرية ، فليقم كل امرىء بما خلق له لتسير الحياة على ما يرام ».

* *

ماذا نعني بـ «المادية » حين نقول عن الحضارة الغربية إنها مادية ؟ ان ما قدمناه في هذا الحديث يعطي فكرة عن ذلك ، وقد بيّن محمد أسد (وليوبولد فايس) في شهادته التي أثبتناها آنفاً مادية الحضارة الأوروبية بقوله:

« .. وهكذا يميل الاوروبي الحديث الى أن ينسب الاهمية العملية فقط الى تلك الافكار التي تقع في نطاق العلوم التجريبية ، أو تلك التي ينتظر منها على الاقل أن تؤثر في صلات الانسان الاجتماعية بطريقة ملموسة ... إن الأسس الفكرية الحقيقية في الغرب يجب أن تطلب في فهم الرومانيين القدماء للحياة على انها قضية منفعة خالية من كل استشراف مطلق ، ويمكن التعبير عنها كما يلي: بما أننا لا نعرف شيئاً معيناً - من طرق الاختبار العلمي والتقدير في الحساب - لا عن أصل الحياة الانسانية ولا عن مصيرها بعد موت الجسد - فان من الخير لنا أن نحصر قوانا

في وجوه امكاناتنا المادي والفكري من غير ان نسمح لأنفسنا بأن نتقيد بالاخلاق المطلقة والقضايا الادبية » .

وقال في موضع آخر :

« إن العالم الغربي لا يزال تائها تماماًفي إجلال الانتاج الماضي، وفي الاعتقاد ان الرفاهية ، والرفاهية وحدها إنمـــا هي الهدف الذي يستحق ان يكدح الانسان اليه. ان مادية الغرب وجحوده للتوجيه الديني في التفكير يزيدان كل يوم قوة ولا ينقصان[1]».

ونزيد هذه المادية بياناً فنقول :

إن الذي يفجر الحركة في الحضارة الأوروبية ، ويوجهها في سيرها هو الحافز المادي : هو تيسير الحياة الممتعة ، وزيادة المتعة والحضارة والسهولة ، وهي لا ترى في ما وراء ذلك شيئاً يستحق أن يؤبه له أو يبذل في سبيله أي جهد ، فان ننتج طعاماً أكثر كماً وأعظم جودة ، وأن نبني مساكن أحسن ، وأن نتمتع بصحة أكثر مقاومة للأمراض،وأن نيسر لشهوات الطعام والجنس والتسلط فينا فرص الاشباع إلى أبعد مدى... هذه الرؤية لوظيفة الحياة هي التي تفجر الحركة في الحضارة الأوروبية وتقود خطاها .

ما موقع الإنسان في الحضارة الأوروبية ؟

المفروض أن يكون الإنسان غاية . أن تهدف كل الجهود لتوفير كرامته ، وسعادته، وازدهاره. ولكن الإنسان في الحضارة الأوروبية وسيلة. يستخدم ويستغل من القادرين على استغلاله .

في العالم الرأسمالي القديم كان الإنسان العامل وسيلة لتوفير فرص الرفـاه

---

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق / ٦٢ .

والترف للطبقة القـادرة ، دون عنـاية بروحه أو جسده . ثورات الانسان العامل المستغل من جهة ، وتحدي النظام الشيوعي وإغرائه من جهة أخرى دفع بالطبقة المترفة في العالم الغربي الى أن تطور رأسماليتها فجعلت للانسان العامل حقـاً في أن ينعم بشيء من خيرات الروح والجسد . إن الذي أدخل شيئاً من العدالة على وضع الإنسان العامل في الرأسمالية الجديدة ليس اخلاقيات الرأسمالية ، فهي بلا أخلاق ، وليس شيئاً آخر من داخل النظام الرأسمالي ، وإنما هو ضغوط من خارج النظام الرأسمالي : من الطبقة العاملة ضحية هذا النظام ، ومن النظام الشيوعي ضد هذا النظام .

في العالم الشيوعي الإنسان وسيلة تستخدم لتوفير الرخاء المادي للمجتمع . **هذا هو الشعار** . عشرات الملايين سحقت حتى الموت ، مئات الملايين شوهت حياتها من أجل توفير الرخاء المادي للمجتمع..أي مجتمع..؟انه كائن تجريدي لا نعرفه ، ان المجتمع هو هذه العشرات من الملايين التي سحقت حتى الموت ، وهذه المئات من الملايين التي شوهت حياتها .. أي مجتمع..؟ لقد تبين فيما بعد أن المجتمع هو هذه **الطبقة الجديدة** الحاكمة والممسكة بزمام الادارة ، التي تمسك بيدها كل شيء من إبرة الخياطة الى الصاروخ العابر للقارات ، لقد تبين أن المجتمع يعمل من أجل هذه الطبقة ، من أجل رخائها ، وترفها ، وبقائها في السلطة ، وزهوها أمام قيادات العالم الرأسمالي ، من أجل هذه الطبقة الجديدة سفكت الدماء ، وشوهت الحياة ، وخنقت الحرية .

أخيراً بدأت حياة الفرد في العالم الشيوعي (الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية) تتجه نحو اليسر والرخاء ، بسبب الخشية من أن يجتذب نمط الحياة الرأسمالي الجديد مئات الملايين من الناس الذين يوعدون بالفردوس دون أن يشاهدوا أثارة منه .

وعلينا أن نلاحظ ان هذا التغيير الذي دخل على وضع الإنسان المستضعف في جناحي الحضارة الأوروبية هو تغيير أدخـل مجموعات كبيرة في الخيرات

المـادية لهذه الحضارة ، إنه تغيير في كمية المستفيدين ، وليس تغييراً في نوعية الحضارة . وإلا ففي مقياس التقدم الروحي والإنساني لا تزال حضارة أوروبا كما بدأت مفلسة في هذا المضمار ، تدعي لنفسها كل الفضائل ولا تكاد تحتوي شيئاً منها . ما هي طبيعة العلاقات بين الناس في داخل هذه الحضارة ؟ هل توجد علاقات سليمة معافاة ؟ إن العلاقـــات الإنسانية بين الناس تتهدم باستمرار ، وتفقد مواقعها لتترك كل إنسان يعيش لنفسه ، يعيش وحيداً في غربة قاتلة عن الإنسان الآخر ،إن الذي يجمع الناس ليس علاقاتهم الإنسانية ، إنه العمل ، والخوف ، واللهو ، وليس الصداقة والحب ، والشعور بالوشيجة الإنسانية ، إن الشعور بالوحدة والانفراد هو الشعور الذي يسود تدريجـــاً وبسرعة في عالم الحضارة الأوروبية ، العـالم الذي سحق إنسانيته في منابعها الحقيقية ، في الدين والعاطفة البريئة الصافية ، من أجل الوصول إلى التسلط على الطبيعة وعلى الإنسان الآخر ، فامتلك الطبيعة كما لم يحدث أبـــداً في التاريخ ، وسحق الإنسان الآخر كما لم يحدث أبداً في التاريخ . ولكنه خسر نفسه في النهاية وهو الخسران المبين .

* *

هذه المـــادية التي تغلغلت في كل النسيج المعقد الذي يكوّن الحضارة الأوروبية هي الوسط الذي نمت فيه مجموعة من الأعراض التي طبعت سلوك الإنسان الأوروبي والأمريكي مع نفسه ومع العـــالم ، فكانت شراً عليه وعلى العالم .

هذه الأعراض هي : الحيوانية ، واللاأخلاقية ، وروح العدوان .

فإننا إذا بحثنا عن جذور كل واحد من هـــذه الأعراض لوجدناه في المادية التي قدمنا الحديث عنها ، ولن نجد لأي منها منشأ غير المادية .

لولا أن المادية هي أساس الحضارة الأوروبية وقوتها المحركة لمـا وجدت

النظرة الحيوانية إلى الإنسان المناخ الملائم لنموها وانتشارها كمعتقد يستولي على المشاعر ، ويفرض نفسه على السلوك .

ولولا المادية لما سادت النظرة التي تنادي بأفكار الأخلاق المطلقة ، وتعتبر أن الأخلاق — ككل شيء — مسألة نسبية ، وان الحياة لا يمكن أن تمنى إلا على مبدأ المنفعة واللذة ، لا على الأساس الأخلاقي .

ولولا المادية لما غدت روح العدوان السمة الثابتة في تعامل هذه الحضارة من خلال إنسانها مع العالم — إنساناً وطبيعة — العدوان العنيف والناعم ، والعدوان الخفي والظاهر .

سنقول في ما يلي كلمة عن كل واحد من هذه الأعراض متذكرين باستمرار أننا لا نزال نستكشف بعض مظاهر المادية في الحضارة الأوروبية .



الحيوانيـــة

الإنسان حيوان .

هذه سمة من سمات الحضارة الأوروبية التي نتجت عن روحها المادية .

وقد عرف اليونان القدماء الإنسان بأنه « حيوان ناطق » وبذلك ميزوا بين الانسان والحيوان الأعجم بالقوة العاقلة المفكرة المعبرة ، مـع الاقرار بانهما الحيوان والانسان – يشتركان في الغرائز .

وإذا كان اليونان قد اعطوا لهذه القوة وظيفة الإدراك والتفكير ، فان الوحي القرآني قد صحح ما في نظرتهم من خطأ فبين ان مفهوم هذه القوة أوسع وأشمل ، وان وظيفتها أكبر من مجرد تدبير الحياة على وجه المصلحـة والمنفعة ، بين الله تعالى أن مفهوم هذه القوة يشمل هذه الخاصة الانسانيـة الجليلة بآثارها ، الخفيـة بحقيقتها ، والتي تجعـــل الانسان على اتصـال بعالم الغيب عن طريق الايمان . هذا البعد الجديد لهذه القوة العاقلة هو ما يعبر عنه بـ « القلوب » الأفئدة » والتعبير القرآني عن هذه القوة بمفهومها الشامل الكامل هو « الروح » وهي التي تجعل الانسان فريداً ومتميزاً بحق ، وإلا فلو اقتصر الأمر على مجرد تدبير الحياة على وجه المصلحة والمنفعة فان سائر

الأنواع الحيوانية قد أوتي كل واحد منها الادراك المناسب لتكوينه وظروف عيشه على الأرض ، إنه يتمتع بمجموعة من المواهب الغريزية يدبر بها حياته وفقاً لظروفه وحاجاته .

الإنسان إذن يتفرد بالروح .

وهذا المعنى بشر به الوحي الإلهي في جميع رسالات الله تعالى ، وتم تجليّه الكامل في الوحي القرآني .

الانسان إذن لا يتفرد من حيث إنه حيوان .

والإنسان – ايضاً – لا يتفرد من حيث انه عاقل بالمعنى الذي علمته الفلسفة اليونانية وورثتها في تعليمه المذاهب الفلسفية الأخرى .

وقد كانت هذه القوة التي يتفرد بها الإنسان – بمفهومها المحدود ، أو بمفهومها الكامل الذي كشفه الوحي – تعتبر شيئاً وراء المادة .

ولكن ، في نطاق الحضارة الأوروبية التي تقوم على المادية وتتحرك بها لم يعد الإنسان انساناً ، لم يعد متفرداً ، لقد رفعت هذه الحضارة الشعار المنسجم مع ماديتها : الإنسان حيوان .

طبعاً لم يحدث هذا التحول الخطير ، الذي لا نبالغ إذا قلنا إنه بحجم الكارثة ، منذ بداية نشوء الحضارة وتكونها . لقد اقتضى الأمر وقتاً طويلاً من الصراع بين النظرة السليمة إلى الانسان وبين هذه النظرة المشوهة ، على أصعدة متعددة ، في العلوم والإنسانيات ، ولكن ما إن تكامل التكوين الحضاري الأوروبي الذي تغلغلت فيه الروح المادية حتى قضي الأمر ، وسادت النظرة الحيوانية إلى الإنسان وفقاً لقانون ثابت : « **إن كل حضارة تنشىء الثقافة الملائمة لها** » .

لم يعد الإنسان ، في هذه الحضارة شيئاً وراء جسده . لا روح ، لأنها غير موجودة ، أو لأنها ـ على الأقل ـ شيء لا يمكن التأكد من وجوده بوسائل الاختبار والقياس التي نتعامل من خلالها مع المادة ، وإذن ، فلا يمكن اعتبارها موجودة ولا يمكن اذن ، أن نجعل لها دوراً في صياغة حياتنا ، وممارستنا لهذه الحياة ، ونتيجة لذلك فلا بد من تجاوز كل القيم والاعتبارات التي تقوم على فكرة وجودالروح .

لقد كان « تشارلس دارون » من أكبر المساهمين في تعزيز هذه النظرة إلى الإنسان ، وتجريده من أي امتياز خاص عن الحيوان ، وذلك من خلال نظريته التي أطلق على أساس فرضياتها احكاماً جازمة ما كان يجوز له ـ وفقاً للروح العلمية والأمانة العلمية ـ أن يطلقها ، لأن النظرية وفرضياتها لا تسمح باطلاق أحكام جازمة . ولكنه فعل ذلك. وقد غدت « الداروينية » مدرسة ذات شُعَب عمل انصارها في علوم الأحياء والاجتماع والنفس على تعزيز النظر إلى الإنسان باعتباره حيواناً متطوراً لا أكثر ، وما عقله ، وادراكه ، وإبداعه في كل مجال إلا نتيجة لهذا التطور ، وليس ناشئاً عن موهبة خاصة يتمتع بها في فطرته . [1]

---

(١) نشرت صحيفة الأهرام القاهرية في عددها الصادر يوم الاربعاء ٢ شوال سنة١٣٩٢ هـ ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٢ م الخبر التالي :

واشنطن في ٧/١/٧٢ وكالات الأنباء :

« أعلن ريتشارد ليكي ، أحد علماء الانتروبولوجيا – علم الانسان – في كينيا أنه تم اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، ويعد أقدم اثر من نوعه للانسان الأول ، وقال العالم : ان هذا الاكتشاف يمتد في قدمه مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر يمكن العثور عليه حتى الآن،وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة مع عظام لساق بشرية =

وجاء بعد دارون « سيجموند فرويد » في مجـــال علم النفس ، فعزز

= ترجع الى نفس الحقبة من التاريخ في جبل حجري بصحراء تقع شرق بحيرة رودلفا في كينيا.

وقال العالم : إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الانسان عن اجداده. فيما قبل التاريخ ، وكيف ومتى تم .

وقد قدم ريتشارد (وهو مدير المتحف البريطاني في كينيا) تقريراً عن اكتشافه الى الجمعية الجغرافية في واشنطن ، وقال فيه :

إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية داروين - تفيد أن الانسان تطور من مخلوق بدائي كانت له سمات بدنية شبيهـــة بسمات القرود ، وان أقدم أثر للانسان كمخلوق منتصب يسير على رجليه وله مخ كبير يرجع الى نحو مليون سنة ، في حين ان الاكتشاف الجديد يدل على ان المخلوق الانساني المنتصب في الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف مليون عام . وأنـه يمكن على هـذا الاعتبـار استبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الانسان انحدر من سلالته .

وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليقها : ان نظرية ليكي تقوم على أساس أن المخلوق البـدائي الأول ، واسمه العلمي « أوسترالو بيتشيكوس » - وكان أساساً من أكلة النباتات - قد وصـل الى مرحلة تطورية مسدودة ، بينما استطاع الانسان الذي استخدم اللحم في غذائه ، وتمكن من صناعة الادوات الحجرية أن يبقى على قيد الحياة ،

وأكد ليكي في تقريره انه أمكن اعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها ، وانـه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حاليا إلا انها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التي عثر عليها للانسان الأول ، ولذلك لا تتفق مع أي نظريات حالية عن تطور الانسان » .

وفي ١٩٧٣/٣/١١ نشرت جريدة الأخبـــار القاهرية في صفحتها الثالثة تحت عنوان « انتكاسة نظرية الارتقاء » ما يأتي للاستاذ ظفر الاسلام خان - الهندي :

« تعرضت نظرية الارتقاء لهزة عنيفة في اوائل الشهر الحـــالي حين قرر المجلس التعليمي الحكومي بولاية كاليفورنيا الامريكية بأن تشير جميع الكتب المدرسية للعلوم الى نظريـــة الارتقاء الداروينية بأنها « نظرية افتراضية وليست حقيقية» وجـاء في قرار المجلس التعليمـي =

النظرة الحيوانيــة الى الإنسان على كل صعيــد ، وزعم أن كل الفضائل الانسانية في شتى الميادين مـــا هي إلا نتاج الكبت الجنسي عن طريق التصعيد ، كما أن جميع المصاعب التي يعاني منها الإنسان ما هي إلا نتيجة لهذا الكبت . ودعا ـ نتيجة لذلك ـ إلى اطلاق الحرية الجنسية للتوصل إلى تكوين انسان خال من العقد النفسية والأمراض العصبية والعقلية .

وأعقب هذين الرجلين – دارون ، وفرويد – كثيرون في شتى ميادين المعرفة التي تتصل بالكيان الانساني ، تجاوزوا في دعاواهم حذر العلم ودقته وموضوعيته ، فنادوا ، استناداً إلى فرضيات لا قيمة لها أو انها – في احسن الأحوال – ذات قيمة مشكوكة ، بأن الانسان حيوان ليس إلا ، حيوان في ظاهر جسده وفي خفايا نفسه ، وان ما يقال عن تفرده وامتيــازه على الحيوان بمواهب فطرية فيه ، واستعدادات للسمو والتعالي لا يملكها الحيوان ما هي إلا مزاعم انتجها الجهل ، ولا مبرر – في عصر العلم – للتصديق بها والركون إليها ، بعد ان فشلت وسائـل الاختبار والقياس في اثبـــات وجودهـــا .

= للولاية : « ان ما يمكن معرفته عن أصول الحياة لا يعدو أن يكون مجرد افتراض ذكي – على اكثر تقدير – وأمر المجلس « باستخدام تعديل على العقائد النظرية المسلم بها إلى بيانات قابلة للتعديل وفقاً للظروف » .

أوردت هذا الخبر مجلة (الايكونوميست) الاسبوعية البريطانية في عددها الصادر في ١٠ مارس سنه ١٩٧٣ – » .

نقلنا هذين الخبرين عن الاستاذ الدكتور عبد المنعم النمر مدير البحوث الاسلامية في الازهر الشريف : (خواطر من الدين والحياة) الطبعة الاولى ١٩٧٣ – دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان ص ٢١٠ – ٢١٢ .

إن فرويد يصرح في النص الذي ننقله عنه في ما يلي بحيوانية الانسان من الناحية الاخلاقية ، وانه ليس ثمة أخلاق انسانية فطرية وأصيلة ، وإنما ترجع جميع الأخلاق إلى الكبت الجنسي الذي يرتكز عليه « كل ما هو ثمين في الثقافة الإنسانية » . يقول فرويد :

« إن تطور الانسان إلى الدرجة التي بلغها حتى الآن لا يتطلب حسب رأيي أي تأويل سوى التأويل الذي نلجأ اليه بصدد الحديث عن الحيوان . وإذا وجدنا أقلية من بني الانسان يظهر عليها أن ميلاً قوياً يدفعها نحو مستويات من الكمال بعضها فوق بعض فالتأويل الطبيعي لهذا هو ان هذا الميل نتيجة لكبح الغرائز التي يرتكز عليها كل ما هو ثمين في الثقافة الانسانية »[1] .

* *

والحق أنه لم يكن للأحكام التي أطلقها دارون وفرويد وأمثالهما ، واتباعهم ما يمكن أن يعتبر سنداً علمياً بمعنى الكلمة لهذه الأحكام . ولكن الاتجاه المادي الذي تسير عليه الحضارة بسبب الأساس المادي الذي قامت عليه ، والإيحاءات الوثنية التي تستمدها من الأسلاف الرومان ، وجو العداء للكنيسة ، وأفكارها ، وعالمها الذي تدعو إليه — كل ذلك — حمل الناس على تصديق كل دعوى من هذا القبيل ، لا لأنهم باحثون عن الحقيقة ، وإنما لأنهم يريدون « تبريراً علمياً » لنهجهم الحياتي الذي اختطوه لأنفسهم ، وعزموا على السير عليه الى النهاية .

---

(١) سيجموند فرويد : أبحاث في التحليل النفسي .

وهكذا تبلورت النظرة الحيوانية إلى الإنسان .

وقد أصبحت هـذه النظرة « عقيدة » لها ما للعقيدة من قوة وثبـات وجبرية في فرض منطقها على السلوك ، ولذا فان الآراء المخالفة لهذه النظرة الحيوانية ، والحقائق التي تدحضها لتثبت تفرد الانسان، وامتيازه عن الحيوان لم تقو على التأثير فيها لما ذكرنا من أنها تحولت إلى « عقيدة » ومـا اكثر ما تحمل الشعوب والحضارات خرافات تحولهـا إلى « عقائد » تحكم حياتها ومصيرها .



اللا أخلاقية

إن المادة تخضع لأحكام وقيم نسبية ما في ذلك شك .

وإذ كانت الحضارة الأوروبية مادية في أساسها وفي روحها المحركة فقد وضعت مبدأها القائل بأن (كل شيء نسبي) ، ومن هنا اعتبرت الأخلاق نسبية أيضاً ، فليست ثمة فضيلة مطلقة ، كما أنه ليست ثمة رذيلة مطلقة .

وإذ كانت الحضارة الاوروبية نفعية — لانها مادية — فقد غدت الفضيلة فضيلة بمقدار ما تحقق من منفعة ، والرذيلة رذيلة بمقدار ما يترتب عليها من أضرار .

ومن البيّن ان إنسان الحضارة الحديثة حين يفكر في الأخلاق على هذا الأساس فانه ينفيها بأسلوب لا يخلو من لباقة، ولكنه لا يستر شناعة الموقف؛ الموقف الذي يزعم إنسان الحضارة الحديثة فيه انه يتحدث عن الأخلاق بينما هو في الحقيقة يعني ما يحقق منفعته ويدفع عنه الأضرار، وان أدى ذلك إلى ان يهلك الحرث والنسل وينشر في الأرض الفساد .

من هنا يتضح أن من الحق أن نسم الحضارة الحديثة بأنها (لا أخلاقية).

وهذه اللا أخلاقية تسم سلوك ومواقف إنسان هذه الحضارة على جميع الأصعدة وفي جميع المجالات .

* *

ففي المسألة الجنسية اتخذت هذه الحضارة موقفاً ينسجم مع أساسها المادي، ونظرتها الحيوانية الى الإنسان .

فلقد تخلت الحضارة الأوروبية عن اعتبار خلق العفة في علاقة الرجل بالمرأة في المجال الجنسي ، فنادت بالحرية الجنسية متأثرة بماديتها وحيوانيتها. ولم تعد مسألة شرعية العلاقات الجنسية ذات أهمية تذكر ، بل لم تعد ذات أهمية على الاطلاق. بل لقد تعدى الأمر نطاق إباحة العلاقة الجنسية الطبيعية بين الجنسين دون اعتبار لمبدأ الشرعية ، إلى إباحة الشذوذ الجنسي وحماية ممارسيه بقوة القانون .

ونتيجة لهذا الموقف من المسألة الجنسية فقد تدهور مركز الاسرة لدى إنسان الحضارة الاوروبية ، كما ذوت العلاقات الانسانية العاطفية الاخلاقية ذات الطابع الخاص جداً بين الزوجين ، وفقدت الأسرة معناها الإنساني النبيل وقداستها .

* *

وفي مجال المجتمع – نتيجة المادية النفعية – مارس الأقوياء في السلطان المستمد من قوة المال الاستغلال الشنيع للضعفاء الفقراء في المصانع والمزارع ، مما اضطر هؤلاء الى مقاومته بالثورة ، الثورة القائمة على الحقد والبغضاء ،

ونتيجة لذلك غدا الحقد الأعمى خلقاً يدعى اليه ويبشر به ، ويتعامل الناس في المجمع الواحد في القومية الواحدة على أساسه . انه الحقد الطبقي .

* *

وفي العـــالم عامل إنسان هـذه الحضارة الإنسان الآخر باعتباره « شيئاً منتجاً » كما ذكرنا سابقاً ، وليس باعتباره إنساناً ذا حقوق وكرامة .

بل لقد عمل إنسان هذه الحضارة كلها واتته عبقريته الشيطانية على ابتكار الوسائل التي تجعل هـذا الإنسان الآخر في أحط درجـات الوعي والفاعلية ليضمن بقاءه تحت سلطانه آلة منتجة لا غير ، وليحول دون اكتسابه أية قدرة على تحسين وضعه الخاص .

ولعل من أكثر البينات دلالة على (اللاأخلاقية) التي يعامل بهـا إنسان الحضارة الأوروبية الإنسان الآخر ، وعلى أنه يعـامله على أنه (شيء منتج) فقط هو ان القيادات في أوروبا وأمريكا عشية الحرب العالمية الثانية أتلفت كميات هائلة من المواد الغذائية مع وجود مئات المـلايين من البشر (خارج امريكا الشمالية وأوروبا) بحاجة اليها ، ولكنها لم تعط شيئاً من هذه الأغذية لأنها لا تستطيـع الشراء ، فلا يمكن أن يكون التعامل معها (مربحـاً) إن إنسان الحضارة الحديثة لم ينظر إلى هؤلاء كممثلين (للانسانية) وإنما كمصادر للربح ، ولما لم يكونوا قادرين على توفير الربح، لأنهم غير قادرين على الشراء ، فلم يبق ثمة وجه للتعامل معهم على صعيد إنساني باعطائهم – بصورة ما – ما هم بحاجة ماسة اليه . لقد تحول الطعام الى رماد ، وبقي مئات الملايين جياعاً لانهم غير قادرين – بسبب عجزهم عن الشراء – على أن يحولوا فائض الطعام الى نقود أو مواد خام .

وحين استطاعت شعوب الإنسان الآخر أن تقف آخر الأمر على قدميها اخترع – كأسلوب للتعامل معها – مـا يسمى بـ (الاستعمار الجديد) فوضع قيوداً على نموها حين تحكّم في أسعار صادراتها من المواد الخام ، وحين فرض عليها أساليب في التعامل التجاري ضد مصالحها. انه يريد ان يصنع بها من خلال هذا الأسلوب ما كان يصنعه الصينيون مع فتياتهم حين كانوا يضعون اقدامهن في أحذية من حديد لتبقى صغيرة رشيقة – فيريد الاستعمار ان يحـدد حجم نمو الركائز الاقتصادية لهذه الشعوب ولكن لا لتكون صغيرة رشيقة ، بـل لتكون ضعيفة لا تقوى على حمـل جسم الدولة المستقلة فتنهـار ، وتعود الى حظيرة الاستعمار بصيغة أخرى .

وقد أصاب المسلمين من إنسان الحضارة المدنية اعظم شر حدث في التاريخ البشري على الاطلاق .

لا أريـد المظهر الاستعماري لصلة الحضارة الأوروبية بالعالم الاسلامي ، فهذا شيء ابتلي به غير المسلمين ايضاً ، ولكن أريد أن أذكر فلسطين .

لقد مهد إنسان الحضارة الحديثة طيلة عشرات السنين للعمل الشرير الذي قام به في فلسطين مدفوعاً الى ذلك بعامل البغضاء للاسلام ، وعـامل المنفعة والمصلحة ، فاقتلع شعباً من أرضه هو الشعب الفلسطيني ، وجمـع أشتاتاً من الناس من شتى انحاء الارض يدعون انهم شعب واحد ، فاعترف لهم بدعواهم وهو يعلم كذبها ، وأنكر وجود الشعب الفلسطيني وهو يعلم صدقه ، وادخل الاضطراب والعذاب على العالم العربي بأسره .

* *

بل لقد ظهرت هذه اللاأخلاقية في تعامل هذا الإنسان مع الطبيعة .

لقد استغل الطبيعة بروح فجة نفعية ، فكاد أن يستنفد بعض كنوزها ، ثم لوثها بمنتجات رخائه وترفه ، وألاعيبه المدمرة ، فساق الانسانية كلها الى أن تعيش على حافة التلوث في الماء والهواء والتربة .



روح العدوان

نتيجة للنظرة النفعية المادية الى الحياة ، والنظرة الحيوانية الى الانسان ، واللا أخلاقية شاعت في الحضارة الاوروبية روح التعصب والعدوان .

ومن السخريات المضحكة المبكية أن إنسان هذه الحضارة كما وجد لكل ممارساته تعليلات « علمية » لم يعدم تعليلاً « علمياً » يبرر به تعصبه وعدوانه على الآخرين ، فاخترع لذلك ما يسمى بـ « قانون تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح » .

فقد قام معتمداً على مذهب « تشارلس داروين » في علم الاحياء مذهب في الاجتماع البشري دعي بـ « الداروينية الاجتماعية » حاول أن يستخلص أسس الاجتماع الإنساني من (مبدأ تنازع البقاء وبقاء الأصلح) الذي طبقه داروين في نظريته في علم الاحياء ليفسر به انقراض فصائل حيوانات ما قبل التاريخ وبقاء غيرها من الحيوانات بأن الحيوانات المنقرضة لم تكن صالحة للبقاء نتيجة لعدم تكيفها مع المحيط ، أو لعجزها عن إيجاد بدائل لمصادر غذائها التي نفدت في وقت ما في مكان ما ، أو لفقدانها للقدرة الجسدية على تحمل تقلبات المناخ وما إلى ذلك ، وهذه بخلاف الحيوانات التي بقيت فانها تمتعت بالبقاء لأنها كانت أصلح لذلك .

وقد أكد (السير فرنسس كالتن) – احد كبار علماء الاجتماع الذين ذهبوا في تفسير تكوين المجتمع الى الداروينية الاجتماعية – أكد « ان عوامل البقاء والتقدم واحدة في عالمي الحيوان والإنسان » .

وهكذا بنقل هذا المبدأ من عـالم الحيوان إلى عـالم الانسان وجد إنسان الحضارة الأوروبية مبرراً علمياً لنزعة التسلط العدواني على الشعوب الاخرى ، هذه النزعة التي تعتبر إحدى مقومات شخصية المادية الحيوانية اللاأخلاقية وجد مبرراً علمياً لنزعته هذه فمارسها على انها « حق » وعلى انها « رسالة » .

* *

وقد عبرت روح التعصب والعدوان عن نفسها في سلوك إنسان هـــذه الحضارة في ثلاثة مظـاهر : في داخل كل شعب أوروبي متمثلة في الاستغلال الطبقي ، وصراع الطبقات ، والثورات العمالية والفلاحية . وفي داخل أوروبا وأمريكا في الحروب الاستعمارية بين شعوب انسان هذه الحضارة التي نشبت بينها بسبب التنافس على التسلط الاستعماري وهى الحروب الاستعمارية ، وفي العـالم في الهجمة الاستعمارية التي تمت من مجموع إنسان الحضارة الاوروبية على مجموع العالم ، وهي الاستعمار .

* *

في داخل كل مجتمع من مجتمعـات هذه الحضارة وجـد الانسان القوي ، والجماعة القوية ، والطبقة القوية مبرراً علمياً لممارسة التعصب والعدوان ، ضد الاشخاص ، والجماعات ، والطبقات الضعيفة ، فمارس الاقوياء التمييز الطبقي على صعيد الحقوق والواجبات العـامة ، والاستغلال الطبقي على صعيد الاقتصاد .

ومع ان تقسيم المجتمع الى طبقات تختلف في القيمة ، وتختلف في الحقوق تبعاً لتدرجها العمودي، مع أن هذا التقسيم موجود منذ العهد اليوناني إلا أنه في العصر الحديث كان ذا تفاعلات هـــائلة لم تقتصر مآسيه على الشعوب التي تمارسه، وإنما تجاوزها فأصاب شعوباً بكاملها تنتمي الى فئة الشعوب الضعيفة.

فمنذ العصر اليوناني قسم المجتمع الى طبقة الفلاسفة ، ثم المحـــاربين ، ثم العبيد . وفي العصر الروماني قسم المجتمع الى طبقة المحـــاربين ، ثم العلماء والمفكرين والاغنياء ، ثم العبيد . وفي العصور الوسطى قسم المجتمع الى طبقة رجال الدين ، ثم أمراء الاقطاع والنبلاء ، ثم الجيش ، ثم اصحاب المهن الحرة والزراع والخدم. وبعد نشوء الرأسمالية قسم المجتمع الى طبقة اصحاب الاموال والبرجوازية ، ثم العمال والمزارعين ، وهكذا .

إذن نزعة تقسيم الناس الى طبقـــات مختلفة القيمة ، متفاوتة في الحقوق والواجبات نزعــة أصلية في شخصية انسان أوروبا . وهــذا يعني أن الطبقة العليا تملك خصوصيات تميزها وتعطيها الحق في أن تكون ذات منزلة عالية لأنها تملك إمكانات التفوق على الطبقات الأخرى .

وإذا كان هذا التقسيم الطبقي الذي يربط القيمة الانسانية ونوعية الواجبات والحقوق وكميتها بالمركز الطبقي . إذا كان هذا قد تسبب في حدوث مآس متصلة لمجموعات كبرى من الناس في جميع عصور التاريخ، فان ما سببه هذا المبدأ في هذا العصر من مآس لا يقاس بكل ما سببه في الماضي ، وذلك لان وسائل التسلط ، وطرق الإستغلال في هذا العصر والعدد الهـائل من الناس الذين وقعوا ضحية له لا يقاس بما سبق في العصور السالفة .

زد على ذلك ان التسلط في هذا العصر مورس على أساس أنه عمل أخلاقي

تقضي به طبيعة الحياة ، فان الحيـــاة تنازع في البقاء ، والبقاء والرخاء والسلطات فيها للاصلح ، والاصلح هو الذي يمتلك وسائل القوة قوة الارغام والقسر بالمال او السلاح .

وقد كان رد الفعل على ذلك الثورات،إن تاريخ الطبقة العاملة في الحضارة المدنية هو تاريخ الثورات التي سفكت فيها الدماء أنهاراً سعياً وراء العدل ، وكانت تقمع بوحشية ليس لهـــا مثيل ، ولكن الثورات توالت حتى حققت للطبقات المسحوقة شيئاً من العدل .

* *

وكما عمل (مبدأ تنازع البقاء وبقاء الاصلح) عمله الشرير كغطاء علمي وأخلاقي لممارسة التعصب والعدوان في داخل الشعوب الاوروبية والامريكية نفسها ، فقد عمل عمله الشرير — بدرجة اكثر بشاعة وقساوة — بالنسبة الى الشعوب الاخرى خارج نطاق شعوب هذه الحضارة .

لقد وجدت نزعة التفوق العنصري القـــائمة على اعتبار الجنس البشري منقسماً إلى عناصر متفاوتة في خصائص القدرة على التقدم والتفوق — وجدت سندها العلمي المزعوم ومبررها الاخلاقي المزور في هذا المبدأ .

وقد وجد تطبيق هذا المبدأ على الشعوب غير الاوروبية انصاراً على كل صعيد : علماء الاجتماع ، الفلاسفة ، رجـــال الاقتصاد ، مفكرون وأدباء ، سياسيون ، ونذكّر هنا — كنموذج — بكلمة (ارنست رينان) التي اثبتناه في فصل سابق من هـــذا الكتاب عن الجنس الاوروبي الذي يلد السادة الابطال ، والاجناس الاخرى التي لا تماثله في هذه الخصائص .

وبدأت منذ القرن الثامن عشر الميـــلادي أبشع ملحمة في تاريخ الجنس البشري هي ملحمة الاستعمار التي حمل لواءهـــا وقادها إنسان الحضارة الاوروبية ضد العالم كله ، وفرض على العالم أشد العلاقات شذوذاً وأبلغها في التعصب والعدوان .

فمنذ استطاعت الثورات في داخل الشعوب الاوروبية او الخوف منها ان تدخل شيئاً من التوازن في الداخل بين فئـات كل شعب من شعوب الحضارة الاوروبية – منذ حدث هـــذا تفجر الصراع الرهيب حول الفرائس التي تسابقت هذه الشعوب لامتصاص دمها ونهب خيراتها ، وممارسة أبشع انواع التسلط عليها ، وتشويه حياتها ، فنشبت حروب لم يعرف التاريخ لها مثيلاً في هولها ، واتساع نطاق الدمار الذي سببته ، وعدد ضحاياها .

إنها حروب بدأت محدودة ، تشتعل مرة هنا ومرة هناك بين دولتين أو مجموعـة من الدول الاوروبيـة حول فريسة في افريقيـا أو آسيا أو امريـكا اللاتينية أو حول البحـار والمراكز الاستراتيجية ومصادر المواد الخـام ، ثم تصاعدت روح التعصب والعدوان بشرهـا الرهيب فأشعلت الحرب العـالمية الاولى ، والحرب العالمية الثانية .

لقد تحول العـــالم كله الى موقد تشعل فيها أوروبا أحقادها وروح العدوان فيها .

ما الذي يحفز إنسان هذه الحضارة الى أن يمارس هذا الشر الرهيب ؟ إنه المادية النفعية التي جردته من أخلاقياته ، وعلمته أنه حيوان عليه أن يصارع لا ليبقى، وإنما لينهب الشعوب الضعيفة ويثبت لنفسه وللعالم من خلال تسلطه على الشعوب الضعيفة انه إنسان ممتاز متفوق ، فتحول إلى قوة عمياء تملك

لأول مرة في التاريخ وسائل تدمير هائلة وقدرة مطلقة على التنفيذ، وإفلاساً مطلقاً في الضمير الأخلاقي .

لقد كان هذا التعصب من بعض إنسان هـــذه الحضارة على بعضه الآخر المظهر الثاني لروح التعصب والعدوان .

* *

المظهر الثالث لروح التعصب والعدوان هو الهجمة الاستعمارية التي لم تترك منطقة في العالم خارج أوروبا أولاً وأمريكا الشمالية (فيما بعد) دون أن يفرض إنسان الحضارة الاوروبية عليها سلطانه العدواني، ونهبه لخيراتها ، وثرواتها ، وسحقه لانسانها .

لقد ديست حيــاة الإنسان المستعمر وازهقت بشكل مستمر ومنظم ، وسحقت كرامته وشخصيته الحضــارية وتراثه بشكل مستمر ومنظم ، وقد نهبت خيرات أرضه بشكل مستمر ومنظم ، وقـــد استغل جهده بشكل مستمر ومنظم ، وقد قمعت ثوراته بشكل مستمر ومنظم ووحشي .

وكما قلنا فقد عومل الانسان المستعمر وفقــاً لمبدأ يختلف عن المبدأ الذي كان إنسان الحضارة الأوروبية يعامل به الطبيعة والحيوان ، فبينما كان يعنى بتحسين مصادر إنتــاجه من الطبيعة والحيوان ، كان بالنسبة إلى الانسان المستعمر – على الضد من ذلــك – يمارس مبــدأ تحطيم الجسد والكرامة ، والثقافة ، والأمل .. حق الأمل في مجيء يوم الحرية والانعتاق وذلــك عن طريق تحطيم شخصيته ومناعته النفسية وغرس قناعة نفسية وعقلية لديه بأنه خلق ليكون مستعمراً للانسان الاوروبي ، للرجل الابيض .

لقد غدت شعوب العالم نهباً لانسان الحضارة الاوروبية، وتجاوزت الجاهلية الحديثة في هذا الميدان جميع الجاهليات التي سبقتها ، فقد تحرك إنسان الحضارة نحو العالم الآخر تحدوه فكرة الاجتياح بالقوة واستغلال الاقوام الآخرين . وفي سبيل توفير مستوى عال من العيش يتميز بأشد أنواع الترف غلواً لم يرَ إنسان الحضارة الحديثة بأساً في معاملة المستعمرات وكأنها لا تحوي بشراً ، بل حيوانات ، بل كائنات لا تستحق العناية التي تعطى للحيوانات الزينة او الحيوانات المنتجة .

ولم يحمل إنسان الحضارة الحديثة للشعوب المستعمرة رسالة تخفف شيئاً من مسؤوليته عن الظلم والارهاب وتشويه الشخصية الذي مارسه مع هذه الشعوب ، وإنما حارب في هذه الشعوب كل اتجاه خير ، وكل فكرة نبيلة ومضيئة . وشجع الخرافة والانحلال ليزيد في عجز هذه الشعوب عن مقاومته والتخلص من نيره

« إن العقل الغربي ذاتي أناني من الوجهة الأخلاقية، فالفضيلة الغربية لا وجود لها بالنسبة للعالم ، لأنها لا تشع على عالم الآخرين . والغربي لا يحمل فضائله خارج عالمه هو ، فخارج حدوده الأوروبية لا يكون إنساناً بل أوروبياً ، وهو لا يرى — بعد ذلك — أناساً ، بل مستعمَرين [1] » .

. .

وبعد ، فهذه بعض المعالم البارزة في الجاهلية الحديثة وهي لا تفترق في

---

(١) مالك بن نبي : فكرة الافريقية الاسيوية : ص ٣١ .

هذه المعالم عن الجاهليات التي سبقتها ، فكثير من هذه السمات مشترك بين سائر الجاهليات ، ولئن تميزت الجاهلية الحديثة بشيء على الجاهليات التي سبقتها فانها تتميز بالسعة والشمول ووجدان القوة القاهرة .

* *

ولكن إنسان هذه الحضارة لم يبق بمعزل عن هذا التشويه . لقد انعكس التشويه الرهيب البشع على حياته هو، وبدأت نذر الشر تبين لانسان الحضارة الحديثة ، وبدأ يكتشف ان سحره انقلب عليه ، وان صانع الشر لا بد أن يذوق في النهاية الطعم المر للزقّوم الذي كان يدسه في أفواه الآخرين.

هذا (إميه سيزير) أحد الكتاب الزنوج في المستعمرات الفرنسية يصوّر بجمل نابضة بالحياة ما يهب الآن على إنسان الحضارة الحديثة من غيوم مملوءة بالكوارث :

« إن من الواجب أن نبين أولاً كيف يعمل الاستعمار على تجريد المستعمر من حضارته ، والانحدار به إلى مستوى التوحش بمعنى الكلمة ، حتى أيقظ فيه الغرائز الدنيا ، وسول له الجشع والعنف ، والحقد العنصري ، والنسبية الاخلاقية ، ومن الواجب أيضاً أن نبين انه طالما كان هناك في الهند الصينية (فيتنام) رأس مقطوعة ، وعين مقلوعة ، ورضي بذلك الفرنسيون، وطالما كانت هناك فتاة مغتصبة كرهاً ، ورضي الفرنسيون ، فان طارئاً في هذه الحضارة يضغط عليها بثقله الرهيب ، وتقهقراً عاماً يسودها ، ولصوصية تستقر في جوانبها ، وبلاء محيقاً يمتد ليطوقها .

« وليعلم أولئك الذين يزعمون انهم قوامون علي الحضارة الانسانية أن لكل شيء نهاية ، وان نهاية الغدر بالمعاهدات، ونهاية

هذه الأكاذيب المتفشية، وهذه الحملات التأديبية الفاشمة،وهؤلاء المسجونين المقيدين المستجوبين ، واولئك الوطنيين المعذبين ، ونهـــاية هذه الغطرسة العنصرية وتلك الثرثرة المنشورة. نهاية هذه جميعاً سم مصفى يتسرب في شرايين اوروبا ، وتقدم بطيء ثابت لأخلاق الوحشية فيها ، واذا بالناس يفيقون ذات يوم على رجع الصدى ، فالجاسوسية تنشط والسجون تنز بمن فيها ، والجلادون يخترعون آلات النكال ، ويهذبونها ويتناقشون حولها ، فيغضب الناس ويصرخون قائلين « عجباً !! ها هي النازية ، لا بأس ... عاصفة .. وتمر » وينتظرون على أمل ، ويطول بهم الانتظار ، ولكنهم يتكتمون في أنفسهم الحقيقة المرة ، وهي أن النازية هي البربرية ، ولكنها البربرية العظمى التي تتوج وتتمثل سائر ما شهدت أوروبا في ايامها من بربريات.. اجل هذه هي النازية ، ولكنهم قبل أن يصبحوا ضحاياها كانوا شركاء في جرمها،فهم قد ساعدوها قبل أن يعانوا من اجرامها، لقد غفروا لهـا ، واغمضوا أعينهم عن بوادرها ، بل خلعوا عليها صفة الشرعية ، لأنها كانت حتى ذلك الوقت تخوض في شعوب غير أوروبية .

« لقد زرع الاوروبيون هذه النـــازية الشريرة ، فهم مسؤولون عنها ، وقد حان الوقت لكي يؤتي الزرع أكله، فينزّ ويقطر ، قبل ان يطفح في تلك المياه الحمراء مـــا تحتويه من دمامل الحضارة الغربية المسيحية [1] » .

• •

(١) مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر - بيروت ١٩٧٠ م ص ١٥٣ — ١٥٥ .

وقد حل بالعالم الاسلامي أعظم تشويه من انسان الحضارة الحديثة مارسه من خلال ماديته وحيوانيته ، ولا أخلاقيته ، وروح العدوان التي تملأ اقطار نفسه .

فقد حاول إنسان الحضارة المدنية بعد أن استولى على الارض أن يحطم الانسان المسلم وحضارته، من خلال عزله عن دينه ، وعن منابع القوة الذاتية في ثقافته ، ولكنه – على ضخامة ما حقق من انتصارات في هذا المجال – فشل في الوصول الى غرضه الاقصى .

إن الانسان المسلم بدأ يستعيد وعيه لذاته وللعالم. وقد بدأ الانسان المسلم يدرك أن خلاصه واستعادة ذاته المستلبة والضائعة والميتة ، إنما يكون بوعي الفكرة الاسلامية وتحويلها من معرفة وعلم الى وعي وحركة ، وإذا تم هذا ، ولا بد أن يتم بإذن الله ، فان الانسان المسلم سيضمن خلاص نفسه وخلاص العالم .

سيرتد الانسان المسلم الى العالم بعد أن يكتشف ذاته الحقيقية ، ويحررها من أغلال خرافاته هو وأغلال الآخرين – فيحرر الانسان الآخر إنسان الحضارة الاوروبية وضحاياه .

الخلاص بالاسلام

الشك في مصير الحضارة

لم تعد تلوح النظرة المطمئنة الواثقة من مستقبل الحضارة الأوروبية في أعين المفكرين المستقبليين في اوروبا وأمريكا . لقد حل – لدى الكثيرين منهم قلق عميق ، وشك محير في صحة الأسس التي تقوم عليها هذه الحضارة، وفي سلامة الخط الذي تسير عليه، بل بدأ أنفذهم بصيرة في مصائر الحضارات يعلن النذير بالكارثة الوشيكة .

ان كتاباتهم وأحاديثهم تختلج بالرعب الذي يعمر قلوبهم ، الرعب من التشويه الذي أصاب روح إنسان الحضارة الحديثة ، وعقله واخلاقه ، وعلاقاته الانسانية ، التشويه الذي أصاب وضعيته الانسانية كلها ، فجعل منه انساناً حصل على اقصى ما راود أحلامه من ترف ولذة ولكنه يعاني من عذاب النفس ، والشعور بالغربة فيندفع إلى الفرار من ذاته ومن العالم بالمخدرات ، بعد ان لم تعد كل صنوف اللهو التي اخترعها بقادرة على أن توفر له نسيان ذاته ، ونسيان نمط حياته الحافل باللذات والقاحل من الانسانية .

هذا الإنسان أخذ يحس بتنافر بين ذاته وبين العالم الذي صنعه ، ونمط الحياة الذي اختاره لنفسه ، وصاغه وشيد اركانه على جهد مئات الملايين من البشر المستعمرين طيلة قرون . إن فطرة الله لا بد أن تعبّر عن نفسها في

النهاية ، وان مخالفة قوانين الفطرة لن تمر بغير عقــاب ، وقد آن لانسان الحضارة الحديثة أن يتلقى عقوبته ، وأن يدفع الثمن الفادح على ما فرط .

ان الخشية من مصير مفجع للحضارة المدنية وانسانهـا حملت كثيراً من المفكرين الذين يتمتعون برؤيا مستقبلية إلى البحث عـن حلول المشكـلة ، ينقذون بها الحضارة والانسان .

ومع ان هذه المحاولات لم تبلغ بعد درجة واسعة من الانتشار والذيوع ، ولا تزال تشغل مساحة محدودة جداً من الاهتمامات الفكرية للمثقفين ، إلا أنها مع ذلك ذات أهمية كبرى لأنهــا تمثـل بداية الصحو من غمرات الاندفاع الجنوني في تيار المادية النفعية ، والحيوانية ، واللااخلاقيـة وروح العدوان – هذا التيار الذي انجرف فيه العالم الغربي بأسره .

في هذا الصدد لم يعرض الإسلام بعـد في نطاق هذه المحاولات على أنـه يصلح أن يكون حلاً لمشكلة الحضارة الحديثه وانسان هذه الحضارة .

موقف الفكر الغربي من الاسلام

وسبب ذلك يعود إلى أن الاسلام دين . والعالم الغربي ينطوى على موقف نفسي وعقلي معاد للدين ، توارثه انسان الحضارة المدنية جيلاً بعد جيل منذ الصدام الذي حصل في عصر النهضة بين سلطات الكنيسة وبين رواد النهضة الأولين من علماء وفنانين ، ومفكرين ، وأدباء ، وبرجوازية ناشئة ويساريين .

ولم يُعرّف الإسلام في العـالم الغربي تعريفاً كافياً يجلو حقيقته ، ومـا يحفل به من امكانات عظمى لتقديم حلول ناجعة لما تعاني منـه الحضارة من أمراض وما تتعرض له من اخطار . بل ان ما حصل هـو على العكس من

ذلك إن التعريف الذي حصل عليه الاسلام في العالم الغربي كان مشوهاً ومزيفا إلى ابعد الحدود ، لقد عمل الاستشراق الموجه من الحركة التبشيرية أو الموجه من دوائر الاستعمار على أن يقدم صورة بالغة السوء للاسلام والمسلمين ، ولذا فالموقف العقلي والنفسي من الاسلام لدى إنسان هذه الحضارة يتراوح بين الاحتقار — باعتباره دين شعوب خاملة ، منحطة ، مستعمرة ، وبين البغضاء باعتباره الدين الذي قاد أتباعه فاجتاحوا المستعمرات البيزنطية ، في سوريا ومصر وشمال افريقيا ، ثم قضوا على بيزنطة نفسها ، بعد ان استولوا على اسبانيا وهددوا بشكل جدي أوروبا كلها. ثم حدث الصدام بين اوروبا وبين الاسلام في الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الصليبيين وتخليهم عن مواقعهم التي كسبوها . وقد خلف هذا التاريخ في نفسية الانسان الأوروبي روح البغضاء والنفور من الاسلام .

وقد تم لأوروبا أن تنتقم من الإسلام في العصر الحديث حين تمكنت من استعمار العالم الاسلامي ، وعملت بجرية على اقصاء الاسلام من الحياة العامة ، وصبغ حياة المسلمين بالصبغة الأوروبية ، نقول « صبغ » فان أوروبا لم تمكن المسلمين من أن يتعاملوا مع اسباب القوة الحقيقية .

لقد عملت كل ما في وسعها لتحطم الإسلام في نفس المسلم ، لتضمن لنفسها البقاء في مركز المستعمر القوي ، فقد كانت تعلم ان الاسلام قادر على ان يعيد انشاء الإنسان ، ومن هنا فقد شنت حربها على الإسلام بعد ان أمسكت بزمام السلطان في العالم الإسلامي وسيطرت على شعوبه ، هذه الحرب التي تلخصها كلمة غلادستون رئيس وزراء بريطانيا

وأحد بناة الامبراطورية الاستعمارية حينما قال « ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبـــة السيطرة على الشرق ، ولا أن تكون هي نفسها في أمان » .

**

هذا الواقع النفسي والعقلي الذي ينطوي عليه انسان الحضــارة الحديثة بالنسبة إلى الإسلام يحـول بشكل حقيقي دون أن تكون لدى القيــادات الفكرية في العالم الغربي رؤية موضوعية للاسلام تحمل هذه القيادات على أن تلتمس حل مشكلة الحضارة الحديثة في رحابه .

هل نفقد الأمل ؟

كلا ، لن نفقد الأمل في أنه سيحدث يوماً ما في المستقبل ما يحمل موقف العالم الغربي من الإسلام موضوعياً وعادلاً ، وإذا حدث هذا فلا بد أن يكون الموقف الذي سيتخذ لصالح اعتبار الإسلام حلا لا بديل له لمشكلة الحضارة.

خلاص المسلم اولاً

ولكن لا يجوز أن نترك الحضــارة الحديثــة في سيرها الخطر ، وان يترك انسانها في تخبطه المجنون ، في انتظار أن يجد انسان الحضارة الحديثة حلاً لمشكلته عن طريق الإسلام عندما تتحقق له معجزة اكتشافه من تلقاء ذاته ، او ربما تحدث الكارثة قبل أن يحدث ما يحقق هذا الأمل البعيد .

إذن كيف يكون الخلاص ، وما الطريق اليه ؟

إن الخلاص بالاسلام ما في ذلك شك .

والطريق اليه لا يكون بانتظار أن تتحقق معجزة في داخــل شخصية

الانسان الاوروبي تصحح موقفها من الاسلام وتكتشفه، وتتفاعل معه دون عقد ودون سلبيات، فتدخل في رحابه .

إن الطريق لا يبدأ بشخصية انسان الحضارة الحديثة، وإنما يبدأ بشخصية الإنسان المسلم .

إن خلاص المسلم لا بد أن يتم أولاً، فالمسلم هو الانسان الوحيد المؤهل بحكم عقيدته وموقعه لأن يتحقق انقاذ الحضارة على يديه . ولا يمكن أن يقوم المسلم بهذا الدور ما لم يؤهل نفسه له، ما لم يخرج هو من تخلفه الذي يجعله دائماً عرضة لان يصاب بأمراض الحضارة دون أن يحصل على شيء من فضائلها، وهو ما حدث منذ أول اتصال تم بين العالم الاسلامي وبين انسان هذه الحضارة حتى الآن .

والطريق الوحيد الذي يؤدي بالمسلم إلى أن يخرج من تخلفه، ويستعيد ذاته، ويتصل بالعالم اتصالاً سليماً فاعلاً، هو طريق الاسلام .

ولكن كيف يضع المسلم نفسه على طريق الإسلام ؟

الموقف السلبي من الحضارة وحركة محمد عبده

منذ حصلت الصدمة الأولى بين المسلم وبين انسان الحضارة الحديثة، فزلزلت كيانه، ووضعت وجوده ومصيره موضع التساؤل – منذ حصل هذا حدثت ردات فعل نحو الاسلام من قبل قادة الرأي والمصلحين تهدف إلى إعادة اكتشاف الإسلام، ووصل حياة المسلم به : ثقافة، ومبادىء، وممارسة .

وقد كان رد الفعل هذا – في الأعم الأغلب – ذا طبيعة سلبية، لأنه كان تعبيراً عن الرغبة في حماية الذات من الغزو الجديد، ولم يكن له في الأعم الأغلب طبيعة اقتحامية تهدف إلى اخراج المسلم من مستنقع التخلف ووضعه

في عالم تغيرت جميع أسسه ، ومقاييسه ، ومظاهر الحياة فيه ، وتحميله رسالته التي ترفع شعار عالم اكثر انسانية وكمالاً .

لم تكن هذه المحاولات تهدف إلى إعداد المسلم ليكون طرفاً في الصراع قادراً على استعمال أسلحة مكافئة لمنافسيه ، وانما كانت ترمي الى حمايته من أن يكون في حلبة الصراع . لقد كانت تهدف إلى إلباس المسلم دروعاً تقيه شظايا القذائف ، ولم تؤهله ليكون له موقف في الجبهة .

ولا بد أن هؤلاء قد غاب عنهم ، أن منطق الصراع الحضاري منطق افتراسي ، إن من لا يكون في احدى جبهات الحرب يكون وقوداً لها ، ففي الصراع الحضاري لا يوجد حياد .

وقد تطورت ردود الفعل هذه الى محاولات اصلاحية غلب عليها اظهار فضائل الإسلام من جهة ، والكشف من جهة أخرى عن ان محاسن الحضارة الاوروبية موجودة في الإسلام .

ومع ان هذا الاتجاه الذي قاده الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني ومدرستهما قد أدى إلى الانسان المسلم خيراً كثيراً بما أثار من افكار وطرح من قضايا ، إلا أنه مع ذلك كان محدود التأثير . فقد كان جوهر هذه الحركة يقوم على « تعليم » المسلمين دينهم في صيغة عصرية « وتعريف الإسلام لديهم » بعد ان كانوا على جهلٍ به أو نكران له ، وتنقية المعتقد الاسلامي من الخرافة والاسرائيليات ..

ولكن هذا لم يخرج اكثر من رجال ونساء « مثقفين اسلامياً» (انها تحولهم في احسن الحالات إلى اوعية للعلم بالاسلام) أوعية فقط يعرفون الإسلام

معرفة حسنة أو جيدة، دون ان يتفاعلوا معه . وهذا الأمر لا يساوي شيئاً في منطـــق الصراع الحضاري ، وفي صدد مهمـــة عظمى هي بعث العالم الاسلامي ، ومن هنا نجد أن الخمائر التي تكونت في رحاب هـذه المدرسة سرعان ما انزلقت نحو المحاولات « التوفيقية » بين الاسلام من جهة وبـين الحضارة الغربية من جهة أخرى . فتبحث عن أوجه الوفاق حتى اذا مـــا وجدت — فيما تظن — شيئاً منها أكدت عليه وأظهرتـــه وسلطت عليه الأضواء ، وإذا ما وجدت وجهاً من أوجه الخلاف احتـالت له ، وبحثت في كتب الفقه والحديث عن حل للخلاف ، وغالباً ما يكون الحل لمصلحـة الحضارة الأوروبية .

لقد تعامل هؤلاء « الموفّقون » مـع الاسلام ومع الحضارة الغربيـة ، وكأنهما « شيئان » من أشياء الحياة ، (منزلان ، ثوبان ، طريقتان في طهو الطعام) يمكن أن نستخدمهما معاً مع بعض التعديلات الملائمة هنا وهناك . لقد فات هؤلاء « الموفقين » أن الاسلام حياة ، وأن الحضارة الأوروبية يراد لها أن تكون حياة ايضاً ، وان الخلاف بينهما ليس في السطح والمظاهر والأشكال ، وإنما هو في الروح ، والنظرة والاتجاه، ولذا فان التوفيق بينهما شيء من المحال ، ودائماً يكون « التوفيق » في مثل هـذه الحالات لمصلحة منهج الحياة الغالب وهو في حالتنا هذه الحضارة الأوروبية ، ويتحول ما يتبقى نتيجة التوفيق — من منهج الحياة المغلوب إلى اشكال من الفولكلور ، يمارس للتسلية ، وللتفكه بالعودة بين الحين والآخر الى « الأجواء الشعبية » وفي حالتنا هذه يمارس « للبركة » .

ولدت بعد هذه المحاولة الإصلاحية دعوة أخرى في شبه القارة الهندية قادها وفلسفها الشاعر الاسلامي العظيم محمد اقبال ، وعبر عنهـــا في مجموعة من المحاضرات يضمها كتاب عنوانه « تجديد التفكير الديني في الإسلام » .

ومع تقديرنا العظيم لما تتسم به هذه الدعـوة من حرارة وصدق ، ولمـا

تشتمل عليه من إيجابيات أبرزها احياء الروح الفردية ، التأكيد على مبدأ الحركة في الإسلام ، التأكيد على طهارة العالم الطبيعي وخيريته ، الدعوة إلى اتباع طريق الاجتهاد في الفقه ، دفع المسلم الى مواجهة العالم من خلال الاسلام .. مع تقديرنا العظيم فاننا نرى ان روح التوفيق بين الحضارة الحديثة وبين الإسلام هي التي كانت تقود تفكير « اقبال » ، ولكن صيغة التوفيق المقترحة على شيء من التعقيد يرجع الى طبيعة فكر « اقبال » الذي كونته ثقافة غربية عميقة ومتنوعة إلى جانب ثقافته الاسلامية . ان صيغة التوفيق المقترحة بين الإسلام والحضارة الحديثة لا تتم بمعزل عن المسلم بحيث إن المسلم يأخذ صيغة جاهزة ، وانما يتم التوفيق من خلال المسلم ، انه بتعبير آخر توفيق بين المسلم وبين الحضارة الحديثة من خلال فهم جديد اكثر صدقاً وواقعية للاسلام يستبعد ما في الحضارة الحديثة من سلبيات .

على انه يفهم مسألة الإجتهاد فهماً لا نوافقه عليه في بعض جوانبه .

وأعظم المؤاخذات على دعوة اقبال — بالاضافة إلى انها توفيقية — إشادته ببعض الحركات المنتسبة إلى الاسلام واعتبارها نماذج صالحة للتجديد المطلوب في التفكير الديني في الاسلام ، وهذه الحركات هي : البابية ، والصيغة الكمالية في تركيا للاسلام ، فهو يعد الحركة البابية بأنها إحدى الحركات الإسلامية الكبرى الحديثة ، والتي هي ليست سوى صدى فارسي للاصلاح الديني العربي ، كما انه يمجد الصيغة الكمالية للاسلام في تركيا بحرارة .

إن هاتين الصيغتين في رأينا وفي رأي كل العاملين في سبيل انبعاث اسلامي فعال في العصر الحديث ليستا سوى رفض للاسلام ، وان ارتدتا بعض المسوح المنسوبة إليه ، والتي لا تخفي شيئاً من طبيعتها المعادية للاسلام .

أكرر ان إكبارنا للجوانب المضيئة الصحيحة من فكر اقبال ، واحترامنا لاخلاصه لا يمنعاننا من القول إن دعوة تؤدي إلى القبول بامثال هذه الصيغ للتجديد لا يمكن القبول بها على الإطلاق .

حقيقة المشكلة

الحقيقة أن المشكلة لا تجد حلها في كون الإسلام بحاجة إلى إعادة النظر فيه لتجديده كما هو مضمون دعوة محمد اقبال .

إن طرح المشكلة وفقاً لذلك يؤدي إلى خطأين كبيرين .

الأول ان اصول الاسلام وأحكامه كما انزلها الله تعالى توضع موضع تساؤل، ومن ثم فينبغي أن تؤدي اعادة النظر فيها – وفقاً لمتغيرات العصر – الى تجاوزها بشكل أو بآخر – لتحقيق الانسجام بين مسلم اليوم وبين متغيرات العصر ، وهذا يؤدي في النهاية الى ترك الاسلام كمنهج حياة وممارسة ، والتمسك به كشعائر وفولكلور .

الثاني ان هذا النحو من التفكير يستبعد الانسان من المشكلة . انه يعتبر بشكل ما أن المشكلة نابعة من المعتقد وليس من الإنسان ، بينما الحقيقة أن المشكلة نابعة من الصورة التي انتهت إليها صلة الانسان بالمعتقد .

إن مشكلة المسلم نشأت فيما نرى من حالة الانفصال بين الذات وبين المعتقد . إن الانفصال هنا قد تم على مستوى الفهم والشعور ،ولذا فهو لا ينافي بقاء المعرفة العلمية في مستوى العقل والإدراك .

ولسنا هنا في مقام التأريخ لما حدث وانما نحن في مقام تشخيص حالة نواجهها في أنفسنا وتنعكس آثارها في حياتنا ، ولذا فلا يعنينا هنا أن نحدد متى حدث ذلك . لقد حدث . ومنذ اللحظة التي تم فيها الانفصال غدا

الانسان المسلم خارج التاريخ تماماً ، فان الإنسان لا يصنع التاريخ في الفراغ، ولا يصنع التاريخ من خلال الآخرين ، وإنما يصنع التاريخ من خلال تعامله مع العالم وفقاً لموقف عقيدي في الحياة يتحد الانسان معه .

وهكذا خرج المسلم من حركة التاريخ، ولم يتوقف التاريخ بسبب توقفه، لقد تدفق التاريخ وتركه في مكانه ؛ لانه — المسلم — لا يملك رؤية يتعامل مع العالم من خلالها ليصنع التاريخ بتعامله مع العالم من خلال رؤيته . انه يعتقد الاسلام ، نعم ، ولكنه لم يتحد مع الاسلام ليتحول الى طاقة فاعلة ، وإنما هو (يحمل) الاسلام ، فلذا بقي كتلة خامدة . إنه حمار « يحمل اسفاراً » .

وكما انه عاجز عن صنع التاريخ من خلال ذاته فهو كذلك عاجز عن صنع التاريخ من خلال الآخرين ، لأنه لم يتحد بالآخرين بسبب انه وان لم يعد (متحداً) مع الاسلام إلا انه — على كل حال — لا يزال (حاملاً) للاسلام ، و (حمله) للاسلام عصمه من أن يذوب ويندثر عن طريق (الاندماج) مع الآخرين — وهذا من فضل الله تعالى .

هذه هي الصورة : كائن حي، يقف وحيداً ، وله دور ينتظره ، ولكنه لا يستطيع ان يقوم به. انه ليس ميتاً ، وليس كامل الحياة . انه مشروع . إنه امكانية . وهو يحمل ، معه الطاقة التي تحوله إلى عملاق . وتجعله بطلاً في دوره الذي ينتظره .

ثمة من يطلب منه أن يبقى حيث هو ، لأنه يخشى عليه أن يذوب في العالم ، عالم الآخرين ، وأن ينطفيء الى الأبد . وثمة من يطلب منه أن يلحق بالعالم ، منهم من يطلب اليه مع ذلك أن يتخلى عن (حمله) ومنهم من

لا يرى بأساً في أن يبقى مع (حمله) ومنهم من يرى أن يخفف من بعض (حمله) .

ان هذه الصيغ كلها تتراوح بين البقاء في الضياع خارج التاريخ ، وبين الاندفاع نحو العدم بعبارة أخرى تتراوح بين التسليم للمشكلة والعيش معها ، وبين الفرار منها .

إن حل مشكلة المسلم لا تكون بهذا ولا بذاك ، كما هو بيّن ، وانما تكون بتكوين عالمه هو .

ان حل مشكلة المسلم يتم بتحقيق فهم للاسلام يتجاوز بمعرفة الفكرة حدود كونها « معلومة » الى حالة تتحد بها الذات وتتحد هي بالذات .

إن بقاء المبدأ في حدود كونه « معلوماً » يبقي الذات في حالة كونها « وعاءً للعلم » وعاءً للمبدأ ، تكون الذات فيها « حاملة المبدأ » وفي هذه الحالة تبقى الذات خامدة .

أما تحول المعرفة إلى حالة اتحاد بين الذات والمبدأ ، فانه ينتقل بالمبدأ من كونه شيئاً محمولاً ومنفصلاً عن الذات الى كونه طاقة شعورية ، وتتحول الذات بالطاقة المتفجرة فيها نتيجة للاتحاد الى قوة فاعلة في التاريخ .

واذا حقق المسلم هذا الاتحاد الواعي بين ذاته وبين معتقده ، لم يعد (حاملاً) للاسلام ، ولم يعد (وعاء للاسلام) وانما غدا متحداً مع الاسلام، وحينئذ فقط يعود الى التاريخ ، ويصير قادراً على تكوين عالمه الخاص المتميز ويصير رسول الانقاذ للحضارة وللانسانية .

* *

واذا كان هذا ، وهو لا بد كائن باذن الله ، توجد حينئذ الامكانية الحقيقية لانقاذ الحضارة الحديثة ومن ثم انقاذ الإنسانية جميعاً .

وكيف تتحول هذه الإمكانية الى واقع ، وكيف يتحول هذا المشروع الى تنفيذ ؟

هل يتحقق ذلك باندفاع المسلم نحو العالم ؟

لا أعتقد ان الأمر سيحدث بحيث يكون عالم الاسلام مركز انطلاق نحو العالم ، وانما سيكون مركز جذب أعظم ستتجسد فيه صيغة حياة فريدة للانسان والمجتمع ، تستمد عظمتها من قيم ومفاهيم لم يعرفها انسان هذا العصر الا معرفة نظرية ، ولم يفكر أبداً في أن يجعلها قاعدة لحياته ومنهاجاً لسلوكه ، سيراها بعد ان بث فيها الإيمان الحي بالله تعالى الحياة والحركة الفعالة ، فتجاوز بها المسلم حدود المعرفة النظرية ، واتحد بها فتحولت الى طاقة شعورية تقوم عليها الحياة في المجتمع ومع الطبيعة . ان التوازن هو السمة العامة لهذه الحياة التي يمثل فيها الانسان الفعال القيمة العليا ، ويمثل فيها الايمان الحي بالله تعالى القيمة العليا عند الانسان المتوازن . يبني المسلم كيانه القوي وعالمه القوي في معناه وفي مظهره ، وفي قدرته على حماية نفسه وطريقة حياته .

حين يولد عالم الاسلام القوي مجسداً صيغة حياة متوازنة ، فان هذا العالم سيكون مركز جذب أعظم لانسان الحضارة الاوروبية .

ان التكوين العقلي والنفسي لدى انسان الحضارة الحديثة يحول بينه وبين

ان يحترم الفضائل النفسية والروحية في الانسان ، لانه فقد الصلة بها منــــذ اجيال بعيدة . انه بحكم تكوينه هذا يحترم القوة وحدها .

وستكون القوة موجودة في عالم الإسلام .

وسيكون انسان الحضارة الحديثة قد وعى واقعه المرير بصورة كاملة ، وشبع عذاباً من حياته المملوءة لذة والخالية من كل معنى ، المفلسة من الضمير وعند ذلك لا بد أن تكون قــد اتسعت المساحة التي تشغلهــا في اهتمامات المفكرين محاولات البحث عن حل لأزمة الحضارة ، وللخروج بانسانها من مساره الخطر ومصيره المفجع ، بل ستكون هذه القضية قد غدت هاجساً دائم الحضور في الوعي يضغط على حياة اكثر الناس وخاصة الفئة المستنيرة في مجتمع الحضارة الحديثة .

وسيرى انسان الحضارة الحديثة وقياداتـــه الفكرية في عالم الإسلام نموذجاً رائعاً لصيغة تتضمن الحل السليم لأزمة الحضارة وأزمة انسانها .

ولهذا وذاك سيكون عالم الإسلام بالنسبة إلى انسان الحضارة الحديثة مركز جذب أعظم ، يجعل العالم ينجذب نحو المركز للوقوف على الصيغة عن كثب ، ولاقتباسها ، ولن تدعو الضرورة الى أن يكون عــالم الاسلام مركز انطلاق نحو العالم .

• •

هل يحدث هذا بسرعة قياسية ؟

لا ندري . وان كانت طبيعة الأشياء تقضي بالنفي ، سيمر وقت ربمــا

يكون طويلاً لتحقق الصيغة اشعاعها العالمي ، ومن ثم لتكون مركز جذب أعظم . إن هذا سيحدث في النهاية ، إذا تحققت شروطه ، وليس المهم متى سيحدث فعندما تكون المسألة انشاء حضارة وعالم للانسان جديد لا يجوز أن نفكر في الأمر كما لو كان شيئاً ينبغي أن يحدث في حياة جيل ، ان المسألة أكبر من هذا بكثير .

المهم ان يحدث في الوقت المناسب قبل الكارثة .

ان انسان الحضارة الحديثة – بحكم الشروط التي غدا اسيراً لها – عاجز عن أن يحرر نفسه ، ويصحح وضعه . والمسلم وحده بما يملك من امكانية تحقيق عالمه بالاسلام هو القادر على الخروج بالإنسانية من أزمة الوجود والمصير .

إن مسؤولية القيادات الواعية ، وطلائع الانسان المسلم التي وضعت نفسها على طريق الوعي تتعدى انقاذ المسلم الى انقاذ الإنسانية . وانها لمسؤولية من الفخامة بمقدار ما هي عليه من شرف . إنها مسؤولية يخشع أمامها القلب دون أن يخاف لأنه يستمد العون والقوة من الله القوي العزيز الحكيم الرحمان الرحيم ، الله الذي يتحول الانسان المؤمن به من قزم الى عملاق ، ومن تفاهة الى بطل ، ومن لا شيء إلى وجود كبير خير فعال حاضر في الكون كله ؛ ورضوان الله أكبر .

بقي سؤال أخير .

ما الصيغة المناسبة لتحقيق الاتحاد بين الذات وبين الإسلام في عالم معاد حافل بالتغيرات والمعوقات ؟

ان الجواب على هذا السؤال يحتاج الى كتاب مستقل ، فصيغة لتحقيق هذا الهدف العظيم أكبر من أن تتسع للحديث عنها سطور أو فقرات في فصل ، أو فصل في كتاب .

ان العالم الإسلامي قد شهد ، ولا يزال يشهد ، منذ حركة جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده صيغاً كثيرة تعمل لتحقيق الانبعاث الإسلامي . بعضها حقق انتشاراً واسعاً وفعالاً على مستوى العالم الإسلامي ، وبعضها حقق نجاحاً محدوداً في هذا المجال ، وبعضها دون ذلك . وهي متفاوتة في مدى قدرتها على تحقيق هذا الاتحاد بين الذات وبين المعتقد الذي هو الشرط الأساس للانبعـاث في عالم حافل بالتغيرات التي يملك احداثهـا انسان الحضارة الأوروبية .

ولا شك – على كل حال – في أن الله تعالى يأخذ بأيدي المجاهدين فيه فيهديهم الى سبيله .

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وان الله لمع المحسنين[1]»

* *

لعل هذا الأمر سيتم بسهولة ؟

قطعاً لا . سيكون مخاض الولادة أليماً يقتضي الإنسان المسلم جهوداً كبيرة لانه يدخله في صراع مع نفسه يقتضيه « الجهاد الأكبر » وسيقتضي قياداته الواعية تضحيات كبيرة ، ويقتضي طلائع عالم الاسلام جهوداً وتضحيات لا يخفف من قسوتها الا الايمان بالله ، والتطلع إلى نصر الله ، والوثوق برضوان الله .

---

(١) سورة العنكبوت (مكية) الآية : ٦٩ .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم [١] . »

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم » [٢] .

« يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون. واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » [٣] .

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » [٤] .

(١) سورة الرعد (مكية) الآية : ١١ .
(٢) سورة الانفال (مدنية) الآية : ٥٣ .
(٣) سورة الانفال (مدنية) الآية : ٢٤ — ٢٥ .
(٤) سورة غافر (مكية) الآية : ٥١ .

فهرست الكتاب

الصفحة	العنوان

من مباديء الاسلام العامة

٥٧ – ٢٣٢

الجاهلية الحديثة

٢٣٣ – ٢٩٦













